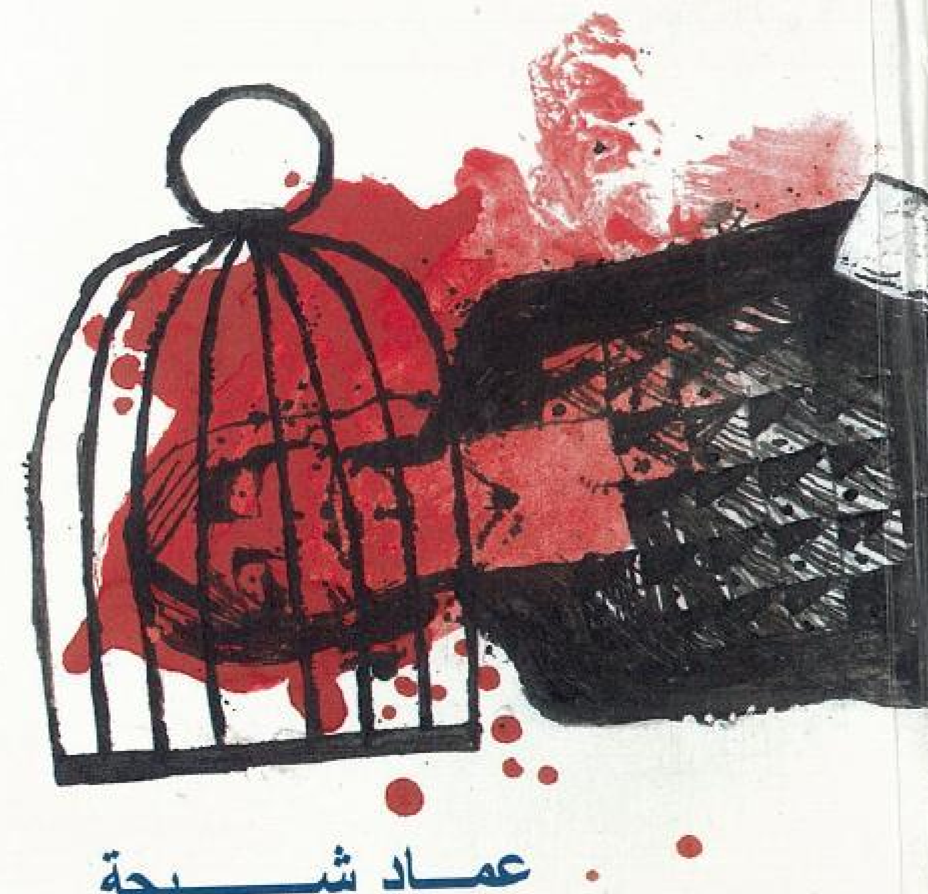
نصوص من وراء الجدران

I

موت مشتهى

فصول في تحولات رباب عبد الجبار

رواية



عماد شيحة



موت مشتهى[1]

موت مشتهى

رواية

عماد شيحة

الطبعة الأولى 2005

الناشر دار السوسن
هاتف ـ فاكس:6665696 ـ 6623027
موبايل: 092904455
ص.ب: دمشق ـ 9063

موقع الانترنيت www.daralsawsan.com
البريد الكتروني:alsawsan@mail.sy

توزيع دار الحصاد هاتف: 2126326

الإخراج: عائدة سلامة (أليسا) هاتف:5425805 ـ
خليوي: 093 331402

عماد شيحة

موت مشتهى

فصول في تحولات رباب عبد الجبار

رواية

لوحة الغلاف: الفنان يوسف عبد لكي

«وأنتِ ابنتي...

وأنت...

وأنت ابنتي...

فاهدني

جنون البحار...

جنون الرياح...

جنون الذي لا ينام

وخلف السؤال...

يباب وموت...؟»

سعد حداد



«أن تكوني مذنبةً عظيمة، فهذه حقيقة، ولكنك مذنبةٌ بالدرجة الأولى لأنك عبثاً خُنتِ نفسك وقتلتِها، يا له من أمرٍ رهيبٍ أن تعيشي في هذه القذارة التي لا تطيقينها وفي الوقت نفسه تدركين (فقط لو فتحت عينيك) أنّك بهذا لا تساعدين أحداً بشيء، ولا تنقذين أحداً من شيء!»

دويستوفسكي

الجريمة والعقاب

المحتويات







خيّم الليل وأرخى سدوله على التلال والجرود القريبة وتداخل مع المرتفعات والجبال الممتدّة غرباً وشمالاً، لم تستطع نسمات الفجر الآتي أن تخفّف من وطأة حرٍّ كاد يضرم نيرانه ويعصف في أيّة لحظة بالأشجار التي بخَرَت ماءَ أنساغها فمالت أغصانها وذوت أوراقها . . . حتى القمر لفحت برودةَ أضوائه هالةٌ برتقاليةٌ ثقيلةٌ كادت تطبِق عليه وتستثير اللهب على مرآته البيضاء! همدت الحركة وقد تداخلت الكائنات على الأرض الوعرة محاولةً النفاذ إلى أعماقها هرباً ولجوءاً، لولا طلقاتٍ وزّعها العسس بين فينةٍ وأخرى مخترقةً السكينة مذكّرةً بوجودهم وقد أحاطوا بالبلدة وسدّوا منافذها!

«لم يمر علينا حرٌّ كهذا أبداً!» خاطبت آمنة نفسها وقد استطالت تلك «الأبداً» فصارت عقوداً. ودّت، لو كان بمستطاعها، أن تتخلّص من كلّ ثيابها وتستلقي عاريةً فوق حشائش نضرةٍ تهسهس تحت ضوء البدر المكتمل فتأتي ظلالُ غيمةٍ تحطّ فوقها لتمتنع عن عينيه الفضوليتين وتهطل رهاماً لا يتوقّف إلا وقد ابتردت واستعاد جسدها فتوّته فرجعت صبيةً تركض بين الجرود وفوق صخورها وتربتها التي تعفّر نعليها، تقطف أوراق الخبّيزة الخضراء العاتمة أو الأصابع الشوكيّة البيضاء للعكّوب المحاطة بأوراقه الشائكة الخضراء، أو الأزهار الصفراء الهفهافة التي

تكلّل أوراق وعروق البابونج الذي يفترش مساحاتٍ واسعةً، وحالما يزداد ابترادها تستقلب الطقس وتحيل الفصل، فتثب بين تلك الصخور على صدى وقع الريح التي تهبّ شمالاً وغرباً كأنّما تتوالد في كهوف الجبال دون أن تمزّق النسيج الكتيم للغيوم الرماديّة الكثيفة التي تلفّها وتُشحِب نور النهار فتُضفي بهاءً على التماعات البرق وتصالبات نصاله التي تشقّ الغيم بزرقتها الفولاذيّة قبيل كلّ قرقعة رعد، قافزةً بثوبها الكحليّ المنقّط بالأبيض وقد رفعت الريح أطرافَه كاشفةً سروالها الأبيض المزركش بكشاكش مخرّمةٍ عند كاحليها ترفرف كأجنحة حمامٍ فوق نعليها الأسودين، مثلما لعبت بجديلتيها الفاحمتين وكادت تطيح بمنديلها الأبيض والفراشات الملوّنة التي تطايرت حول حوافّه. من مكانٍ لآخر تنحني لتلتقط أقماع الفطر المتفقّع فجأةً عن أدمة التربة السمراء ثم تضعها في سلّةٍ قصبيّةٍ تصرّ الريح على انتزاعها من مرفقها.

«كم أضحت تلك الأيام بعيدةً أيتها الجدّة الخرفة!» تابعت مناجاة نفسها وهي تستعيد صورتها طفلةً ثم صبيّةً سبّبت ألف مشكلةٍ ومشكلة بعدما أرادها كثيرون زوجةً لهم أو لأبنائهم... «استيقظي أيتها العجوز الحمقاء.. أبعدْ هذا العمر؟!»

لكنّ الناس ما عادوا يلتفتون لذلك.. حرٌّ أشدّ أو أخفّ، بردٌ أقلّ أو أكثر، مطرٌ أو جفاف، ما عاد ذلك مهمّاً وقد دارت الدورة عليهم خمسة أحوالٍ فعادت بلدتهم فقيرةً مثلما كانت تبحث عن خبزها قبل مائها وهوائها، قبل أن تهبّ رياح السياحة وما تلاها من هبوبات التهريب فتقلب عاليها سافلها وتغير عليها كغزوات البدو والأعراب الذين عضّهم الجوع ونهش أحشاءَهم فأغاروا على القرى الآمنة وأعملوا فيها فتكاً ونهباً وسبياً وما غادروها إلاّ وقد دُكّت دكّاً. حتى تلك الطلقاتُ المتفرّدة ما عادت تفزع العصافير ولو أنّها تثير تساؤلاً مبهَماً، أيّة معجزة لا تجعلها تندلع وتفتح جبهةً كاملة تشعل الأرض حرائق وتأتي بالقتلى كتلاً مهشّمة لا

تستطيع سوى الأمّهات تعيين هويّاتها من علاماتٍ شديدة الخصوصيّة والتميّز علقت بذاكرتهنّ من طفولة أجساد الأبناء؟

استعاذت آمنة من وساوسها، وتمنّت أن يصل الفجر سريعاً لتوقظ زوجها فيؤدي صلواته الصباحيّة بينما تمضي هي لدفن أحزانها وهواجسها وذكرياتها في العمل اليوميّ الشاقّ الذي تصطنعه إن لم تجده. لكنّ الفجر لم يأتِ وكذلك المؤذّن لم يستيقظ، وقد استبدّت بها الوحدة رغم قعقعة الطلقات المتناثرة فآلت أن تفيء لأيّامها الخوالي لولا مرور رباب بخاطرها... تنهّدت وقد اكتوت بذكراها.

«ما ذنب البنيّة المسكينة يدفعون بها لأحضان غانم الضبعيّة؟ ابن عمها على عيني ورأسي ولكن افتداءً لدم أخيه فواز وإرضاءً لضمائرهم المعذّبة بسبب قتله؟!»

راحت العجوز تحيك من ندبها ونواحها على ابنتها ما تستر به عجزها عن الذود عنها أو الوقوف إلى جانبها... تطلّعت من نافذتها فاصطدمت عيناها بصفحة السماء الحالكة التي زادت وحشتَها نجومٌ خابيات... خفضت بصرها فتدحرج على مهلٍ من سطح المنزل واتكأ على نافذة علويّة مضيئة. «لا تزال المسكينة مستيقظة!» انزلقت عيناها على مزرابٍ بدا شقّاً طوليّاً في جانب الجدار، وصلت الأرضَ الترابيّة حيث تطاول ضوء القمر منيراً بقعاً متباعدةً وهو يتخلّل الجدران والأشجار التي ارتفعت حاجزاً في وجهه، ودّت لو ظهر أسفل المزراب فأضاء وجهها للهواء الجافّ والليل، جالت عيناها محاذيةً الجدار مرتفعةً على مهلٍ فميّزت دالية الكرمة الناهضة على جانبي المصطبة والمتسلّقة سقفها متطاولةً على عمودين خشبيّين يسندان عارضةً تتكئ عليهما وقد انتشرت الأغصان وتمدّدت الفروع بينها وبين عارضةٍ موازيةٍ تعترض الجانب الآخر من

المصطبة وبينهما تشعّبت وتشابكت الأغصان والأوراق والعناقيد الحمراء حتى كادت تنسج ستارتين وسقفاً للمصطبة العريضة حيث استلقى زوجها وقد ارتفع غطيطُ نومه معتمداً عليها في إيقاظه آن الصلاة .

تذكّرت فورات غضبه . . . لم تتمنَّ موته فهي واثقةٌ أنه حتى في غيابه سيوالي من وراء حائط الموت صبّ جام غضبه عليها والتشنيع بها والحطّ من قيمتها حتى يقطع كلّ صِلاتها بالبشر ، غمغمت : «ليسامحه الله إن وجد في قلبه متّسعاً لرحمته والصفح عنه!»

تذكّرت الضوء العلويّ فتحاملت على نفسها وانسلّت في العتمة تقطع باحة الدار الداخلية المكشوفة حيث بدا الحرّ أخفّ وطأةً . عوى كلبٌ أمام البوّابة ثم عاد لغفوته وهمهمت البهائمُ في حظائرها دون أن يعلو صوتها . دخلت ممراً قادها إلى درجٍ تلمّست خطواتها عليه ثم خرجت من فوهته فأحاطت بها السماء واستعادت الرؤية . . مشت متثاقلةً تجرجر بقايا عمرها وأوجاعها ولهاثها ، وجدت باب ابنتها مغلقاً ، تردّدت أمامه لحظاتٍ . . . ما الذي ستقوله لها ؛ هل تواسيها وتسألها الصبر وقبول الدفن حيّةً في كنف غانم كيلا تغضب أباها وإخوتها أم تشجّعها على الرفض وتعدُها بعونٍ لا تستطيع تقديمه؟ حسمت أمرها ، ستحتضنها وتتركها تبكي قليلاً . فتحت الباب فرأتها مستلقيةً على بطنها وقد انكشف ثوبها عن فخذيها وقد استراح أحدهما على طوله بينما انطوى الآخر دافعاً ركبتها قريباً من مرفقها المنثني لصقها وتمدّدت ذراعها الأخرى ملتقيةً ببدايات فخذها المفرودة وملتصقةً بها ، بينما غطّى شعرُها الأسود صفحة وجهها فأخفى معالمه . تأمّلتْها طويلاً وتنبّهت أنّها لم تخلع جوربيها بعد ، أرادت انتزاعهما عن ساقيها لكنها خشيت إيقاظها ، استدارت عائدةً وهي تغمغم بأدعيةٍ غير مفهومة . أطفأت النور وتطلّعت إلى القمر «ألن يأتي الفجر؟»

تركت الباب مواربًا وهبطت من حيث أتت وقبيل باب غرفتها وقفت تلتقط أنفاسها وتعزّي نفسها . «إمّا أنّ التعب والإرهاق نالا منها فهدّا حيلها وأسلماها للنوم بتلك الوضعيّة الخرقاء، أو أنّها ادّعت النوم اتقاءً لمقابلةٍ غير مرغوبة!» والت الحديث إلى نفسها وعيناها تجوسان ما حولها . «من خمس سنوات فقط أُحرق قسمٌ من الدار وهُدم جزءٌ آخر وهاهي ذي قائمةٌ من جديد! كم ستبقى؟ ومتى ستزول؟»

فكّرت أن تباشر أعمالها الصباحية، استدارت وتطلّعت إلى قبّة الفرن المهمل، اتّجهت نحوها محاذيةً المصطبة غافلةً عن النائم داخلها، تلمّست جدرانها . . . أحسّت بشوقٍ لولوجها وإذكاء النار في الفرن. هيهات لها ذلك! فمذ شرّقت الستّ هناء زوجةً لناصيف أبت أن يُشعَل وأصرّت أن يأكلوا من خبز الأفران الآليّة الذي لم يستسغ طعمه أحدٌ وإن لم يجرؤ على معارضتها . »الإبليسة كانت مثل نعجةٍ ما لبثت أن تنمّرت، بدأت بالفرن ثم التفتت لحظيرتي الأغنام والأبقار وقنّ الدجاج وعملت بإصرارٍ على إلغائها أو إخراجها خارج السور . لن تكتفي بذلك، فهي دائبةٌ على إقناع ناصيف بضرورة هدم الدار كليّةً وإقامة بناءٍ حديثٍ محلّها تحيط به بساتين من أشجار الفواكه وحدائق الأزهار، ولن تتوقّف حتى تحقّق مرادها ولو كان ذلك على حساب موت قاطني الدار . » عادت أدراجها يائسةً . . . «ما كان ينقصني إلاّها لتنغّص عليّ أيامي الأخيرة! الحقّ ليس عليها، بل على الحمار الكبير ناصيف! أيّ شيءٍ فعلت به؟ أيمكن أن تكون قد سحرته؟ ما كان يومًا من النوع الذي تسحره امرأة، هنالك شيءٌ ما يدفعه لتركها تتصرّف على هواها! ما الذي يفكّر فيه ابن أبيه ذاك؟ أيمكن أن يكون بصدد طرد أمّه وأبيه من الدار والاستئثار بها بشكلٍ غير مباشر؟ أيمكن لابنٍ أن يفكّر بتلك الطريقة؟» دخلت الغرفة وهي تشير بكفّيها وتغيّر ملامح وجهها كأنما تخاطب شخصًا ما فعلاً، جلست على فراشها دون أن تجرؤ على الاستلقاء خشية أن تغفو «آهٍ لو

أغفو يوماً ولا أستيقظ أبداً . . . ولمن أترك رباب؟ ولكن ما الذي أستطيع فعله لها؟ لا ، خيرٌ لي ألا أُحرِق قلبي برؤيتها تتعذّب على هذه الصورة . »

عاودها الأسى على البنيّة المغلوبة على أمرها فتطلّعت مجدّداً نحو غرفتها المعتمة وقد أدخل القمر عيونه المتلصصة خلال شباكها المشرَع دون أن يكشف نورهُ جوفَها . لاح لها وجه حسين وقد تقاطعت على وجهه أخيلة قضبانٍ حديديةٍ لائماً :

ـ لمْ تحضري لزيارتي يا أمي !

أحسّت بحطبةٍ تعترض حلقها فلا تتيح لها ابتلاع لعابها ولا تسمح لها أن تتراخى فتجهش :

ـ حسين ، والله لم يسمحوا لي . أبوكَ قال ناهراً : النسوة لا يذهبن إلى السجن ، أمّا ناصيف فكان أشدّ ظلماً : ليس لنا ذنبٌ في اختياره الذهاب هناك ! أهمليه طالما أهملنا .

«كيف صار قلبه أسود مثل الفحم؟ هل كان دائماً هكذا وما كنت أراه؟ لولا أنني أعرف أباه ، وأنّني متيقّنةٌ أنه خرج من أحشائي لارتبتُ بأن يكون ابني ! »

تلوّى الوجه ألماً وكاد يجهش . «لا ، حسين لا يبكي أبداً . يضع ملحاً على جرحه ، يحطّم أسنانه وهو يسحنها ببعضها ، يدمي شفتيه ، لكنه لا يبكي ! »

ـ وأطفالي يا أمي . . وزوجتي؟ لم يزرهم أحد . . ولم يجبر خاطرَهم بكلمةٍ طيّبةٍ واحدة ! ألا تسألين نفسك من أين سيأكلون ويشربون ويلبسون؟ أنسيتم أنّ زينب لا تستطيع اللجوء لأهلها؟ لم أترك لهم شيئاً ولا أستطيع منحهم أيّ شيءٍ من هنا ! !

لم تحتمل آمنة أكثر ، أوجف قلبُها وامتلأ قنوطاً ، أغمضت جفنيها

ودفنت رأسها في راحتيها وراحت تنتحب وقد اختلجت أطرافها وهي تكابر كيلا يعلو صوت نشيجها فيفضحها وسط سكون الليل. «الله يغضب عليك يا ناصيف ويريك ليالٍ سوداء مثلما فعلت بأخيك! سامحني يا ربّ، ارضَ عنه واملأ قلبه رحمةً وشفقةً على إخوته واجعله يحنّ على زينب وأولادها ولا يرمي رباب بين مخالب غانم!» غاب وجه حسين.. غابت رباب.. وبقيت آمنة ملتفةً على نفسها تنتظر الفجر...

ما كانت رباب قبيل ذلك متنبّهةً لا للطقس ولا لسكّان الدار ولا لغانم حتّى ! رغم أنّ الأخير شكّل معضلةً حقيقيّةً بالنسبة لها ، أحاطت بها ولفّت خيوطها الناعمة دوراتٍ طويلةً لتستحيل مغزلاً يطوّقها فلا تستطيع منه فكاكاً ولا إلى تمزيقه سبيلاً . وهاهي ليلتها الخامسة عشرة في البيت الذي كاد يصير غريباً عليها . «هل هناء هي السبب؟» خاطبت نفسها ، وسرعان ما نفت ذلك . «هناء طارئةٌ على المكان ، ورغم طموحاتها بتغييره وبالهيمنة عليه وتشكيله على هواها فهي في نهاية المطاف ليست سوى لعبةٍ بيد ناصيف يحرّكها كيف شاء وهي تحسب أنّه خاضعٌ لها يأتمر بأمرها ويحرص على رضاها دون قيدٍ أو شرط . المشكلة أبعد وأعمق . »

غادرت الغرفة ، ملأت رئتيها بهواء الليل الجافّ ولم تتبيّن النجمات البعيدة فما زال ضوء الغرفة يُعشي عينيها . «هل اختفت نجمة القطب؟» تساءلت وهي تنعطف محاذيةً جدار الغرفة ملتفتةً غرباً لتصطدم عيناها بالجبال السوداء القصيّة ، تابعت سيرها ووقفت على حافّة السطح تمدّ جسدها قدر ما يتيحه حذرُ السقوط وهي ترنو للأسفل ، للمصطبة حيث ينام أبوها . تناهى صوت غطيطه خافتاً إلى أذنيها ، لم يستيقظ بعد!

«منذ متى أضحيتُ غريبةً عن المنزل؟ مذ هبطتُ إلى المدينة لأتابع دراستي ، مذ افتتحتُ صيدليتي وفرضتُ عليهم أن أبات وحيدةً في المدينة رغم أنف ناصيف وبمهزلة أن بيتي سيكون لصق بيت خالي ، أم

منذ هوجم المنزل طلباً لحسين وفواز اللذين افترض رجال الشرطة أنّهما مختبئان داخله، أم من لحظة التحاقي بأبي وبقائي معه صيفاً وشتاءً كاملين طريدين مثل ذئابٍ توحّشت فلاذت بالمغائر وكهوف الجبال النائية رافضةً تركه وحيداً بعدما تخلّى الجميع عنه وتخلّيت أنا عن كلّ شيءٍ لأبقى إلى جانبه عاصيةً أوامره بالعودة بصراحةٍ قاربت حدّ الوقاحة؟؟ لا، لقد تمّ ذلك منذ زمنٍ أبعد مثل حلمٍ لازمنيٍّ موغلٍ في القدم ومفرطٍ في الغموض. مهرةٌ محجّلةٌ تغيب ملامحها في الليل ولا يكشفها سوى التماعات بياض قوائمها وغرّتها، تفزع لكلّ نأمةٍ وتهمزها كلّ سكنة، قموصٌ تخشى خيالها وتفزع أن يستحيل أنشوطةً تلتفّ على عنقها فتدخلِها الأسر وتذهب بشموسها وجموحها، وفجأةً ورغم حيطتها وحذرها تلتفّ الأنشوطة فيطيش صوابها، تتلوّى تحمحم وتصهل، تحاول تملصاً فلا تستطيع منها فكاكاً، تشدّ وتشدّ فلا تيأس ولا ييأس صاحب الأنشوطة. . . تخور قواها فتجذب جذبةً أخيرةً وتتساقط وقد غطّى الزبد شدقيها! لم تكن السياط قد أتت بعدُ ولا كوابيس الاغتصاب.

لكنّ الحلم استعاد حضوره في صحوها وكادت تنهض وتستيقظ فزعةً وقد أمسكت حنجرتَها بكلتا يديها خوف إطلاق الصرخة أو خشية الاختناق! وفي غيبتها الطارئة كادت تفقد توازنها وتهوي للأسفل لولا أن طرق سمعَها وقعُ خطواتٍ تصعد الدرج إليها. استعادت نفسها وهي تتساءل «من القادم؟» فكّرت. «لا أحتاج مواساتها ولست راغبة بالإصغاء لنصائحها، فعذاباتها وتسليمها بخنوعها القدريّ آخرُ ما أحتاجه».

دخلت الغرفةَ مسرعةً، فكّرت أن تطفئ النور لكنّها امتنعت، فالعجوز قد رأت الضوء دون شكٍّ وهو ما دفعها للصعود، انتزعت نعليها ورمتهما دون عنايةٍ واستلقت مهملةً عن قصدٍ إرخاء ثوبها على فخذيها. في حركتها العجول، وقد اقتربت الخطواتُ المتثاقلة، أحسّت أن ثوبها

كشف فخذيها وبداية كفليها بشكلٍ غير لائق، إلا أنها لم تبالِ، فقد اقترب لهاث العجوز وكادت أنفاسها المضطربة تحرك الهواء الساكن المحيط بها. استرخت أكثر وأوهمت نفسها أنها نائمةٌ فعلاً وقد أوصلتها تمتمات الأمّ وابتهالاتها الغامضة إلى حافة الحلم أو تخم الجنون!

كانت تقف مطرقةً تبصر أباها متكئاً على حشيّته دون أن تراه مدركةً أنّه يبذل جهوداً جبارة لضبط انفعالاته حرصاً على عدم خروجه عن طوره. في الآن نفسه أحسّت عيونَ ناصيف تكاد تخترقها، ولو أنّ يديه وصلتا إليها لمزّقتاها إرباً. من هي تلك الصعلوكة التي ترفض أوامره؟ لكنّه اضطر أن يكبت هيجانه حفاظاً على مظاهر تواجده بين يدي أبيه واضطراره للامتثال له وهو موقنٌ أنّ أباه لن يعارض ولو أنّه سيراعي قربه الخاصّ من رباب وحنوّه عليها.

ـ لن نناقش الأمر. سيكون غانم زوجاً لك، ونحن فعليّاً لا ننتظر موافقتك!

ودّت لو كان أبوها غائباً، لأجابته إذن كما يتوجّب عليها أن تجيب دون أن تهتمّ بردود فعله على إجابتها فهو لا يستطيع أن يؤذي إلاّ جسدها وربّما يشوّهه، لكنّ ذلك لا يخيفها، فما يخيفها فعلاً تصوّره أنّها تخشاه. لكنّها اضطرّت للصمت إكراماً لأبيها وكيما يتاح له أن يدافع عنها، إن فعل!

ـ استمعي يا ابنتي . . . أنا أعلم أنّ غانماً ليس أهلاً لك ولا يستحقّ ظفرك. لكنّ رغبتنا لا تتوافق دوماً مع ما تضطرّنا إليه الظروف، هناك أعرافٌ علينا أن نراعيها حتى لو حسبناها خاطئةً، وغانم محقوقٌ لدينا ولا نستطيع هروباً من حقّه، فوق هذا هو ابن عمّك وقد أعطيته كلمتي و . . .

وجدت لِيناً في حديث أبيها، هو يحاول إقناعها إذن وربّما لا يريد إكراهها، ربّما استطاعت أن تغيّر رأيه!

ـ لكن أنا ابنتك يا أبي، وحيدتك. كيف ترميني تلك الرمية؟ لو أنّ غريبةً لجأت إليك واستجارت بك لأجرتَها، أنا التي ظلّت تتعلّم سبعة عشر عاماً أصبح زوجةً لذلك السفيه الذي لا ترتضيه أنتَ ضيفاً لديك لمجرّد أنه ابن عمي وأنّ دم أخيه في أعناقنا، بل في عنق ناصيف؟ ما الذي يفعله حسين في السجن إذن؟ أليس ابنَك هو الآخر مثلما غانم ابنُ أخيك؟

ـ استمعي دون فلسفةٍ زائدة، لا تحسبي نفسك استحلتِ شيئاً مختلفاً إن تعلّمتِ وصار لديك صيدليةٌ في المدينة التي تباتين فيها وحدك. أنت امرأة، حُرْمة، ولدتِ هكذا وستبقين كذلك إلى يوم موتك. ما يقوله أبوك سيحدث بغضّ النظر عن موافقتك أو عدمها!

كانت حرارة ناصيف ترتفع شيئاً فشيئاً وبدا أنّ انفعاله الكامن سينفجر بين لحظةٍ وأخرى. أحسّت رباب بها فبادرت لاستباقها كيلا تتحوّل الكلمات التي عليها أن تطلقها في وجهه إلى صرخات ألمٍ وتوجّعٍ تحت ضرباته التي ستنصبّ عليها من كلّ جانبٍ فيحسب ساعتها أنّ بطشه أخرسها وحولها لمجرّد امرأةٍ.. هامشٍ.. تابعٍ ذليلٍ وظلٍّ لسطوة ذكورته!!

ـ ومن تحسب نفسَك؟ ربّاً صغيراً، ترسم قَدَر أمَتِك وتقول لها سيري فتسير؟ كن ربّ امرأتِك زوجتِك إن رغبت أو استطعت. أمّا أنا فلا تقترب مني، لم يمت أبي بعدُ، ربّما سَتربطني بعد رحيله بجنزيرٍ وتسوطني يومياً، لكنّه لا يزال بيننا! استمع أنت، أنا لي حياتي الخاصّة وسأحياها كما أشاء وليس لك أيّ دخلٍ بها، خاصةً بحضور أبي. وعليك أن تفهم...

أخرستها اللطمة في اللحظة التي أمسكت فيها باليد الأخرى وقد انهالت عليها فوق وجهها بينما صرخ الأب وهو يتلمّس عكازتيه ويلعن في سريرته الزمن الذي أصابه بالعجز وحكم عليه أن يبصر ولديه يتطاولان على بعضهما ويجرؤان على ذلك بحضوره!

ـ كفّا كلاكما! أما تستحيان؟ وأنت ألا تخجل من نفسك وتمدّ يدك على أختك بحضوري؟ يبدو أنّ العصا لم تحسن تربيتك صغيراً وهاأنت ذا تحتاجها كبيراً. . .

أطلق غضبتَه على نفسه ووجّهها نحو ناصيف الذي بوغت فراح يتراجع محتقناً لاهثاً يقدح شررُ عينيه أمام نخس العكّازة التي اندفعت بضرباتٍ قويّةٍ نحو صدره ونحره. فكّر أن يدفع العكّازة بيده. دفعةٌ صغيرةٌ تكفي لجعل العجوز المجنون يتهاوى أرضاً! لكنّه تراجع سريعاً عن فكرته، «ما الذي سيمنعه من إطلاق النار عليّ لحظتها أو في أيّة لحظةٍ قادمةٍ أخرى؟ أوليس ممكناً أن تتغلّب شدّة الإهانة على عجزه فيطردني ويكفّ يدي عن التصرّف بأملاكه ويستعيد هيمنته السابقة؟»

استبعد ناصيف الفرضيّة الأخيرة، إلا أنّه تيقّن من حدوث الأولى فامتثل حانِقاً ومُكرَهاً لأوامر أبيه التي انطلقت كقذائف مدفع:

ـ انقلع وابتعد عن وجهي ولا ترنِي وجهك، لقد تماديتَ كثيراً، إيّاك أن تتدخل في ما يعنيك أو لا يعنيك دون إذني. تحرك! ما الذي تنتظره؟ هل تفكّر بضربي أيضاً؟

ـ معاذ الله يا أبي ـ لكنّه ذنبها!

ـ اخرس!

والى الأب غضبَه وصراخَه الوحشيّ حتى غادر ناصيف وقد أحسّ أنّه كاد يفقد كلّ شيءٍ دفعةً واحدة وفي لحظةٍ واحدةٍ نتيجة تهوّره واندفاعته الحمقاء تجاه رباب التي كانت لحظتها تضغط على نفسها بشدةٍ كيلا تنفجر فتجهش بكاءً.

كانت اللطمة تكوي صفحة وجهها وتدوّي في أذنيها وتدفع دمعاً غير إراديٍّ من عينيها، لكنّها أرادت أن تُظهر صلابةً أمام أبيها فتلك فرصتها الوحيدة لإثبات موقفها وقوّتها وإرادتها في اختيار ما تراه مناسباً لنفسها حتى لا تضطرّ للخضوع أو ارتكاب فعلٍ أحمق! امتنعت عن البكاء وحدّقت في وجهه مباشرةً حين التفت إليها، ما الذي سيفعله الآن؟

رغب أن تتقبّل قدرَها بحدٍّ أدنى من الرضا دون أن يُكرِهها جهاراً فهو لا يريد أن يفقدها إلى الأبد، فما بقي لديه ما يعوضه عنها! أرادها أن توافق كرمى له، ألم يقبل إسماعيل نفسهُ حكم الله في حلم أبيه إبراهيم وسلّم رقبته طواعيةً له ـ افعل ما أُمرتَ به يا أبتِ ـ هل ستكون أكرم من نبيٍّ ابن نبيّ؟ أيقول لها أن تراعي شيبته ومكانته بين الناس والعشيرة ولا تعيبه في آخر عمره؟ لكنّه وفي حمّى غضبه التي لم تبترد صرخ في وجهها:

ـ ستتزوجينه رغماً عنك!

ـ ولكن يا أبي . . .

لم تكمل، فقد أتتها اللطمة فجأةً.

ـ اخرسي!

وخرست مستشعرةً طعم ملوحةٍ في فمها في الوقت الذي أفلت فيه إحدى عكّازيته وأمسك ناصية شعرها رامياً بثقله عليها فانحنت وهو يوالي الشدّ والدفع حتى ارتمت أرضاً فأكبّ فوقها رمى عكّازته الأخرى واستل

مسدساً ضخماً من وسطه ودفعه بين عينيها فأحسّت ببرودة الفوّهة وقد انغرست حلقةً من جليد تضغط باستمرارٍ حتى كادت تخترق جمجمتها. حدّقت في عينيه ولمحت جنون القتل:

ـ أبي!!

خرج صوته هادئاً أجشّ كأنّما يعلن وصيته عليها:

ـ في الغد، حالما تبدين أيّة معارضة لن تجدي بانتظارك سوى حفرةٍ في جبينك!

أعاد مسدّسه، لملم عكّازتيه وتحامل واقفاً طالباً الراحة بعدما أنهكه إنجاز مهمّته. بينما بقيت رباب مستلقيةً تحدّق في الفراغ ودقّات قلبها المتقافزة لا تزال تردّد دون صوت.. أمرك يا أبي.. أمرك يا أبي.

على خطوات أمّها المبتعدة تساءلت وهي لا تزال تدّعي نوماً مخادعاً، «لمَ أظلمها؟ ألم أكن خائفةً وصامتةً وخانعةً كليّةً منذ ساعاتٍ قلائل؟ أما خضعتُ ساعتها؟ لماذا ألومها الآن إذن؟ هل أسوّغ لنفسي أنّني خضعت لقهرٍ مباشر؟ ولكن ما الفرق بين الانقياد للقهر أو الانقياد تحت وطأة التهديد به؟

مضت أمّها وتناهت إلى مسامعها بقايا وقع خطواتها المتلاشية، لكنّها واصلت الاستلقاء وإغماض عينيها وقد ارتعشت لذكرى المسدّس الذي انغرس في جبهتها ولا زالت تحسّ برودته، تلمّست جبهتها وحكّتها. أدركت أنّ المسألة تتجاوز حتماً التهديد فهي تعرف أباها جيّداً وتعلم أن التهديد أصعب عليه من الفعل، لكنّه إكراماً لخاطرها ومراعاةً لتعلّقه بها

أطلق تهديده على أمل أن ترتدع وتصغي لنداء العقل وترضخ لمشيئة ناصيف. وعلى ذكر ناصيف انتفضت، هبّت واقفةً. غادرت الغرفة حافيةً وعادت حيث كانت منذ قليل. «ربّما قبلتُ إرضاءً لأبي، ليس في ذلك مشكلةٌ كبيرة. الانتقال من سطوة ناصيف لسطوة غانم لن يغيّر كثيراً في الوضع، لكنّ المشكلة تكمن في عدم قدرتي على احتمال إحساس ناصيف بأنّني خضعت له وأنّ حياتي رهن مشيئته يفعل بها ما يشاء وكيف يشاء!» لمحت أمّها تتّجه نحو الفرن. «ما الذي تبحث عنه هناك؟» أدهشها دورانها حوله وتمسّحها بجدرانه، «هل تحنّ لعبوديتها؟ و. . .» ابتلعت باقي الفكرة، «ألا أظلمها أكثر ممّا ينبغي، ما ذنبها هي؟ ومع ذلك لا مفرّ من السؤال، كيف يمكن للمرء أيّاً كان أن يستحيل عبداً لرغبات الآخرين ومتطلّباتهم؟ هل ذلك جزءٌ من مستلزمات الأمومة والوصول بفكرة الإيثار والتضحية حتّى نهايتها الحدّية القصوى؟» لم تعجبها الفكرة بل أحسّت وكأنّما تسوّغ لأمّها لتؤسّس ما تسوّغ به لنفسها. تراجعت للخلف لائذةً بجدار غرفتها كيلا تلحظها أمّها التي بدأت تعود أدراجها.

تقدّمت مجدداً نحو الحافّة التي تطلّ من علٍ على المصطبة محاولةً اختراق أوراق وأغصان العريشة لتحدّد موقعه وتتخيّل أيّة أحلامٍ تراوده.

«لقد تجاوز ابن الكلب كلّ حدوده، كأنّما يريد دفعي لقتلها. أيّة خلفةٍ تلك؟ هل تسأل الآن يا عبد الجبّار؟ أليس ناصيف صورةً عنك؟ ألا ترتجف سعادةً رغم مهانة عجزك وأنت ترى نفسك فيه، ولو أنّه يتمتع بدهاءٍ يفوقك؟ من يصدّق أنّ ذلك المهندس المرتدي بزّةً وربطة عنقٍ ليس سوى جبليٍّ حمل همجيّة البداوة في قعر روحه ومارسها بصلافةٍ لا حدّ لها، وأنّ ما تحضّر فيه لا يعدو ثوبه وأساليبه؟ اللعين، لقد ضبط أعصابه. ربّما لو كنتُ مكانه لجررتها من شعرها وذبحتها، ولو اضطرّني ذلك لدفع أبي وتعريض ظهري لنيران مسدّسه!» خاطب عبد الجبّار نفسه بعدما غادرت رباب المصطبة وقد أذهلها الرعب فدبّت تتلمّس طريقها.

«لِمَ عاملتُها بتلك الطريقة؟ الكلبة، هي الأخرى استذأبت، ولو طالت يدُها لحظتها وقبيل أن أتدخّل مسدساً لأردتْه قتيلاً. طالما تملك تلك الجرأة والقوّة، لمَ تخشى زواجها من غانم؟ هي تعلم أنّه يخشاها ولا يستبعِد أبداً أن تقتله إن حاول إذلالها أو إهانتها. آهٍ! لقد تجرأ الجميع عليّ بعدما حلّت اللعنة بساقيّ.»

ـ آمنة، اصنعي لي قهوةً، صرخ بأعلى صوته وقد تذكّرها.

«الوحيدة التي لم تشقّ عصا الطاعة. لم تكن هيّنةً أبداً ولم تستقرّ وتهدأ إلا بعدما أشبعتُ جسدها ضرباً لسنواتٍ طويلةٍ فاستسلمتْ؛ عضّتْ على

لسانها، ابتلعته واستحالت شبحاً حاضراً بأفعاله دون أن يُرى!» أخرج علبة تبغه وراح يلفّ لفافةً ثخينةً بلّ طرف ورقتها وقضم بعضه ثمّ تفله بعدما أحكم إغلاقها، أشعلها وراح ينفث دخانها بغيظٍ مكتوم. «لمَ لا يدعونني وشأني؟ ليتدبّروا أمورهم وليتركوني أتمتّع بدفء الشمس بعيداً عن نزاعاتهم وخصوماتهم.»

دخلت آمنة مطأطئةً تخطرُ دون صوت، وضعت القهوة بين يدي زوجها، صبّت فنجانه وقدّمته فأمرها بعينيه أن تضعه أمامه. استدارت لتغادر فصاح بها:

ـ انتظري.

التفتت ببطءٍ شديد. «أيّ مسخٍ صارته؟» تبسّم شامتاً واسترسل، «الفضل لجبروتك أيّها الشقيّ. لكن أينه الآن وقد استحلتَ إلى مسخٍ مماثل، كيف بقيتْ تخشاك رغم فقدانك سطوتك الحقيقيّة والفعليّة وصرت مهرّجاً صغيراً لا يهابك أحدٌ إلاّها؟»

ـ خاطبي ابنتك يا امرأة، خيرٌ لها أن تقبل دون اعتراض.

ـ أمرك يا ابن عمّي.

ردّت بصوتٍ خافت. ودّت لو تقول، «حرامٌ عليك يا عبد الجبّار، هي ابنتنا الوحيدة ولا يجوز رميها في وجر غانم، حاول أن ترضيه بأيّ شيء. غانم طمّاع، قليلٌ من المال، قطعة أرض، محلٌّ فارغ، أنا متأكّدةٌ أنّه سيقبل. لِمَ طمّعتَه بها وجعلتَه يرى نفسه نداً لك فلا يرضى سواها؟» لكنّها اختصرت ذلك كلّه بقولها:

ـ لن تعصي أوامرك.

رشف عبد الجبّار فنجانه وأطلق سحابةً كبيرةً من دخان لفافته داخلتها كلماتٌ بطيئةٌ غير مبالية:

ـ ستكسب عمرها إذن، امضي إليها، هيّا.

أراد أن يضيف، «عليها أن تعتذر لأخيها أيضاً». لكنّه أحسّ فداحة مطلبه وأدرك بثاقب بصره أنّ قبولها الزواج أهونُ عليها من تقديم فروض الطاعة لناصيف. أشار لامرأته أن تذهب وحمد الله أنّه لم يخلق رباب غلاماً. «إذن عليك السلام يا ناصيف، إما ستذلّ لها وهو ليس طبعك، أو أنّك كنت شممت رائحة عشبٍ تطاول فوق قبرك منذ زمن طويل، وهو المرجّح، فلن تكون السبّاق معها أبداً. «لفّ سيجارةً أخرى وصبّ لنفسه فنجاناً آخر. «ما الذي تفعله الآن؟ هل تبكي؟ لا، هي أصلب من أن تفعل. لو أنّها بكت أمامي لربّما أعتقتُها من أسرها الآتي. لا، لا يمكن لي ذلك أبداً، لا أريدها أن ترضخ، ستسقط من عيني ولن أراها بعد ذلك إلاّ كأمّها! هل سأقتلها إذن؟» سقط الفنجان في تلك اللحظة وهو يرى الدم يتفجّر من جبهتها المحروقة وهي تتطلّع إليه بعينين دهشتين تقولان: لا، لست أنتَ من يفعلها بي! يمكن لناصيفٍ أن يفعلها، أما أنت؟! «ولكنّني سأفعلها يا رباب، سأفعلها حتّى لو كنتِ أنت وريثةَ أبيك وليس ناصيفاً. سأفعلها وأنا أعلم أنّ قلبي سينفطر عليكِ، ولكنّي سأظلّ فخوراً بك.» ضحك عبد الجبّار بصوتٍ مرتفعٍ فتنبّه على قهقهة صوته الأجشّ. «فخورٌ بها! بماذا؟ بالرمّة التي ستصير إليها بعد يومين أو ثلاثة؟ بفقدانها إلى الأبد؟ افخر إذن بالفراغ وبذكرى باهتةٍ سرعان ما ستمضي!»

تقلّب الرجل في مجلسه وفكّر بطريقةٍ أخرى. «ألا تهرب؟» أعاده السؤال لسنواتٍ مضت، المغارة والثلج والحصار والعزلة...

ـ امضي يا ابنتي...

ـ لا يا أبي لنمُت معاً إن لم نستطع أن نحيا معاً .

أتت رجفة البرد والطوق الذي يضيق وساقاه اللتان فقد الإحساس بهما وأرعبه ذلٌّ قادمٌ فآثر الموت . «لِمَ لمْ تأتِ الطلقات في الصدر؟؟»

عاودته الرجفة وقد تداعى المشهد كاملاً . «لا ، فيها من الكبرياء ما يمنعها من الهروب!» أتعبه التفكير فأراح نفسه واستلقى . «لتفعل ما تشاء ، هي التي أرادت اختيار قدرها فلتتحمل مسؤولية ذلك».

جافاه النوم ، وقد أرّقه أنّه ما استطاع توقّع ردّ فعلها . أراد أن يقف ويتحرك قليلاً ، لكنّه لم يستطع . استعاد بخياله حركاته الكريهة وهو يستند رويداً رويداً على عكّازتيه ثم يهبّ هبّةً واحدةً يشعر خلالها أنّه سيتهاوى أو أنّ العكّازتين ستنقصفان تحت ثقله فيصاب بكسرٍ جديد . كم يدعو وضعه للاشمئزاز ، خاصةً حين يلمح آثار الشفقة أو الشماتة تطلّ من عينٍ ترقبه وهو يتحرك استعداداً للوقوف .

سنةٌ كاملةٌ في الفراش تحمّلت المسكينة آمنة فيها ما لا يطيقه إنسان ، بصبرٍ واستكانةٍ وحميّةٍ في خدمته ومواساته من غير انتظارٍ لردّ جميلٍ أو اعترافٍ بالفضل . «من أيّة طينةٍ جُبلت تلك المرأة؟ وأية قوةٍ تثور في داخلها في لحظاتٍ قليلةٍ إلا أنها حاسمة؟ ألم تقف بوجه ناصيفٍ بشراسةٍ استثنائيةٍ حين بادر للتعامل مع الأمور باعتبار أنّني مقضيٌّ عليّ لا محالة حتى كدت أرضخ له وأطلق يده في كلّ الأمور لولا وقفتها التي ذكّرتني أنّني ما زلت أحيا ، ما زلت عبد الجبّار رغم إصابته وارتمائه في فراشه؟!»

تململ مجدّداً ، أراد أن يناديها ويسألها لمَ لا تنتفض في وجهه مثلما كانت تفعل وتضع حدّاً لجوره عليها ، لكنّه تساءل ، «هل العطب فيّ أم فيها؟ هي تستطيع ولا شكّ أن تتمرّد وتعاملني حسبما أستحقّ دون زيادةٍ أو نقصان . هي مجنونةٌ يا عبد الجبّار أو أنّها خيرٌ منك ، إذ لا تريد لرجلها

الذي كان كبيراً دوماً أن يبدو صغيراً لأنّ الزمن جار عليه فأقعده! لتذهب إلى جهنّم، ليذهبوا جميعاً، عائلة المجانين تلك. أما فيهم عاقلٌ واحدٌ يحاول لجمَهم وإعادتهم إلى صوابهم؟»

سرّح بصرَه أمامه محاولاً اختراق الظلمة فاصطدمت عيناه بالبوّابة الحديديّة التي صنعت فجوةً في السور الحجريّ المحيط بالدار...

«آه، عادل، لو يأتي! ربّما هو العاقل الوحيد بيننا القادر على رأب صدوعنا وإيجاد حلولٍ للمشاكل التي تحيط بنا!» تنهّد وهو يستعيد صورة معلّم المدرسة القديم الذي يخرج من المدرسة وتلاميذه بصدّاراتهم الغبراء يحيطون به كأنّهم يكرهون مفارقته.

ـ إنّهم مثل نباتاتٍ بريّةٍ يا أبي، يريدون أن يكونوا معاً لكنّ كلاً منهم ينمو في اتّجاه، فإمّا ينأى به بعيداً عن الآخرين أو يدانيهم فيكاد يشتبك معهم أو يصطدم بهم. ما يحتاجونه فقط أن يتعلموا أنّ بمستطاعهم أن يعيشوا معاً دون صراعٍ وأن ينمو كلٌّ منهم برفقة الآخرين دون عداوةٍ أو اقتتال.

ـ دعكَ منهم يا بنيّ. هذه ليست شغلةً مناسبةً لك، لن تستطيع تغيير ما عجزت الحكومة وحتّى الطبيعة عن تغييره! رقعةٌ ضيّقةٌ من الأرض؛ وعورة الجبال وقد تداخلت مع نفوس الناس. لا تستطيع أن تفرض على بشرٍ، يرون أن لكلٍّ منهم سماءه الخاصّة وأرضه الخاصّة وأفقه الخاصّ، أن يصطلحوا ويتشاركوا في ذلك كلّه. الأقوى هو من سينتزع ذلك لنفسه وسيكون ذلك على حساب الأضعف دون شكّ. لا تتعِب نفسك وتبدّد جهدك بل فكّر بما يمكن أن يشبع أفواه أطفالك ولا يجعلك تتحسّر على بؤسهم!

والى النظر كمن ينتظر قدومه. «تعال الآن أيها المفكّر وحلّ مشكلة أختك! جِدْ حلاً لا يجعلني أخسرها أو أفقدها، حلاً يبقيها موجودةً ويحافظ على افتخاري بها، ولكن لا تطلب منّي أن أتراجع عن قولي. لا، لن تنفعني يا عادل. أعرفك جيّداً وأعرف أنّ دمك يخالف دمي. لم تكن كذلك، ففي طفولتك كنتَ الأحبّ والأقربَ إليّ لأنّك كنت الأشرس والأشقى بين إخوتك. كم مرةٍ أتاني آباء أترابك يشتكونك لأنك لا تكتفي بالضرب، فذلك أمرٌ لا يتحدث عنه ولا يأبه أحدٌ به ـ أبا ناصيف، عادل شقّ جبهة ابني، أبا ناصيف، عادل كسر ساق ابني ـ هل كنتَ جزّاراً يحبّ رائحة الدم؟ وفي سريرتي كنتُ أمتلئ غبطةً وتيهاً، سيهابك الكبار قبل الصغار يا عادل يا ابن أبيك. أمامهم كنتُ أطيّب خواطرهم بشتمك وضربك وتهديدك، لكن حالما يرحلون كنت أصفعك صفعةً قويّة، ربما عبّرتْ عن إعجابي بك، إيّاك أن تأتيني شاكياً أو ساكتاً عن ضيمٍ يصيبك! كيف تحوّلتَ إذن، كيف؟ هل غسلَت الكتب التي كنت تقرضها مثل فئران المخازن دمَك فحرّرته منّي مثلما أصابت عينيك بقصر النظر فواريتهما خلف نظّارةٍ سميكةٍ تضاعِف حجمهما؟ ما الذي ستقوله الآن؟ ستتحدّث دقائق طويلةً، تُدخلني من موضعٍ وتخرجني من آخر دون أن أفقه شيئاً، تحكي طويلاً ثمّ تستنتج أنّ علينا أن نتركها تختار كيلا تلومنا في المستقبل. ماذا يفيدني ذلك، وكيف يحلّ مشكلتي؟ لكنّهم يحبّونه يا عبد الجبّار ويحترمونه رغم رقّة حاشيته ويستشيرونه في صغائر أمورهم وكبائرها ولو أنّهم لا يعملون بنصحه في أغلب الأحوال. فكيف تعامله أنت على هذا النحو وتعتبره نكرةً حتى تكاد تتبرأ منه وتسأل آمنة مستغفراً: ابن من هذا؟!»

غيّر وضعية اتكائه مستشعراً مرارةً في فيه، لفّ سيجارةً أخرى وأشعلها، ودّلو تأتي آمنة وتنسى رعبها منه للحظاتٍ وتخبره بما عليه أن

يفعل . لكنّه نفض رأسه وقد التقت عيناه عبر أغصان العريشة وأوراقها بالكتل الطينيّة الغامقة التي تشكّل زرائب الماشية ، تخيّلها منحنيةً بينها وقد نبت صوفٌ أبيض على جسمها ، تتدافع وهي تهزّ عجيزتها وقد صارت إليةً ضخمةً لتحشر نفسها بينها خشية عين جزّارٍ قد تسرّ لسمنتها فتختارها للذبح . تبسّم ، «هي لا تفقه أكثر من الخراف . من إذن؟ نوّاف؟» التفت لا إرادياً نحو حظيرة الأبقار ، «هل سيخبرني نوّاف كيف أحلّ مشكلة رباب؟» تراءى له الثور الأسود الكبير الذي يتحاشاه الجميع ، خاصّةً في مواسم السفاد . «من أين أتتني هذه البليّة أيضاً؟ لعنة الله عليكِ يا آمنة وعلى نسلكِ الملعون ، جسم ثورٍ وعقلٌ من صخر ، قُلْ له ناطح حائطاً فيفعل وقُلْ له احلب تيساً فيبادر للبحث عن ضروعه!!

ـ ماذا نفعل يا نوّاف يا ولدي؟

ـ لمَ تتعب نفسك يا أبا ناصيف؟ دعها تقلْ أمامه لا ، سأذبحها تحت قدميك ، انسها يا أبي ، لن تكون إلا راضياً!

ـ أيّها الثور أقول لك لا أريد أن أفقدها فتقول أذبحها؟ وهل أنا عاجزٌ عن ذبحها أيّها الحمار؟ امضِ إلى ناصيفٍ وتعلّق بأردانه ، لن يجد لنفسه مطيّةً خيراً منك . والله لو أمرك بذبح أبيك لذبحتني دون تردّد!

احصد يا عبد الجبّار زرعك . . فقد أتت مواسم الحصاد!!!»

حمحمت المهرة بنزَق ، فارتعش قلبه . «ما الذي أفزعها وسط الليل؟» تحامل على نفسه ململماً حطامه وساق نفسَه على عكّازتيه إليها . . . «ما بالها ، باقي السلالة التي استمرّت دهراً وهي تعاند الأسر والفناء؟!» دفع الباب بعكّازته فانفتح على مهلٍ وهو يصرّ صريراً مكتوماً ، لم يتبيّن موقعها فأضاء المصباح الذي نشر نوره البرتقاليّ الباهت ، اشرأبّت إليه بنظرةٍ مستطلعةٍ ، «ألن يعفّ عنها ، ألم يفهم بعدُ أنّها لن تسمح لأحدٍ أن يقربها

إلا رباب؟» اقترب منها فاستدارت حانيةً رقبتها وقد توتّرت عضلات جسدها البهيميّ وراحت تدقّ الأرض بحافرها حذراً. «لا تفزعي، جئت لأطمئنّ وحسب، لا تخشيْ» توقّف وقد كشّرت كأنّها ستقمص. «اهدئي، ما بالك أيّتها الشيطانة الشريرة؟ انتظري وسترين كيف ستُسلِسين قيادك بعد حين، لن تكوني أعند من صاحبتك، غداً ترينها كيف تدخل زمن صمتها صاغرةً.» ضاق بالحرّ والرطوبة التي زادها تعرّق المهرة المستوحشة في وحدتها، نظر فوجد مزودها مليئاً بالشعير وجرنها مليئاً بالماء... «ما الذي أخافك إذن وأيّة وساوس انتابتك؟ هل تتعاطفين معها؟ ادعي إذن أن تريها غداً حيّةً، أو استعدي للّحاق بها قريباً!!!» أغلق باب الإسطبل الذي مضى زمان خيوله مثلما مضت إلى غير رجعةٍ. ربّما!

لفتّه السكينة وأحسّ الحرّ الشديد. «أما من نسمة هواءٍ ترطّب الجوّ أو تحرّك الهواء الجافّ الساكن؟» عاود تعثّره نحو البوابة متخطّياً الفرن وبئر الماء القديمة، تأكّد من إحكام رتاجها. «ممّ تخشى ومن الذي تخشاه؟ هل تتحسّب لهروبها؟» خطرت الفكرة بسرعةٍ فتشبّث بها مثلما فعلت عيناه بالقفل. «هل تريد تسهيل هروبها أم منعه؟» راح السؤال يدفعه من أمامٍ فحاول أن يتراجع لئلاّ يتهاوى فلم يستطع... وأقفل راجعاً. «لو لم تكن أنثى! أتقول ذلك الآن وقد حلمتَ بها ليل نهارٍ حتى أتتك، دون أن تخبر أحداً أو يعرف أحدٌ أنّك عددت نجوم الليل بانتظار وصولها وترقّب هطولها؟!» تطلّع نحو نافذتها قسراً فأبصر نور شبّاكها، «لا تزال مستيقظةً! لعنة الله عليك يا ناصيف، لو اعترضتَ قليلاً على رأيي لتخلّصنا إذن من هذه الورطة منذ زمن. كيف تعترض وقد وجدتَها قرباناً تفتدي ذنوبك به فتمسّكتَ بالفكرة بأظافرك وأسنانك كأنما أنقذك أبوك وخلّصك بنفس الوقت من أعبائها وثقل احتمالها؟ لو أنّي تركتك تبحث

عن حلٍّ لمعضلتك لما مرّ بخاطرك ولما كان لغانم أن يراه أو يحلم به، ولكنتُ الآن أنعم بنومي خاليَ البال وأنت وحدك من يتقلّب على جمرك بحثاً عن حلّك، بدل أن أجنّ وأنا أبحث عن طريقةٍ أتراجع بها دون أن أسفح ماء وجهي». حينها كان التعب قد ألقاه أرضاً بعدما تجرجر حتى وصل مصطبته، انتزع حذاءه ورمى عكّازتيه بمرارةٍ وسخط.

حالما استلقى على جانبه وخزه مسدّسه المدسوس بعنايةٍ تحت زناره المقصّب الملتفّ على بطنه واصلاً سرواله الأسود الفضفاض بقميصه المخطّط بالأبيض والأسود تحت الصدارة السوداء عديمة الأكمام، انتزعه ورماه قربه دون عنايةٍ، أغمض عينيه، أحسّ بوقع خطواتٍ يقترب منه.. من القادم؟ لم يكلّف نفسه عناء فتح جفنيه فقد أحسّ أنّه يقارب حلماً أراد أن يغيب فيه كيلا يتذكّر أو... أحسّ أنّ الضوء يغيب وأنّ العتمة تتكاثف وراء جفنيه المسبلين، لم يبالِ، ولم يتذكّر إن ابتعدت تلك الخطوات أم أنّ صاحبها ظلّ واقفاً فوقه يرقبه باهتمام.

كان يسير بصعوبةٍ شديدة، ففي كلّ خطوةٍ كان ينتزع قدميه انتزاعاً من الثلج الهشّ الذي تصلّب بما يكفي للخطو فوقه كأيّة تربةٍ صلبة. ضاعت ملامح السماء وتضاريس الأرض، عمّ الثلجُ المرتفعاتِ والهضابَ والوديان وتلفّع بغلالةٍ كثيفةٍ من ضبابٍ أبيض يمنع الرؤية ويصل الأرض برماد السماء المنخفض. ورغم الريح التي تهبّ شماليّةً فتزعزع مواقع الغيم والضباب وتزيد في برودة الأجواء أحس أنّه يتصبب عرقاً لا يبترد بل يسيل، كما لو أنّه يسير في أحرّ أيّام الصيف. اتّجه نحو جدارٍ ناهضٍ عمودياً بدت صخورهُ التي لم يغطّها الثلج بطبقةٍ كثيفةٍ كأنّها بثورٌ لم تُشفَ بعد. ضيّق عينيه وهو يبحث عن طريدةٍ تقيم أوده دون أن يتوقف. على حين غرّةٍ أزّت وراءه مجموعة صلياتٍ صفرتْ إحداها قربَه وهي تنثر

الثلج إلى ميمنته، لم يلتفت للخلف، زاد من سرعته وقد انحنى كأنّما أراد أن يتلوّى فوق الثلج بينما أصواتٌ متباعدةٌ تصرخ به أن قفْ لا تتحرك!! لم يأبه بكلّ ذلك، «فقط لو أصل الجدار وأحمي ظهري فأنجو!» تابع سيره الشاقّ وقد أحسّ أنّ الأصوات تزداد اقتراباً والطلقات تتدانى. . . استدار ورشق رشقةً طويلةً رسمت قوساً واسعةً غطّت مواقع الإطلاق فسكتت قليلاً مثلما هدأ اللغط. «يحسبونني غير مسلّح. الأنذال!» برق في رأسه السؤال دون غيمٍ ودون رعد، راح يرسل شراراته المعدنيّة فتحترق وتخبو على سطح عينيه، «من الذي أبلغ عنّي؟» تابع اندفاعه البطيء وهو ينقب الأرض بعينيه بحثاً عن أفعى سوداء متطاولةٍ ليدوسها بقدميه ويمحقها محقاً. وفي المسافة المتبقّية أدرك أنهم تكاثروا خلفه، «أسرعْ قليلاً، ستصمد مهما بلغ عددهم حالما تصل. لكن من أين نبت أولئك الأبالسة؟ هل أكون قد اقتربت كثيراً من الطريق العامّ دون أن أدري؟ أيمكن أن يكون هذا البياض المنتشر قد أضلّني وتركني دون اتجاه؟» واصل زحفه وقد ازداد الإطلاق مجدّداً دون أن يرافقه صراخ المطارِدين. راحت بضع رصاصاتٍ تصفر فوق رأسه وتسقط في الثلج أمامه. . تبسّم، «يريدون فريستهم حيّةً، ليحتملوا إذن إن استطاعوا!» وصل أخيراً سفح المرتفع الشاهق واكتشف وهو يستدير أنّه محصورٌ بين صخرتين على جانبيه والجدار خلفه، صرّ على أسنانه وقد سبح في عرقه دون أن يحسّ الصقيع الذي يلفّه. «تقدّموا الآن يا أولاد الزنا!» انبطح مزيحاً ثقله للخلف فأطلّ على القادمين. انتزع رمّانتين من حزامه ووضعهما أمامه مع مخازن طلقاته، تنفّس بعمقٍ واسترخى وهو يتشبّث ببندقيّته المتكئة على كتفه ويسدّد نحو أهدافٍ ينتظر اقترابها كيما تكون إصابته محقّقة. كانت الأهداف تتجمّع أمامه وعلى مجنبتيه لطخاً سوداء وبنيّةً تقترب رويداً رويداً بهدوءٍ وثبات. «يريدون محاصرتي، يحسبون أنّني سأستسلم!» راح يترقّب متوفّزاً وعيناه تجوسان المدى القوسيّ

المحيط به . . . أحسّ جفافاً في حلقه فملأ قبضته ثلجاً وحشا به فمه وما إن أحسّ لسع برودته وذوبه البطيء حتى تزلزلت الأرض وتصدّع الهواء وقد فُتحت عليه جبهاتٌ ثلاثٌ أثارت الثلجَ عاصفةً أمام عينيه فتصاعد كأنّما يحنّ لسمائه الأولى ويتقصّد أن يمنع الرؤية عنه متضافراً مع الضباب وبخار زفيره . باندفاعةٍ غريزيّةٍ راح يطلق دون تسديدٍ على هدفٍ معيّن ، أراد أن يخبر أنّه موجودٌ وحسب وأنّهم لم يرعبوه . خيّم الصمت وأحسّهم يتقدّمون ، ومرّةً أخرى لعلع الرصاص فعاود الإطلاق . بدّل مخزنه ورمى . . . رمى دون توقّفٍ ومن غير أن يسمع أحسّ الأرض ترتجّ تحته وقد أحكم التصاقَه بها وكاد يغيب في الثلج . ضغط أكثر ، «هنا قبري ! » وتخيّل الوحوش تنهش جثّته وشمس الربيع تسطع على هيكله العظميّ . رآها تتقدّم . . . قطيع ذئابٍ هاجم مجابهةً ، تعوي عواءً متواصلاً تريد إرهابه أكثر من افتراسه . لمح عيونها المحمرّة مصابيحَ تتوهّج بالدم الذي سيُسفك بعد حينٍ ، وأنيابُها العاجيّة الحادّة يسيل حولها لعابٌ كثيفٌ يقطرُ من أشداقها . على ميمنتها تقدّمت عائلةٌ من الضباع ببطءٍ وإصرارٍ وقد أحنى الأبوان رقبتيهما وزحفا كصنمين يهمهمان من غير أن ينظرا أمامهما بينما راحت جراؤهما تتواثب حولهما كأنّما تحتمي بهما خلال التقدم . على الميسرة راحت صفوفٌ غير متناهيةٍ من الخنازير البرّيّة تنخرُ وهي تشمّ الأرض بين قوائمها وقد التحمت فبدت جسداً واحداً بعشرات الرؤوس والأذناب الدوديّة الملتفّة وفي الفراغات المتبقّية بين المحاور المهاجمة أخذت زرافاتٌ من الأرانب والغزلان والماعز الجبلي تعدو دون هدف . . . عاود فتح نيرانه مستبدلاً مخزناً بمخزن . «لمَ لا تتلهّى تلك الوحوش الغبيّة بفرائسها وتعترضها بدل التقدّم نحوي؟ » تساءل وقد أخذت الأشباح تتقدّم وتتقدّم خلال عينيه المحتقنتين وقد أرعدت السماء واهتزّت الأرض وانتثرت الشهب والبروق بينهما . كان يصرُّ على أسنانه فكادت تنسحق ، «لن تجدوا سوى جثة ! » بدأ الخوف يدب دويدةً صغيرةً

في قلبه المهتاج والخافق، ومن أجل أن يسحقها قبل أن تتوالد وتتناسل أمسك القنبلة الأولى، رفع جذعه، انتزع حلقة أمانها ولوّح بها قبل أن يرميها بعيداً صوب الذئاب. أعمته الجلبة وأصمّته لثوانٍ خالها دهراً فابتسم لأنّ الجحفل الأول أوقف تقدّمه. ثنّى بها الثانية على صفوف الخنازير فتوقفت هي الأخرى وصوّب نحو الضباع التي اقتربت بشكلٍ خطيرٍ فراحت الطلقات ترتدّ على وبرها الكثيف وهي تصفر كأنما ترتدّ على صخرٍ أو فولاذٍ مسقيّ، إلا أنها ابتعدت. وفي برهة الاستراحة والصمت قبيل هجومٍ جديدٍ ملأ الفضاء حداءٌ غامضٌ داخلَه نواحُ امرأةٍ أدمى فؤاده. . . وفي التياعه دخل الهجوم مرحلته الأخيرة وأطبق عليه. استسلمْ. . . استسلمْ. . . استسلمْ! أطلقَ من جديدٍ لكنّ بندقيّته خانته وذخيرته نفذت، استلّ مسدّسه وأطلق، واحد. . . اثنان. . . ثلاثة. . . أربعة. . . تنبّه أنّه سيغدو أعزل بعد ثوانٍ فجأر، أيّها الموت أقدمِ! هبّ واندفع للأمام وهو يصرخ بصوتٍ راعد، أطلقوا نحوي أيها الجبناء. . . اقتلوني! لكنّ حصار الطلقات تنقّل معه خطوةً خطوة حتى آخر رصاصة. رماهم به ووقف لاهثاً منتظراً يكاد دمعه يطفر من عينيه وهو يرى ذلّه القادم!

احتلّت الصمتَ القبريّ المخيّم قهقهاتٌ ملتاثة ـ وقعتَ أخيراً. . . وقعت. ودون أن يبصر أطبقتْ على معصميه جامعةٌ حديدية وغطّت عينيه عصبةٌ حرمته ضوءَ النهار. . . جرجروه من مكانٍ لآخر دون أن يعرف وجهتهم، غابت الدنيا وطفا وجعه بقعةَ زيتٍ فوق ماء روحه، «فقدتُ فرصتي، كان الموت نجاتي فأدار لي ظهره!» دفعوه وقد ضغطوا على رأسه ليحني جذعه. «أين أدخلوني؟» أحسّ بغريزته انغلاق المكان واستشعر دفئاً لمس دخانُ ناره تجاويفَ أنفه. كأنّما المكان مألوف! انتُزعت العصبة عن عينيه ففتح جفنيه آليّاً واكتشف كهفه! أتت الطعنة

مباغتةً اخترقت القلب فانتفض، «رباب؟!» تطلّع حواليه فشاهدها في زاوية الكهف خلف موقدٍ لم تخبُ نيرانُ حطبه المتّقد، تقف بإباءٍ وترنو إليه بثقةٍ لتبثّه اطمئناناً غادره، لمح معصميها المقيّدين وثوبها الممزّق والدماء التي جفّت على صفحة وجهها وتحت شفتيها وعينها المتورّمة الزرقاء! «لقد قاومتْهم ببسالةٍ ومازالوا يخشونها!»

ـ ما ذنبها أيها الكلاب؟ فكّوها وأطلِقوا سراحها، أنا ضالّتكم وقد أمسكتم بي!

قهقه صوتٌ مجلجل:

ـ سنرى ذلك بعد قليل.

لم يدرِ قصدهم. سألوه كثيراً عمّا يجهله، ورغم ما ساموه من عذابٍ فقد اعتصم بالصمت والتجأ إليه، لم يطلِق صرخةً واحدةً رغم أنّهم حطّموه. لكنّ القهقهة لم تتوقّف ومن خلال غشاوة عينيه الداميتين لمحهم يجرّون رباب إلى منتصف الكهف، رموها أرضاً واستعدّوا لافتراعها!

ـ ألن تتحدث؟

جأر وعوى وهو يتلوّى على الأرض دون أن يستطيع حراكاً بعد أن ثبّتته أقدامهم الضاغطة على كلّ أعضائه. وفي استحالته البهيميّة ظهر ناصيف، تقدّم منه، أبعدهم ثمّ فكّ وثاقه، أسنده وسار به. التفّوا حولها وملأت الكهف ضحكاتٌ قرديّةٌ صاخبة... وبينما كان ناصيف يُخرجه من فوهة الكهف ثقبت أذنيه صرختها، لا تتركني يا أبي!

ومن مكمنها أصغت رباب لغمغمات أبيها التي علت وأضحت أنيناً متلجلجاً وجمجمةً تحتبس صرخاتٍ ستنطلق بين لحظةٍ وأخرى. «أيّة

رؤىً وأيّة كوابيس تنتابه؟» غشيتها موجة تعاطفٍ قديمٍ واشج بينهما كأنّما يختزل نواقصهما. أحسّت تقلّصاً في عضلات فخذيها وساقيها كأنّما يحفزّها للانطلاق نحوه، إيقاظه والحنوّ عليه وإبعاده عن كوابيسه المروّعة «لا عليك يا أبي، ليست سوى أحلام. استيقظ وسيكون كلُّ شيءٍ على ما يرام!» لكنّ شيئاً أمسك معصميها وسمّر قدميها فوق الأرض كأنّ كتلة إسمنتٍ تصلّبت فوق كلّ قدمٍ تيقّنت أن لا فكاك لها منها. «هل انقطع ما اتّصل بيننا منذ زمنٍ طويلٍ دون تعيينٍ ومن غير تسمية؟» تساءلت وهي تحاول أن تتملّص من الفخّ الذي أطبق عليها.

كأنّما استصرخها وما استطاعت لنجدته سبيلاً!! وفي لحظة جزعها وتمزّقها رأت طيوراً سوداء تنقر عينيها وهي ترفرف بجنونٍ أمام وجهها تحاول أن تتراجع برأسها فتصطدم بجدارٍ صلب، تحرّك يديها فتقبض على رسغيها مخالب حادةٌ تنغرز حتى تلتحم بعظمها الأبيض المنكشط اللحم. لم تطاوعها نفسها على الاستسلام وتقديم عينيها لقمةً سائغةً للمناقير المهاجمة فراحت تحرّك رأسها بعنفٍ يمنةً ويسرة للأعلى والأسفل بخبلٍ لتراوغ انقضاض المناقير دون جدوى. زافت الطيور فجأةً وأرخت أجنحتها على أمواج الليل وتلاشت مناقيرها كعيدان ثقابٍ احترقت وما لبثت أن تداخلت مع لون العتمة. بقي اصطفاق الأجنحة لهاثاً يتجاوب مع شهيقها وزفيرها المضطربيْن من غير أن يبخر العرق الذي انثال على جلدها وألصق لشدة نضحه ثوبها ببدنها. وجدت وقد تحررت يداها أنّها تحتاج لما تسندهما عليه أو ما تتكئ بمرفقيها عليه، لكنّها وقد افتقدت ذلك كلَّه أمام هوّة الفراغ المفتوحة أمامها وناءت ركبتاها بحملهما تداعت لتقتعد الأرض. بدل ذلك وجدت نفسها جاثيةً على ركبتيها، «لمن أؤدّي صلاتي، ولم؟» تطلّعت للقمّة التي تعرّقت نجومها فبهت تلألؤها وعبثاً حاولت إمساك نجمٍ لامع، أعملت ذهنها

وتنبّهت أنّها تولي وجهَها الجنوب. «أيّة صدفة؟» استسخفت ما دار بخلدها، لا زال الوقت مبكّراً على الصلاة على روحها التي سترِد جحيم الأرض اختياراً قبل أن تحملها المشيئة إلى جنّةٍ منشودةٍ أو نارٍ متجنَّبَة!

التفتت يساراً وحاولت أن تخترق الأفق المبهم وتستشفّ ما يدلهمّ في معارجه. تساءلت إن كانت تستعجل فجرَها أم تستبطئه. حارت حينما تذكّرت وقد غاب عن ذهنها أنّه يربط بخيطٍ واهٍ لا يُرى موتها أو حياتها! تراءى لها الصراط المستقيم مرهفَاً كحدّ سيف، تسير وهي تحاول الحفاظ على توازنها حتى تصل المنطقة الحسّاسة والحرجة فتتجاذبها آثامها وصالح أعمالها، ودون رغبةٍ أو إرادةٍ ستجذبها إحدى الهوّتين من غير أن تعلم أيّهما الجنّة وأيّهما النار. تستظهر على مهلٍ أنّ الجنّة يُفترض أن تكون إلى يمينها فتحاول أن تلقي بثقلها نحو ما تخاله يمينَها وتكتشف فجأةً أنّها ما عادت تميّز بين يمينها ويسارها، فتهوي حيث دُفعت وتسأل، أين؟ فلا تجد الجواب ولا تجد المستقر!

وخلاصاً من تهويماتها اليائسة أعادت لذهنها فكرة أنّ مشكلتها لا تتعلق حصراً بغانم وزواجها المفترض به. «لقد شُغِل الجميع بتلك المسألة منذ أسبوعين وبقيتُ أجدها غير ذات بالٍ وليست لها أيّة أهميةٍ حتى لحظة انغراس المسدّس في جبيني فأدركتُ جدّية المسألة ولو أنها بقيت غير أساسيةٍ بالنسبة لي. ربّما كانت جزءاً من مشكلتي أو جملة مشاكلي الحقيقيّة المتعلّقة بارتباطاتي بالآخرين وتقاطع تلك الارتباطات الذي يعيّن اتجاهات أقدار أصحابها ومسوّغات وجودهم!!!» لكنّها لم تستطع أن تتابع فقد بقيت عيناها متطلّعتين للأسفل، «هل ارتاحَ من عذاباته وتوقفت كوابيسه المفزعة؟»

وفي عزلتها وانفصالها اللحظيّ عن كونٍ أوجدتْها فيه صدفةٌ حمقاء وتركتها لتجد لنفسها موقعاً أو لتصير عتبةً لأقدامٍ غريبةٍ تخطو فوقها. لم تستطع أن تفهم كيف لم يتداعَ ارتباطها العاطفيّ به رغم إنذاره بأنه سيوردها حتفها ما لم تمتثل لأمره، وكيف لم تستطع تلبية ندائه فتوقظه من حلمه وتعيد له الأمان! ثمّة ما تصدّع وإن فشلتْ في تسميته أو تعيينه أو وصفه. فللمرّة الأولى في حياتها أحسّت أنّهما شيئان مختلفان، كائنان منفصلان، رغم تأكيده المستمرّ ـ خاصةً بحضور الآخرين ـ على انفصالهما؛ أبٌ وابنته بالمقاييس والأبعاد المتعارف عليها وحسب. لكنّهما معاً، أو حين يكونان منفردين، يغرقهما شعورٌ يؤكّد على توحّدهما كأنّهما روحٌ واحدةٌ اقتسمت جسدين. متى ظهر ذلك ومتى أحسته؟ ما كان مهمّاً، وحتى لو كان كذلك فهي لا تستطيع تحديده، لأنّه استحال بعضاً من معارف الحياة وبدهيّاتها بالنسبة لها! وكانت ترسّخه وتزيد في وضوحه قسوة ناصيف وإصراره على معاملتها بدونيّةٍ يراها ملتصقةً بها التصاق اللون بالعين!

«لمَ أتركه الآن وحيداً إذن وأفرح قلب ناصيف بأنّه استطاع خلعنا وفصلنا؟ كم ستكون شماتته بشعة، سيضحك ملء فيه وهو يقول، لا يحقّ إلا الحقّ، هيا يا امرأة اتركينا والتحقي بدار زوجك. لكنّي لن أدعكَ تفرح بذلك يا ناصيف سأنزل إليه رغم كلّ شيءٍ وأخبره أنّنا سنبقى معاً مهما حدث ولن أسمح لشيءٍ أن يدفع كلاًّ منّا في مدارٍ خاصٍّ ومختلف.»

لحظتها أحسّت أنّها استعادت سيطرتها على أطرافها، نهضت من جثوتها واستقامت، فكّت أغلالها، حطّمت كتل الإسمنت واستدارت يقودها حنينٌ مبهمٌ إليه!

خفّت متلمّسةً الدرب، يقودها الدم ووجعٌ لا يريد أن يتفكّك بل يستحيل عناصر مجهولةً غريبةً تتبدّد وتبدّد ما لا يتبدّد! وفي نزولها كانت

لا تطأ الأرض ولا تُعمل فكرها في وجهتها. جذبها هاجسٌ غامضٌ فاتّبعته دون إرادةٍ ودون احتراس، لكنّها وهي توشك على مغادرة الساحة الداخلية بعدما تجاوزت غرفة أمّها وقاربت المصطبة، قطعت الدربَ عليها حمحمةٌ واقتحم فضاءها المعزول حنين نداءٍ قديم فاستدارت بكلّيتها نحوه وقد ارتعشت فراح ثوبها الملتصق بعرقها يتفكّك ثنيةً ثنيةً وطيّةً طيّة.

استفاقت من غيبوبتها على توتّر عضلاتها وامتلاء أوعيتها وتوثّب أعصابها. امتصّها جرْسٌ أثيريٌّ فحملها على مويجاته وركضت على حبل إيقاع نبضها دون أن تحيد. حالما فتحت الباب الخشبي لفحتها أنفاسٌ انتظرتها وهمهمةٌ فضحت شوقاً مستعِراً، رفعت الرأس وقد عانقت الجيد المنحنيّ وأسندته على كتفها وهي تغلق الباب بقدمها. ضغطت العنق بساعديها واختلط عرقُها بالعرق النافذ إلى رئتيها فخدّرها. . . أيّها الحزن صِرْ غيمةً وأمطِر، اغسل القلبَ من أشجانه وامسح على الروح كيلا تتفتّت وتذوب!

ضمّتها وراحت تمسّد ظهرها ونحرها. «سامحيني يا هبوب، لم أغفِل عنك ولم أهملك، لكنّهم شغلوني عن حالي وصِرتُ الهواءَ الذي يستنشقونه وسرعان ما يطلقونه. لم أنسك يا صديقتي، صدّقيني. من لي غيرك الآن وقد تنكّر لي الجميع؟ حتى عادل الذي يغضب لغضبتي، سرعان ما يمتصّها ويمتصّني فأطيع أكثر! ليس له ولا يملك أن يجابههم جميعاً ويقف ضدّهم، وإن فعل، فإنما يقول كلمته ويمضي ولا يتمترس معي حيث يجب أن أصمد وأقاوم، دريئةً خلْبيّة، يؤازرني مواسياً كأنما يقول، احتملي وتجلّدي. لكنّه شوكك فانتزعيه بيديك أو اتركيه يمارس لذّته الساديّة على خلايا روحك. أنت حالةٌ خاصةٌ يا رباب، جزءٌ من كلٍّ كبيرٍ مهملٍ ومهمّش، لست منفردةً في آلامك وأوجاع قهرك ولست

وحيدة، ليس لي أن أتفرّغ لحلّ مشكلتك مهملاً مجموعة الأجزاء والحالات، اندمجي فيها وتماهي بها وانتظري خلاصك ضمن خلاصها أو اسعي إليه أو تمردي على طريقتك الخاصّة دون أن تسأليني كيف فلا أملك نصحاً ولا مشورةً لك! لو اتفقنا على الرواية، لاختلفنا على التجسيد!

استكانت المهرة وراحت تصغي وهي تستشعر حيرة صاحبتها وتودّ قول ما يبدّد حيرتها أو ما يواسيها. راحت تهزّ رأسها على مهلٍ كأنّما تتابعها وقد تراخت منقلّةً ثقلها وأثقال رباب التي مسّتها من قائمةٍ لأخرى تكاد تتداعى جزعاً وعجزاً. «من بقي لي غيرك؟ آه راوية! أين أنت الآن؟ وحسان، لمَ تخلّى عني، لا خبر ولا حسّ ولا صدى؟! ووسيم! الغائب الذي يهرب من عيني مختبئاً خلف رمشيه!!!»

راحت ترتجف وقد أحسّت عزلتها وملأتها الوحشة كأنما الكون أسبل جفنيه عليها فانكفأت على نفسها لا يصلها به إلا وجيب المهرة التي استكانت وارتاحت لضمّة ساعديها فخرجت من ظلماتها نحو الآفاق التي حُرمت منها والأودية الخضراء التي كانت سرّها الأبدي!

«وحيدتان أنا وأنت يا هبوب! أنت اجتُثثتِ من صخرةٍ وانتهى فيك وعندك نسلٌ مجنونٌ عقّله اللجمُ والسرجُ والزرب واستبدال الأعشاب البرية والأمواه الجارية وملح الصخور بالتبن والشعير والماء الراكد المجلوب إليه في أسره، لا تحتاج سعياً لبحث عنه واكتشاف لذّ مفجأة وجوده بعد عناءٍ شديد! وأنا التي ورثتُ جنونك وقاومتُ بشراسةٍ محاولات إخضاعي أُهيّأ الآن لعقلي في الآن الذي استعدتِ أنتِ فيه شراسة أجدادك ونفورهم! هل ترين كيف وحّدنا ما يكاد يفرّقنا؟ هل تقولين لي ماذا أفعل؟ ما بقي هنالك من يصغي إليّ أو أصغي إليه! أعرف

جوابك، فحالما أفتح الباب لك وأترك جلدك عارياً ستشتمّين كفّي وتودعني عيناك. . . وتسابقين الريح!»

كأنّ المهرة أحسّت بوعد ليلٍ مفتوحٍ على السهوب فهمهمت واستعادت توتّرها وتلاحقت أنفاسها من جديدٍ تريد أن تملأ رئتيها بهواءٍ طازجٍ استعداداً لوثبتها الأخيرة!

«لا عليكِ يا توأمتي، ستذكرينني دوماً، وأنا واثقةٌ أنّك لن تذلّي ركابك لأحدٍ بعدي. ربما أجد في ذلك بعض العزاء، فأنا لا أستطيع مثلك هروباً حال يتاح، فوراء كل بابٍ ثمّة حواجز ووراء كلّ حاجزٍ ثمّة قيد! وحتّى لو استطعتُ تخطّيها كلَّها واحتملتُ راضيةً حياة التشرّد وعودة البهيميّة فلن أستطيع فراراً من ذاتي ومواجهة الإقرار بهزيمةٍ تهرّبتُ من ساح معركتها!!» عاودت التربيت على رأسها ومداعبة عرفها وقد تخللت شعرَه أصابعُها، «اهدئي يا هبوب اهدئي، سيكون لك يومك فانتظري!»

أجفلت وهي تتساءل، «ما الذي أفعله هنا؟ أما كان عليّ أن أكون قربه لإبعاد فزع كوابيسه عن روحه المهزومة؟ ويلي! أصررتُ أتهرّب منه لأُبعِد مرآه عن جبهتي التي مسّها جليد غضبه؟ هل نجحتَ يا ناصيف في تأليبه عليّ واصطدتني بطُعم حنقي عليه؟ لا، لم تنجح في ذلك، فما يجمعنا لا يمكن أن يذروه عصفٌ طارئٌ ولا يذيبه هطلٌ عرضيّ! أنا أتهرّب لأنّني لا أريد أن يرى في حنوّي عليه إشفاقاً يرفضه ويكره من يحيطه به أو يشيعه في نظرةٍ مختلَسةٍ أو زلّة لسانٍ مقتضَبة، أو يرى فيه ممالأةً له أو استعطافاً لابساً لبوس المراءاة وهما أبعد ما يكونان عنّي. لكنّي رغم ذلك أتركه، وحيداً مثلما أنا ومثلما هو الليل!»

ومن لوعتها استمدت كفّاها عنفاً مباغتاً، فراحتا تشدّان بقسوةٍ الشعر الذي تخلّل أصابعها كأنما تحاولان انتزاعه من موضعه، فتململت المهرة متوجّعةً دون أن تُظهر ذلك، كانت تميل رقبتها مع اتجاه كل شدّةٍ لتخفّف وطأتها وحسب. على حين غرّةٍ أفلتت رباب مُهرتها وغادرتها دون وداع...

بقي ناصيف مستيقظاً في فراشه وقد أغضب امرأته لأول مرةٍ منذ زواجهما إذ لم يتجاوب كعادته مع غنجها ودلالها المعتادين اللذين ظنّت أنها تأسره بهما.

حالما خرج من المصطبة كان همُّه الوحيد أن يجد كائناً ما يسوطه حتى ينتزع لحمه وينثر دمه مع كلّ صفرة سوطٍ تنهال على جسده وهي تحزّ الهواء، فلا يتوقف مهما بلغ استجداء الضحية وصراخها حتى تتلاشى غضبته ويبترد سعيره. أو أن يلقي بثورٍ ضخمٍ أرضاً بعد أن يتحايل على تقييده، وإن فشل فسيكسر قوائمه بساطورٍ حادٍّ وثقيلٍ ويرتمي على رقبته، لا يكتفي بضربة سكينٍ عميقةٍ تصل بين ودجيه بل يوالي الطعن في الرقبة من غير أن يأبه بشخير الحيوان وانتفاضات نزَعه الخطرة وعينيه الحاقدتين! لكنّه بدل ذلك كلّه صرّ على أسنانه وضمّ قبضتيه وراح يضرب بهما دون كللٍ أو تعبٍ أو ألمٍ الجدار الترابيّ لحظيرة الأغنام.

في طريق عودته عرّج على أمّه وعيناه الضيّقتان تسوطانها ضغينةً ولؤماً:

ـ كلّ هذا نتيجة دلالك ولينك وتساهلك معها. خطوةً خطوة.. سنةً وراء سنة حتى تنمّرت وتجرّأت عليّ وعلى أبيها. لكن ذلك كلّه سيعود عليك يا أمّ ناصيف! انتظري قليلاً... آن أوان قطاف غرسك الذي أثمر علقماً.

لم تلتفت آمنة إليه فقد اعتادت أن يقذف في وجهها ما عجز عن قذفه في وجه غيرها وأن يحمّلها مالا ذنب لها به مفرغاً كل غلّه أمام صمتها، مثلما اعتادته آتياً بعد حينٍ مداعباً شعرها ومقبّلاً يديها معتذراً عمّا بدر منه . . . وكانت تصفح . لكنّها أحسّت هذه المرّة أن ثمّة ما سيأتي، وما من صفحٍ حينها .

ـ هل تعشّيت يا ناصيف؟ امضِ إلى زوجتك وأحضرِها، أكون قد أعددت لكما عشاءكما، قالت هادئةً غاضةً الطرف عن قسوته محاولةً تهدئته واسترضاءه . إلا أنّه توفّز وأطلق تهديده :

ـ دعيني منكِ ومن عشائك، أطعمي ابنتك وسمّنيها فقد حان موعد ذبحها!!

ودّت لو تطرده أو تشتمه أو تسأله، «لمَ؟» لكنّها تجاهلته كلّيّةً فمضى وقد أحسّ قسوة لامبالاتها ناسياً قسوته وإعناته لها ولمس صَغاره، «أنا ناصيف تعاملونني هكذا؟ أنا المعافى تتجاهلونني لأنّني عاقلٌ وأسيطر على غضبي وجنوني، أمّا عبد الجبّار ورغم عجزه وهرمه وحتى خرفه فتهابونه وترتعدون فرَقاً منه لأنه لا يواري جنونه عنكم . ولكن ألا تخشاه أنت أيضاً؟ ألم ترعبك فكرة أنّه كان سيرديك برصاصةٍ لو لم تصغ إليه أو لو حاولت معاندته، فاعتذرتَ مطأطئاً ومضيتَ صاغراً؟ لقد مضى زمان أبيك يا ناصيف ولن تستطيع تقمّصه في زمانك أنت، تعرف ذلك جيداً وتمارسه على أكمل وجهٍ خارج المنزل . لِمَ تحاول إذن أن تعاكس ذلك وتحاول أن تكونه داخل المنزل رغم إدراكك لسخف فعلك، خاصةً أثناء حضوره؟ لكن على أيّة صورةٍ كان عليّ أن أردّ على تلك المسترجلة التي تحسب نفسها صورةً مؤنّثةً عنه وتريد ممارسة سطوته من غير استخدام شراسة بطشه المفرطة؟ من تحسَب نفسها؟ منذ سنواتٍ فقط كنت أشبعُها

صفعاً ولطماً ولا تجرؤ على الردّ ولا الشكوى لولا أن عينيها كانتا تقدحان شرراً وتنزآن حقداً وكراهية! هل كانت تستجمع ذلك كلّه في داخلها لينفجر يوماً على تلك الصورة؟ لقد أوسعتُك صدري أكثر مما تستحقين. ألم تتّعظي بحسين؟ انتظري وستكون نهايتك أبشعَ من نهايته وسيحرقك هجير الندم قريباً!»

وصل غرفته، حاول أن يستعيد سيطرته على انفعالاته، لا يريد لهناء أن تراه على هذا الكلوح فتضيع هيبته أمامها. تنفّس بعمقٍ واسترخى، لكنّ ملامح وجهه المتصلّب لم تلن، حاول أن يبتعد ريثما يستعيد هدوءه لكنه لم يستطع فقوةٌ غريبةٌ تجذبه. أيمكن أن يكون مدفوعاً برغبةٍ دفينة يخبّئها منذ زمنٍ فما عاد إشباعُها يحتمل تأجيلاً؟ هل أراد أن يريها وجهَه الآخر بعدما أخفاه طويلاً لتعيد حساباتها وتجري قياساتها ومقارناتها بشكلٍ أصحّ وأكثر دقّةً؟! استعاد لحظةً مضت حين سأل نفسه: لمَ أريدها، هي بالذات وليس غيرها؟ أيُّ شيءٍ استفزّه ودعاه للتحدي؟ هل أحبّها حقاً، أم أنّه امتحن نفسه باختبار قبولها له مصرّاً ألاّ يسلّم بالفشل؟ من هي هناء تلك التي تصرّح أمّه في سريرتها وتلمّح جهاراً أنّها استلبته ولوت عنانه وسيّرته كيفما شاءت رغم شدّة شكيمته؟!

ولكن كيف ترى الأمر هي؟ بدا أنّ سورة غضبه على رباب وأمّها اتجهت صوب هناءٍ فهي شريكتهنّ بتاء التأنيث رغم اختلافها عنهما. كأنّ خشيةً مبكّرةً راودته من تطورٍ يدفع هناء لاتخاذ موقف الندّ له وتوجساً من تمرّدٍ محتملٍ منها جعلاه يستبق الوقت لإجهاض ما يمكن أن يعتمل وينمو! وعلى هذا أهمل محاولته للسيطرة على نفسه وولج غرفتها بوجهه المتّقد وملامحه الحانقة وقد تراخت قليلاً فبدا وجهه محيّراً أدعى للسخرية. تلقّته بضحكةٍ جذلى أحسّها طعنةً تخترقه مع سؤالها المستفزّ:

ـ ما لك؟ تبدو كمن داس على ذيل قطّةٍ في الظلمة فماءت بوحشيةٍ أرعبته وما دري هل يستاء من نفسه أم يسخط عليها!

نفذت نظرته العدائيّة إلى قاع جمجمتها فاضطربت وكادت تبتلع ضحكتها، لكنّها أبت التراجع. بقيت الضحكة معلّقةً على شفتيها دون صوتٍ ولو أنّ التماع عينيها خبا! اقتربت على مهلٍ وطوّقته بذراعيها فلم يبدِ ردّ فعل.

ـ ماذا حدث؟ هل شاكستك تلك المغرورة أم استهانت بك وأعرضت عنك؟

كانت تحاول امتصاص توفّزه والاحتفاظ بمبادهتها عن طريق الغمز من قناته بشكلٍ غير مباشر.

ـ انتظري وسترين كيف ستلين وترضخ!

أراد أن يقول، كلّكن سواء، تحاولن لكنّ مصيركنّ أن تنقدن صاغرات. إلا أنه امتنع فقد رغب عن إثارة معركةٍ قد تضطرّه للبطش بها، وهو يريد إسلاس قِيادها بالرفق وترويضها بغير شدّة. لكنّها تابعت وكأنّما تريد امتحان صبره وإشعاره أنّها أدركت أنّ رباب مرّغته بالوحل:

ـ هل سكتَّ لها؟ لا تقل إنّك لم تؤدبها!

أطال التحديق في عينيها، «هل تريد إثارتي أم تحريضي على شقيقتي أم تجريحي؟» تجاهل ذلك كلّه وسدّ عليها المنافذ:

ـ غداً سأنتهي من أمرها، قال ذلك بلهجةٍ جازمة ألزمتها بالتوقّف عن التعرّض له، إذ كان في قولته تهديدٌ مزدوج.

اعتادت أن توجّه حركته عن بعدٍ وتتدخّل في شؤونه بشكلٍ خفيٍّ وملتوٍ كأنّها تبدي رأياً لا يتعارض مع التزامها بعدم التدخّل في شؤون غيرها دون أن تثير حفيظته. كانا يلعبان لعبةً ماكرةً؛ هو يستخدمها عبر إحلالها كظلٍّ له يواصل حضوره في المنزل أثناء غيابه لتحقيق مآربه واستكمال هيمنته على شؤون الأسرة، وهي تستخدم حظوتها لديه لبناء عالمها الخاص عبره بوسائله وأدواته التي عليها أن تدمّر عالمه القديم. لكنّها حسبته غافلاً عمّا تحيكه في الخفاء، ليس بخساً لذكائه وإنّما ثقةً مفرطةً بذكائها وإرادة الوصول لديها.

ـ لننسها إذن. طالما ستنتهي المشكلة غداً، لِمَ يُطبِق الهمّ عليك كأنّك عاجزٌ عن تحقيق مبتغاك؟

ـ حسنٌ، لننظر الغد!

تكلّف ابتسامةً غامضةً ومضى ليستبدل ثيابه، كأنما نسي تماماً المهانة التي شهدها منذ قليل.

ـ هل تناولت عشاءك؟ سألته وهي تتصنّع اهتماماً تعاود تقييده به، فتجاوب معها:

ـ لا، لست جائعاً، لكن إن رغبتِ لنمضِ، فقد طلبت أمّي أن أصحبك لتناول العشاء عندها.

ـ لا، لستُ جائعةً أنا الأخرى، حان وقت النوم، أفٍّ لهذا الحرّ، أكاد أختنق...

ارتاح ناصيف للتغيّر الحاصل، أحسّ أن التحوّل الذي كان عليه إجراؤه قسراً قد تمّ طواعيةً. لم يتوقّف عن تساؤله إن كانت قد ضحكت

عليه . . . المهمّ أنّها استطاعت التعايش مع وجهه الخفيّ لدرجةٍ ظنّ فيها أنّها تعرفه وتتجنّبه أو تتحاشاه! استلقيا على السرير . . . حاولت من جديدٍ استدراجه وإيقاعه في فخّ جسدها، لكنّه لم يكن قد تخلّص ممّا يؤرّقه فتملّص منها بجفاءٍ حرص ألا يجرحها. أدركت عبث محاولتها وابتعدت فلم يولها اهتمامه.

ظلّ مستيقظاً . . . ومع انتظام تنفّسها التفت نحوها وقد استغرقت في النوم. وفي ثوب نومها الليلكيّ نصف الشفّاف بدت ربّةً تستوجب عبادة جمالها. «صرتِ لي أخيراً يا هناء، كم بدا ذلك عسيراً وأقرب إلى الاستحالة في البداية!» كأنّما استشعرت عينين ترقبانها وتتأمّلان فتنتها فبادرت إلى تغيير وضعيتها تدريجياً لإبراز ملامح إغوائها؛ ثنت ذراعها اليسرى وألقتها خلف رأسها فظهر إبطُها الحليق ناصعاً تلتمع قطرات عرقٍ ضئيلةٌ على صفحته كندىً صباحيٍّ علق باطن بنفسجة في أوج التفتّح في اللحظة التي انزاح فيها جسدها للأسفل مائلاً على جانبها الأيسر ليواجهه، ورفعت فخذها الأيمن طاويةً ركبتها بزاويةٍ حادّةٍ ملصقةً باطن قدمها اليمنى بركبتها اليسرى وقد انكشفت ممسكةً طرف ثوبها الذي تساقط على فخذها الأيمن واستراح على خط التقائه ببطنها مظلّلاً سروالها الداخليّ الأبيض ومتداخلاً معه. راح ناصيف يمسحها من إصبع قدمها الصغير المتوّج بقرمزٍ يغطي الظفر المنمنم وحتى رأسها حيث تلألأت حبات العرق على جبهتها ملتصقةً بذؤاباتٍ شقراء نافرةٍ من شعرها المسترسل على الوسادة. اشتمّ رائحة جسدها وهو ينضح عرقاً طازجاً مختلطاً بعطرها المميّز والشفّاف فامتلأت رئتاه بها، راحت تلهب دماءه وهي تتقافز في شرايينه وأوردته كأنّ عاصفةً أطلقت أمواجها العاتية فراحت تلتطم بالكتل المحيطة بها محاولةً النفاذ خارجاً فيمنعها جدار الأدمة ويتردّد نبضها على سطح الجلد متجاوباً مع خفقان قلبه المتدافع

مع لهاثه المحرور . . . استدار على جانبه الأيمن وامتدّت يده اليسرى فلامست أناملُها الركبةَ التي أضاءت كشهبٍ وسط ليل ، انتقلت شحنةٌ صعقته فمال إليها يكاد يقاربها لو لا أنّ عينيه لمحتا شبح ابتسامةٍ تردّدت على شفتيها المكتنزتين اللتين انفرجتا على مهلٍ بدعوةٍ صريحةٍ للتقبيل . «أيمكن أن تكون مستيقظةً وتدّعي نوماً؟» سحب كفّه فرفّ جفناها رفّةً غير ملحوظة ، وما عاد يبصر غيرهما على خلفيّة جبهتها المرتفعة وقد نسي جسدها كلّيّةً . «ما الفائدة؟ كلّ هذه السنوات ولم تحمل!» رفضت بشدّةٍ أن يفحصهما طبيبٌ وأصرّت على أنهما سينجبان حالما يأذن الله بذلك . لم يكن غبيّاً ، ربّما يكون هو السبب وربّما هي ، لكنّ إصرارها يؤكّد شكوكه بأنّها تعرف عقمها أو تخشى أن تواجَه به .

«إلامَ ستحتمل ذلك يا ناصيف؟» عاود الاستلقاء على ظهره ولم تلبث أن ولّته ظهرها ، لكنّ وجهها كان قد ارتسم على السقف فوق عينيه ؛ مستديراً ممتلئاً صحّةً ، محاطاً بشعرها الأشقر السبط الذي يغطي نصف ظهرها وينسدل على كتفيها . جبينها المتّسع ، أنفها الأقنى الصغير ، نهضة وجنتيها الزهريتين وعيناها الواسعتان اللتان يلتمع على زرقتهما وميضٌ يغيّب عمقهما ويسطع ذكاءً أو مكراً ، يتوارى خلف شفتيها المفترّتين دوماً عن ابتسامةٍ مبهمةٍ تتكئ على ذقنٍ عريضةٍ توحي بالقوة . سماحةٌ لا تُنال وتصميمٌ لا ينتهي!

هل كانت درجةً يتسلّقها وحسب ، أم كانت تحدّياً استوجب أن يشحذ له كلّ همّةٍ حرصاً على تحقيقه والوصول إليه؟ «دع ذلك يا ناصيف ، هناء باتت هنا منذ زمنٍ طويل حتى كدت تتساءل في لحظاتٍ ما ، ما الذي تفعله تلك المخلوقة الغريبة في هذا المكان الغريب؟ سنواتٍ ولم تتأقلم مع وضعها الجديد ، ولن تفعل ، لكنّها تملك أيضاً طموحاتها وتعمل على تحقيق خططها على مهلٍ كأنّها تسعى لجعلك غريباً مثلها عن

المكان، فإمّا تغادرانه معاً أو تعيدان تأسيسه بحسب تصوراتها التي صارت بعضاً من تصوّراتك حيث تقاطعت رؤاكما وتلاقت أفكاركما. لم يبق الكثير! فها أنتَ قد أنجزت مرحلةً وآن أوان الانتقال لأخرى. ولكن وقبل ذلك يجب أن تُزاح رباب من الطريق، فهي الوحيدة التي ستقف ـ بعد حسين ـ موقف المعارض لمشاريعك بعدما تحول الجميع، بمن فيهم أبو ناصيف، لأخيلة ظلٍّ تحركها يداك سواءً أكنت حاضراً أم غائباً. هكذا تحولت خيوطك غير المرئيّة لإشعاعاتٍ كهرطيسيةٍ تحركهم عن بعد!»

على مبعدةٍ، كان وسيم يراقب ما يجري أمامه وحواليه من شبّاك غرفته التي تعلو غرفة أمّه. لم يتذكّره أحدٌ ولم يلتفت إليه أحد. فتىً في الرابعة عشر من عمره أولدته واحدةٌ من فورات أبيه الجسديّة المتأخّرة فعلق في رحم أمه التي شاءت الصدفة أن تترك بقية خصوبةٍ في أحشائها التي جفّ ماء الحياة في تجاويفها بعدما هرمت ودخلت خريفاً ما عاد ينتهي لولا ربيعٍ مؤقّتٍ أزهر سُمرةً وشعراً فاحماً ورقّةً متناهيةً انعقدت فكانت وسيم.

مَنْ غير رباب أطلق فرح عينيه الضاحكتين رغم حاجبيه الكثّين الملتصقين أعلى أنفه المنحدر على مهلٍ من جبهةٍ مرتفعةٍ والمنتهي برفقٍ على مرتفع فوهتي منخريه المطلّتين على زغب شفته العليا الرقيقة والناتئة قليلاً والمنطبقة بحزمٍ على شفةٍ صغيرةٍ مشدودةٍ باستمرار تظهره عازماً على تحقيق شيءٍ يدرك صعوبته فلا يعيقه ذلك أو يمنعه؟ من أذنين صغيرتين بارزتين قليلاً تنحدر صفحتا وجهه بشكلٍ مائلٍ وقد نبت عذاراهما لتلتقيا في قوسٍ مؤنّفٍ أسفل وجهه. كان وجهاً أقرب للأنوثة منه للطفولة لولا حاجبين وشفتين أسبغت عليه مظهراً مفرط الجديّة والتحفز.

لم يكن ابن أمه إلاّ بالولادة والإرضاع، إذ أنّ رباب صارت له أمّاً مذ بلغ الرابعة من عمره وكانت آنها في عمره الآن، خلعت طفولتها فجأةً

والتجأت طاقات مراهقتها العشوائيّة والمتدافعة دون هدفٍ نحوه فبكّرت في أمومةٍ كامنةٍ تنتظر أوانها . ورغم أنّه حبّة العنقود الأخيرة لم يجد من يهتمّ به بعد ما غرق الجميع في همومهم واهتماماتهم الخاصّة كأنّما أتى كشيءٍ زائدٍ لا يحتاجه أحد ، بل كاد يكون عثرةً يرتطمون جميعاً بها في غدوّهم ورواحهم ! التجأ لحضن رباب والتجأت إليه تخفي أنوثتها المتفتّحة كأزهار الربيع وقد بدأت في التحوّل لقيودٍ تحيط بها وتُطبق عليها شيئاً فشيئاً . . . ترك لآمنة لفظة أمّي وتعلق كلّيّةً برباب حتى صار ظلاً لها .

لربما أحسّ يتماً مبكّراً حال ذهابها إلى المدينة لإكمال دراستها فما عاد بمقدوره الالتصاق بها وإشباع خلاياه برائحتها الأليفة رغم أنّها حاولت باستمرارٍ ألاّ تطيل الفراق وسعت لرأب ما ينشرخ خلال حضوراتها المتقطّعة التي دأبت عبرها على تعويض غياباتها الطويلة لكن دون جدوى ! حاولت اصطحابه إلى المدينة ليكمل دراسته قربها وفي كنفها ، لكنّها جوبهت بمقاومةٍ عنيفةٍ من ناصيف الذي رأى في التصاق الصغير بأخته علامة خطرٍ لا تجعل منه تابعاً لها وحسب ، بل تودي برجولته وتجعله في رقّته وخفره شيئاً أقرب لفتاةٍ مراهقةٍ ! كان أكثر ما يخشاه أن تبذر في تربته بذور تمرّدها واعتدادها الشديد بنفسها وأنفتها التي لا تطاق . من يومها تشدّد في معاملته وقسا عليه قسوةً تفوق احتمال الغلام فانكفأ على نفسه ولاذ بصمته وعزلته !

وهاهو منذ أسبوعين يبتعد مستكيناً متوارياً عن الأنظار يتملّى زوبعةً تتصاعد مهددةً بإعصارٍ شديد . «ليس في إكراه رباب على الزواج من غانم أيُّ عدل ، يعتبرونه غير أهلٍ لها ومع ذلك يدفعونها نحوه لسببٍ لا أستطيع تبيّنه ولا إدراكه ! »

من وراء نافذته مرّت أحداث الليلة كأطيافٍ احتار إن كانت حقيقةً أم وهماً، لكنّه تيقّن أنّ دماً سيسفك صباح اليوم التالي! رأى رباب أمّه وشقيقته ملقاةً وحفرةٌ متفحّمةٌ تبصق دماً وسط جبهتها وتذرو رماد عالمٍ دافئٍ ضمّه بين ساعديها . . .

«ما الذي تفعله داخل الإسطبل ولمَ أطالت مكوثها هناك؟ هل تودّع هبوب؟ ليتها تُخرجها وتمتطيها وتمضي بعيداً حيث لا تُطال!» لكنّهم لن يمهلوه، ما من مهرب!

اتّسعت مضافة أبيه فتلألأت محاطةً بعتم الليل؛ البُسط والحشايا، مصبّات القهوة تقف شاهداً مهمَلاً قرب الجدار، أبوه بوجهه العريض وعينيه القاسيتين ولحيته الشائكة البيضاء المطلقة دون تشذيبٍ وشاربيه الأبيضين اللذين أخفيا ملامح فيه، حطّةٌ بيضاء تغطّي رأسه وكتفيه تنير سواد عكّازتيه المرميّتين إلى ميسرته امتداداً لساقيه المحطّمتين، متكئاً على جانبه يهيّئ سيجارته متمهّلاً دون أن يرفع بصره عن أصابعه التي تلفّها بعنايةٍ واهتمام.

من بين وجوهٍ كثيرةٍ تحيط به يبرز وجه غانم بقامته الهزيلة ورأسه الصغير الذي لعقت صلعتُه أغلبَ شعره دون أن تخفي جبيناً ضيّقاً يحدّه حاجبان أشعثان ينهض تحتهما أنفٌ صقريٌّ محدّبٌ يكاد يملأ مساحة الوجه المثلّث، عينان صغيرتان غائرتان تلتمعان بخبثٍ لا يُخفي طمعاً بكسبٍ سهلٍ سيناله عمّا قريب جعل شاربيه المعقوفين يتراقصان رغم إرادته فيخفيان المساحة المتبقّية من وجهه. يجلس منتظراً عقد قرانه بصمتٍ محترسٍ وقد ارتدى بزّةً جديدةً نمّت عن ذوقٍ فاسد.

أين ناصيف إذن؟ آه، هو من سيجرّ رباب ويدفعها لنواف! فهو أذكى من أن يلوّث يديه بدمها طالما يجد متطوّعاً لا يتكلّف عناء إقناعه.

تغيم الرؤية قليلاً كأنّ غيماً كثيفاً غطّى السماء فشحب نور النهار وعلى حين غرّةٍ كانت رقبة رباب قد استقرّت على ركبة نواف ويده اليسرى تشدّ شعرها لتحكمِ تثبيتها ثم تظهر السكين، وبيدٍ خبيرةٍ ومحترفةٍ تحزّ العنق من الوريد إلى الوريد ثم يدفع شقيقته إلى الأرض متخبطةً بدمها الفائر كينبوعٍ وهي تتلوّى كشاةٍ ذبيحةٍ تبحلق بعينين متسائلتين، لماذا؟

«هل صرخت؟» سأل وسيم نفسه وجسده ينتفض بشدّةٍ كأنّ تيّاراً كهربائياً أمسكه وما استطاع منه إفلاتاً، اكتشف أنّ كفّيه التصقتا بإفريز النافذة وما عاد قادراً على تخليصهما منه ليمسح العرق الغزير الذي داخَل عينيه فراحتا تحرقانه وقد مضت المضافة وشحوب النهار ولون الدم الفاقع.

ظهرت رباب مغادرةً الإسطبل مجرجرةً ساقيها فتحرّرت كفّاه وسارع لمسح عينيه والتحديق بها، «لا تزال حيّةً، الحمد لله!» مضت الحمّى التي أمسكت بتلابيبه إلى حين، أراد أن يهتف باسمها ليسمع جوابها ويتأكّد من صحوته، يدعوها أو يسألها أن تنتظر قدومه ليصعدا معاً إلى غرفتها حيث سيهدّئ روعها وروعه بالارتماء في أحضانها التي يشعر أنها ستمضي دون رجعة. لكنّه تساءل، «كيف أنقذُها؟ لن أستطيع الاعتماد على أحد، حتى عادل لن يقبل التدخّل بشكلٍ مباشر، ربما يرفض تقديم أيّة مساعدة! عليّ الاعتماد على نفسي وحسب. هل نهرب معاً؟ وأين نمضي؟ ألن يلاحقونا؟ وحين يكتشفوننا ألن يذبحوها أمام عينيّ دون أن أجرؤ على مواجهتهم والدفاع عنها؟ لِمَ لا أسحب بندقيةً من تحت التبن وأشرعها في وجوههم مهدّداً بقتلهم جميعاً إن لم يتركوها وشأنها؟ ستتقدّم أمي مندفعةً نحوي ولن أجرؤ على إطلاق النار، سترتمي

فوق البندقية وتسحبها من يدي لا ، لا يصلح هذا أيضاً وإذن ماذا أفعل؟»
تطلّع وسيم إلى السماء يسألها معونةً عجز عن تحقيقها لنفسه بنفسه .

ومن العتمة أطلّت ذات البندقية ، توجّهت فوهتها نحو وجه ٍملثّم ٍوفي ذات اللحظة امتدّت يدٌ وانتزعت الكوفيّة المرقّطة بالأحمر والأبيض ليظهر وجه غانم يضحك ببلاهة . قبضت كفّاه على البندقيّة وضغطت سبّابته على الزناد ، ارتجّت يداه وفرغ المخزن ، امتلأ وجه غانم بثقوبٍ سوداء حاول عدّها فلم يفلح لأنّ الوجه الخبيث استمر يضحك دون توقف . . .

ازدرد لعاباً جافاً ليرطّب حلقه ، أعادته بهمة الليل لحكايا أمّه التي حاكت قصص الجدات . . . حكت كثيراً عن جدّه فاختلطت الصور في ذهنه . في البرد والوحشة وقد غطّت الثلوج الأرض حتى أضاعت ملامحها وقطعت طرقاتها ، كانت تلفّه في حضنها وعلى ضوء نيران الحطب المشتعل تحكي له وما كرّرت أبداً ما كانت تحكيه . أدرك الآن أنّها كانت تخاطب نفسها أكثر مما كانت تخاطبه وهي ترمّم صدوع حياتها وشروخها ، تملؤها بملاط ذاكرتها الذي يسيل سريعاً ويتصلّب ببطءٍ شديد . . . لكن عبثاً ، فكلّما رمّمت ازدادت الصدوع حتّى تحولّت إلى انهداماتٍ ما عاد ينفع معها إصلاحٌ أو ترميم . لقد دخلت زمن صمتها يائسةً بعد ما أعرض عنها الجميع . حتى وسيم الذي رأته في ذلك الوقت أملاً يضفي معنى لحياتها ومعادلاً لقيمتها المفقودة والمهانة تركها ومضى خلف رباب!

كانت الصور مبهمةً وغير قابلةٍ للفرز والتمايز ، لكنّ ذاكرته الطفليّة حاولت صياغتها وفق انطباعاتٍ مازجت الذاكرة الخام دون قيودٍ تحدّد مواقعها وتعيّن ماهيتها . . .

رجلٌ يهابه الجميع، لا يستطيع أحدٌ اعتراضه أو تخطّي وجوده أو مخالفة أوامره. هل كان نوعاً من قاطع طريق، أم مقيماً للعدالة على طريقته الخاصة، يقتصّ من الظالمين وينصف المظلومين دون أن يأبه بحكومةٍ أو قانون؟ أكان هنالك قانونٌ أو حكومةٌ تستطيع بلوغ تلك التخوم المنعزلة والقفراء المحصّنة بجبالٍ يصبح المطاردون في أشراكها طرائد؟

عوت ذئابٌ ساغبةٌ وهي تقترب من البيوت متخلّيةً عن حذرها متأهّبةً لمهاجمة البشر في عقر دارهم درءاً لجوعها الذي أطلق وحشيّتها حفاظاً على حياتها. ردّت عليها كلابٌ شرسةٌ بخفوتٍ وقد أحسّت بغريزتها أنّها عاجزةٌ عن مجابهة جوعٍ أُفلت من عقاله وما عاد يأبه إلا بتمزيق فريسته أيّاً كانت لتدفئ بدمها الحارّ العروق الجافّة وتطفئ بها سعير الأحشاء المتلوية! فآلت أن تذكّر الذئاب أنها موجودةٌ خلف الجدران وحسب.

ازداد التصاقاً بأمه وتشبّث بها خشية أن تفلته فجأةً وتتركه وحيداً أمام الأنياب الصفراء والعيون الشرّيرة الحمراء... تذكّر ذلك الذئب الذي جلبه أبوه يوماً ورماه من فوق كتفيه أمامه قرب الموقد المتأجّج وهو يلهث وقد تجمّدت أطرافه فاقترب كثيراً منه حتى كاد يحرق نفَسَه. وحين لمح العينين المحملقتين بفزعٍ إلى الحيوان الذي تخضّبت قائمته اليسرى وانفغرت حفرةٌ في صدغه الأيسر صاح به:

ـ هل تخافه يا بنيّ؟

هزّ الصبيّ رأسه للأعلى دون أن يجرؤ على قولة نعم ولا على الاقتراب منه، مدّ أبوه يده واستلّه من فراش أمّه الدافئ فصرخ برعب:

ـ أمي!

لكنها لم تلتفت إليه إذ كانت تهيّئ طعام أبيه وتجهّز ماء استحمامه. لم يجد الصبيّ نفسه إلا وهو مرميٌّ على بطن الحيوان القتيل الملقى على جانبه وقد تمدّدت قوائمه فاستقرّت ساقا الصبيّ بينها، احتُبس صوته وهو يستشعر وخز الشعر الخشن في ظهره وإليتيه ومرفقيه المنغرسين في خاصرة الحيوان وجانب أضلاعه. بدا أنه سيطلق صرخةً مخبولةً ويجهش بعدها سريعاً فعاود الأب رفعه وأجلسه مواجهاً جثّة الحيوان. هدأ قليلاً لكنّ الرعب لم يغادره.

ـ إنّه ميتٌ الآن لِمَ تخشاه؟

تلعثم الصبيّ ووجد صوته أخيراً فتمتم:

ـ لا أخشاه لكنّي لا أحبه!

مدّ الأب يمناه وأمسك بطرف قائمته الخلفيّة المرتفعة عن الأرض ونخعه نخعةً قوية فاهتزّ الحيوان وارتجّ ثم عاد لوضعه الأول:

ـ لقد انتهى، فقد حياته وقوّته، صار أضعف من حَمَل، مات وبات جثّة، جرّب أن تحركه!

حاول الصبيّ أن يتملّص لكنّه لم يستطع فمدّ يده بحذرٍ وبطءٍ حتى لامس خطم الذئب، حاول أن يمسكه لكنّه تراجع بعدما لمح الأنياب المكشّرة:

ـ ماذا لو عضّني؟

رفع يده وأمسك الأذن المنتصبة، أحسّ صلابة غضاريفها ووخز شعرُها أصابعه لكنّه شدّها وجرّب أن يحرك الرأس فلم يتجاوب معه.

استفزته معاندة الرأس، حبا على ركبتيه واقترب وقد نسي رعبه وأمسك بالأذن بكلا كفيه وراح يشدّها دون أن تتحرك. استثير غضبه فأزاح خوفَه وراح يضرب الرأس بقبضتيه وما لبث أن وقف وراح يركله صائحاً:

- ميت.. ميت.. ميت!

ابتسم الأب، أراد أن يقول شيئاً عن خطره وهو حيٌّ وضرورة الاحتراس منه، لكنّه أجّل ذلك كارهاً إثارة خوف الغلام من جديد.

عاود ذلك الجدّ الخرافي ظهوراته، حاول أن يتخيّله عملاقاً بشاربين ضخمين يمتطي صهوة جواده الفاحم - ربما كان جدّ هبوب أيضاً - متمنطقاً بندقيةً قديمةً وجنادين متصالبين تبرز رؤوس الطلقات منهما، تدفع الريح عباءته البنيّة وهو يطلق أوامره قبل أن ينطلق على الصهوة التي ضاقت تحته.

كان الفارّون من وجه العدالة والمطاردون يشكلّون مجتمعاً مصغّراً يحيط بالبلدة لائذاً بكهوف جبالها، ولأنّ قانون الغاب هو الوحيد السائد فقد احتاج قبضةً قويّةً تضبط الفوضى التي تعمّه، تقلّل من غلوائها، تمنع عدوانها عن البلدة وتدفعها للذود عنها في الملمّات! كان ذلك الجدّ بحسب ما علق في ذاكرته هو تلك القبضة التي لا تلين.

«لمَ لا يأتي الآن ويحدّق في عيونهم جميعاً قائلاً، ستدعونها وشأنها؟ يقول كلمتيه ويمضي، من سيجرؤ بعدها على مخالفته؟ لكن ماذا لو وقف إلى جانبهم وحدجها بنظرته المروعة، المرأة لا تقول لا! كذلك يطلق حكمه ويمضي. لن يفعل ذلك فهو سيبصر الظلم الذي يحيق بها ولن تقبل به عدالته. لا، سيلتفت إلى غانم وينهره، ابحث عن زوجةٍ من ثوبك، رباب ليست لك. سيمضي غانم إذن صاغراً ولن يجرؤ ناصيف على الاعتراض فلن يغامر بأن ينال لطمةً على مشهدٍ من الناس ستكون

طلقةٌ في القلب أحبَّ إليه منها. ربما سيفرح الأب من غير أن يظهر ذلك... ورباب؟!»

تذكّرها، تطلّع نحو الأسفل فلم يرها. «هل صعدت إلى غرفتها؟ لا يمكن، لو لمحتُها لقطعت عليّ تخيّلاتي وأنا أتأمّل الفضاء المحيط بغرفتها. أين مضيتِ يا رباب؟»

فكّر أن ينزل ليبحث عنها ويسألها كيف يستطيع مساعدتها رغم أنّها أهملته طوال الأسبوعين الماضيين ولم تولِه عنايتها وحنوّها المعتادين، فصار يهرب منها ويختفي عن ناظريها من غير أن يدعها تغيب لحظةً واحدة عن عينيه. ورغم ذلك هاهي ذي تختفي، «ويحك يا وسيم، لم تغفُ ومع ذلك كنتَ كمن غيّبه النوم فأضعتها!!»

خرجت رباب دون أن تودّع هبوب زاهدةً لا تلوي على شيء، انطلقت وقد ملأت مقلتيها ظلمةٌ أعمت بصرها فاصطدمت بالسور المنخفض الذي يحيط بفوهة البئر القديمة غير المستعملة إلا في أحيانٍ قليلةٍ لسقي الماشية، كادت تتعثّر وتسقط في جوفه لولا اعتراض العمود الخشبي الذي التفّ عليه حبل الدلو لجسدها المتهاوي. التمع وجع ارتطام ركبتيها وساعديها في عينيها وأزهق العتمة التي تربّصت بهما فأبصرتا قمراً غائماً يطلّ من مكانٍ سحيق. «ليتني وقعتُ ودقّت عنقي وانتهت عذاباتي مرّةً واحدة وإلى الأبد! هل سيحلّ الموت المشكلة؟» تساءلت وهي تلملم شتاتها متهيئةً للقيام من عثرتها.

حالما استقامت ضاق الفراغ على رحبه فبحثت عن متنفسٍ لروحها يتيح لها رمي أسئلتها والإصغاء لشيءٍ مخالفٍ للصدى. أحسّت قسوةَ الحجارة تحت كفّيها وصلابةَ كتلها بعدما انحنت على السور، فرأت في الهوّة الفاغرة تحتها ملاذاً ومنجى!

أدارت ذراع البكرة فهوى الدلو ساحباً الحبل وراءه مُصدراً صريراً أوغر صدر الليل والصمت وانتهى بقرقعةٍ على سطح الماء. استتبّ السكون، تلمستّ كفاها طرف السلّم الحديديّ الملتصق بجدار البئر الداخليّ، صعدت الجدار ثم انسلّت رويداً رويداً وهي تهبط الفوهة كأنما تعود لأحشاء أمها. بين الفينة والفينة كانت تلمس الحبل المتدلّي لترى

خلاله أين وصلت . . . رغم الدهشة والخوف البدائيّ، أحسّت روحُها بالسكينة فوالت الهبوط . خالت أن الجوّ سيبترد قليلاً، إلا أنّ شدّة البخر ضغطت الهواء فضاق صدرها به وازداد الحرّ فنضح جسدها مزيداً من اللزوجة والعرق . وفي آخر ملامسةٍ للحبل تركته ونزلت درجةً أخرى فلم تتلقَّ قدمها أيَّ جسمٍ صلب، كادت تهوي لولا أنّ الماء الذي غمر قدمها العارية قلّص أصابعها بقوةٍ على الدرجة التي كانت كفّها تتشبث بها . أحسّت أن الماء قد بلّ قلبها كأنما سبق قدمها إليه، رفعت قدمها وثبّتتها على الدرجة الأخيرة وراحت تتنفّس بعمقٍ مندغمةً بالسكون! !

داخلِ السواد وفي عزلتها انفتحت أمامها فضاءاتٌ غابت زمناً، بحثت عنها بعدما ضلّت طريقها إليها كأنّها داخلت روحها وكأنّما ولجت عالمها الداخلي المغلق ففاءت إلى ظلاله بعدما لفظها العالم الخارجيّ وأورثها رهاب البشر الذين يحيون داخله، ومن تقاطع حيواتهم ينحسر الزمن عنهم ويفضح عريهم فتظهر بشاعتهم وتفوح روائحهم .

وحيدةً تلملم مزقها محاولةً إعادة اللُّحمة إليها فعليّاً كما تظهر أمام عيون الآخرين! خطر لها أنّها ملوّثةٌ وأنّ عليها قبيل مواجهتها لذاتها وأدائها لصلواتها أن تدع الماء يلامس خلاياها خليّةً خليّة بعيداً عن عيون الناس وقريباً من عينيها . لكنّها فكّرت بطريقةٍ مختلفة، «الأمر لا يبدو على هذا النحو، لقد منحتُه جسدي لأنّني أردت ذلك واخترته بقدر ما أرادني هو واختارني برضىً وتوافق، كانت النقيصة الوحيدة ـ رغم أنّني أكرهته على عقد قراننا ـ والعطب الأساسيّ أنّنا لم نستطع إعلان ذلك على الملأ! فبقينا كأشباحٍ لا تسعى إلا في الظلمة، وما كان ثمّة مفرٌّ طالما عجزنا أو ما رغبنا أو أجّلنا إعلاناً رسمياً يكسبنا شرعيةً استنّها الناس وأشاعوها . هل أخطأتُ؟ لا أحسب ذلك، أصغيتُ لنداء الجسد مثلما أصغيتُ لنداء القلب، وكنتُ راضيةً غير مكرهة! ! لكن ما لا يسوّغ الآن، ارتضاء مذلّة

ممارسة ذلك في الخفاء بعيداً عن أعين الرقباء. كأنّما عشت معه كمومس!»

حاولت العودة للبدايات... أهي التي اندفعت وتخطّت العتبة بمحض إرادتها، أم أنّ هنالك من أزال الحوائل والحواجز والكوابح التي أعاقت السبيل، أو أنّه سهّل الأمر عليها بتبريراته أو استفزازه لاستقلاليّتها وتمرّدها على القيود الوهميّة شديدة الوطأة التي ترزح تحت ضغوطاتها؟! لم تتبيّن ذلك تماماً رغم إدراكها لمسؤوليتها دون تنصّلٍ أو تسويغ، فهي تشعر بوجود خطيئةٍ ما، شيءٍ غير سويٍّ يجعلها في لحظاتٍ تشابه اللحظة التي مضت، تحسّ أنّها ملوّثةٌ وأنها لم تحافظ على براءتها الأولى، ليس بالمفهوم السخيف لافتضاض البكارة بل بمفهوم رضوخها لعدم الإعلان والتصريح عن فعل ما تراه صائباً واضطرارها لممارسته في الخفاء كوطاويط المغائر حالكة العتمة.

أرهقها تأنيبها لذاتها وثقل إحساسها بذنبٍ لا تستحقّه ولو أنّها لا تستطيع التملّص منه، فرفضت نهائياً الانسياق وراء حاجات جسدها رغم استنكار حسّان وعدم إصغائه لكلّ تعليلٍ قدّمته ومحاولاته المستميتة لثنيها عن قرارها، حتى أنّه هدّد صراحةً بعدم قدرته على البقاء وفياً لها وبحاجته لامرأةٍ أخرى. آنها رمقته بأسىً:

ـ إن كنت ترغب بذلك فافعله!

أجاب مستعطفاً:

ـ لا رغبة لي في ذلك، ولكنّك ترغمينني عليه!

ـ إذن فافعله!!!

ارتاحت لقرارها ولو أنّها لم تتخلّص من ثِقل إحساسها بأنّها امتهنت جسدها بطريقةٍ أو بأخرى. ربّما باتت تخشى نفسها... التمعت الفكرة على حين غرّة، «أيمكن أنّني خائفةٌ من معرفتهم بأنّي ما عدت عذراء؟

ولو استطعت القول إنّني متزوّجة فلن يصل إلى عقولهم إلا التعبير الأول!»

ضاقت الاسطوانة التي تعلّقت بجدارها وقد أسندت ظهرها لحديد السلّم شابكةً ذراعيها بإحدى درجاته، افتقدت الهواء فاستشعرت غيبوبةً مقبلة. هل تتخلى عن نفسها وتعود لرجاء أن تبتلعها المياه التي نأى القمر عنها؟ لكنّها بدل ذلك مدّت قدمها من جديدٍ فغمرتها المياه معيدةً إليها الصحوة، كأنّما تنبّهت لمسألةٍ لم تعرْها أيّ اهتمام، فعادت المشكلة التي خالتها تافهةً لتستولي عليها، «أيُعقل أن تكون هي التي أرّقتني دون أن أدري؟» لم تستبعد الفكرة رغم اشمئزازها من إمكان أن تفكّر دون وعيٍ على ذلك النحو! ورغم المرارة التي أحسّت طعمها وكادت تندفع خارج حلقها، فقد رأت في المشهد سخريةً لا تعوّض.

المضافة والجمع وشيخٌ أخرق يسألها:

ـ هل ترتضينه زوجاً لك؟

فتجيب مطرقةً بعد برهة صمت:

ـ أقبل به، إن قبل بي ثيّباً وليس عذراء!

ثم ترفع رأسها وتمسح الجميع بنظرةٍ متحدّيةٍ وتخصّ غانماً بتحديقةٍ مستفزّةٍ ومتشفّيةٍ تطالبه بقولة نعم أو لا! كم سيمضي من الوقت قبل أن يصحو أحدهم وينتظر إشارة أبيها أو لا يفعل ويقوم بردّ فعله المتوقّع؟ حينها سترشقهم بضحكةٍ مجلجلةٍ تزلزل ما بقي من توازنهم متابعةً:

ـ أقبل إن ارتضى نفسه زوجاً ثانياً لي!

ابتسمت بإشفاقٍ وقد استفاقت على دمها يشخب مثل شلاّلٍ وهي تترنّح أو تتخبّط قبل أن تشهق شهقتها الأخيرة . . .

لكنّ ذلك لم يعوّض حنقها على نفسها بل دفعها أكثر داخل الطوق القسريّ الذي يلفّها ويُطبِق عليها من كلّ الجهات . أحسّت في ذات اللحظة بخدرٍ يتسلّل إلى ساعديها جعلها ترتاب بإمكانية بقائها على تلك الوضعية فترةً أطول .

ودّت لو أنّ سماءً زرقاء صافيةً تنهض فوقها لاغيةً التخوم والآفاق، وريحاً رخيّةً تحمل عبق زعترٍ بلديٍّ يملأ السفوح وقد اخضرّت جبالٌ بعيدةٌ واستحالت بنفسجيةً في حيّز التقائها بالسماء، وسيلاً شديداً تجرف مياهه الحجارة والحصى والتربة منحدرةً بقوّةٍ نحو منخفضٍ يتلقّى المياه بعد أن يصبغها بلون السماء . هناك ستقف عاريةً دون ثيابٍ ولا زينةٍ تعبث الريح بشعرها الأسود القصير وتداعب ثدييها وكفليها وتتغلغل خلال فخذيها وإبطيها، تلمس ما لم تلمسه أبداً فتضحك جذلى .

تدبّرت دون أن تدري أمرها فخلعت ثوبها الأسود ورمته على إحدى الدرجات ثمّ انتزعت صدّارتها وسروالها وجوربيها وحشرتها تحت الثوب، كانت الريح قد نقلت مرحها إليها فانزلقت ممسكةً الدلو وغطست معه حتى غمرها الماء من غير أن تصل القاع، صعدت لتعبّ هواء ريحها فاستحال سوادُ الماء زرقةً وابتعدت الجدران الضيّقة وانفتح الفضاء . . . غطست عدّة مراتٍ حتى نسيت كلّ شيءٍ إلا لون السماء . تسلّقت السلّم، نفضت جسدها ورأسها، ارتدت ثيابها وخرجت من الفوهة المعتمة نحو سماءٍ شحب قمرها وكاد يغيب، اتجهت مباشرةً نحو غرفتها وجورباها التفّا عصبةً سوداء على جبهتها . . .

لمحها وسيم تسرع الخطو فامتلأ غبطةً وكاد يهتف باسمها مالئاً فضاء الليل به، «لا تزالين هنا! لا تحزني يا رباب! من أين أتاكِ الماء الذي

يقطر منك؟ ستخلعين عصبتك السوداء تلك غداً، لن يكون حداد، ستواصلين حياتك كما رغبتِ. أعدك بذلك، صدّقيني!!»

استرقت النظر خلال أوراق العريشة وأغصانها المتفرّعة من غير انتظامٍ فتبيّنت جسد أبيها مستلقياً بإهمالٍ وقد انتظم تنفّسه. واصلت سيرها... «لقد أجهد نفسه أكثر مما ينبغي. ألا تكفيه كلّ مشاقه لأضيف إليه مصيبةً جديدة؟» تذكّرت مسرحيّة إعلان نعي بكارتها، لكنها لم تبتسم بل فكّرت ببؤس، «سيقتله ذلك، تقضي عليه ذبحةٌ صدريّةٌ قبل أن يبادر لأيّ فعلٍ أو قول!» رثت له، «كيف أنقذه من ورطته دون أن أفرّط في حقّ وجودي بالصورة التي أرتضيها؟»

عادت الكآبة تخترمها وتفصم كيانها فالتفتت ووجدت باب أمّها موارباً، انعطفت نحوه ومدّت رأسها فوجدتها مقتعدةً الأرض وقد كبا رأسها في حجرها. «غلبها النوم ولم تستطع انتظار الفجر، هل أوقظها لتستلقي؟ لا، فمجرّد إيقاظها سيبعد النوم عنها مجدّداً». غادرتها وقد توجّعت لها وعنها. «كم كابدت واحتملت! لقاء أيّ شيء؟ هل ثمّة فرحةٌ ما في حياتها؟ هل تنتظر ما يدفعها للقول حال وصوله أو حدوثه: إنّ العمر لم يضع سدىً؟ أشكّ في ذلك، ربّما لا تتمنى حتّى الموت فالأمر سيّان بالنسبة لها!»

غادرتها متّخذةً سمت غرفتها. «وأنتِ، هل الموت سيّان عندك؟ هل يتطابق المعنى مع سؤال: هل الحياة سيّان عندك؟ لا بدّ من وجود فارقٍ ما، ظاهريٍّ على الأقلّ، طالما يوجد فارقٌ بيّنٌ بين الموت والحياة!!» حاذت غرفة ناصيف، أرادت التوقّف إلا أنّها تابعت. «تراه غارقٌ الآن في أحضان هناء بعدما أوحت إليه أن الأمور ستسير وفق ما يريد ويشتهي وتملّقته بما يكفي لإتخامه بإحساس تفوّقه الذكوري؟ الخبيثة تعرف نقاط ضعفه وتستغلّها بدهاء. لكن إلامَ سيحتملكِ يا هناء إن عرف أنّكِ أنتِ

العاقر؟ كيف ستتدبرين أمرك؟ هل سترتضين ضرةً إلى جانبك تكون أماً لأولاده الذين حُرمتِ منهم أم أنّك ستغادرين؟ وإن كان هو العقيم فهل سترتضين قسمتك وقدرك وتشاركينه جوعه لنداء بابا مستبدلةً ميمين ببائين؟ هل تستبدلين إحكام سيطرتك عليه بحرمانٍ أبديٍّ من الأمومة؟» بقيت الأسئلة معلّقةً في الفراغ الممتدّ أمامها من غير أن توقفها فمرّت تحتها وقد صارت قوساً من غباءٍ وهراء . . .

«نام الجميع وبقيتِ وحدك تنتظرين نوماً بعدما استسلم البعض لعجزهم منتظرين ما سيحدث بعد أن فشلوا في محاولة صنعه على هواهم، وتوسّد البعض الآخر وهمَ أنّهم سيصنعونه بالطريقة التي عليها أن تحدث بالفعل متطابقةً مع تصوّراتهم وتخيّلاتهم . أين تجدين موقعك بين الطرفين؟ أم أنّك ستكتشفين موقعاً متبايناً حتى لو كان اللامبالاة والنسيان؟»

وصلت غرفتها وفتحت الباب عابرةً نحو سريرها دون أن تبالي بإغلاقه واستلقت على ظهرها . اختلطت موجة التعرّق الجديدة ببقايا ابتلالها وأحسّته يتجمّع تحتها في تقعّرٍ أسفل صلبها وقد ارتفعت حرارته حتى قاربت الغليان فانتفضت ملسوعةً ونضّت ثوبها عنها باحثةً عن حشرةٍ ما، أو شوكةٍ وخزتها أسفل فقارها . لم تجد شيئاً فعاودت ارتداءه على عجل، وقع بصرها على المرآة القائمة على طاولة زينتها وقد التمعت عاكسةً نور القمر المتسلّل من النافذة . . . اتّجهت صوبها محاذرةً الارتطام بالكرسيّ الصغير المنخفض المرافق، قرّبته وجلست عليه، تطلّعت في عينيها، لم تتبيّن ملامحَها فوقفت واتّجهت صوب مكتبها، أضاءت مصباح قراءتها فتمدّد ضوؤه على مهلٍ وأنار أجزاء من أرضية الغرفة وبدايات

جدرانها، أمالته قليلاً بحيث يرتطم نوره بالمرآة وعادت إليها، جلست مواربةً وقد سقط الضوء محاذياً رأسها وكتفها الأيسر فارتسم خيالها جانبياً على المرآة. «أيّة مجنونةٍ صرتِها يا رباب؟!»

تذكّرت العيون التي كانت تلاحقها وهي تخطر بطولها الفاره وقوامها المتناسق وأناقتها المتميزة، «أين أنتِ الآن منكِ يا رباب؟» اقتربت من المرآة أكثر وراحت تحدّق في ملامح وجهها، «ما الذي تفعله تلك العصبة السوداء على جبيني؟» تلمّستها ومن نعومة نسيجها تذكّرت جوربيها الأسودين اللذين لم تستطع ارتداءهما في جوف البئر فلفّتهما على جبهتها وعقدتهما من الخلف، أرادت انتزاعهما لكنّ أصابعها لم تطاوعها فتركتهما وراحت تسرّح شعرها بأصابعها الطويلة المفرودة وتسدل ذؤاباته الأمامية فوق جبهتها فتتّصل بالعصبة ويختفي الجبين، وفي المرآة بدت عيناها متّسعتين أكثر من اتساعهما الطبيعي، وقريبتين أكثر من أنفها وقد اتّصل حاجباها الكثّان اللذان لا توليهما عناية خاصة فوق بدايته تماماً. «أين رأيتُ هذا الوجه من قبل؟» تساءلت وهي تتملاّه. «آه وسيم، كم يشبهني لولا امتلاء وجهي واكتمال تقاطيعه وتميّزها الواضح.» تذكّرت بأسىً أنّها غفلت عنه طوال الفترة الأخيرة ونأت عن غير قصدٍ لأوّل مرة في حياتها. «كم هو الآن حزينٌ ومتمزقٌ بين أنَفَته وحنينه وحاجته إليّ!» لكنّ الوجه الذي أطلّ ساخراً للتوّ هو وجهُها هي وليس وجهَ وسيم ولن تستطيع فراراً منه ما بقي الضوء يكشفه وما بقيت تتملاّه!!

استمرّت برهةً تتفرّس ملامحها الظليلة، تعزل كلاً منها على حدة، تجمع بعضها أو تجمعها جميعاً دون أن تعلم لِمَ. خطرت على بالها صورةٌ غائمةٌ قديمةٌ كلّما حاولت التقدّم في الزمن زادت الغشاوة فوق عينيها ثم أضحت جداراً صلباً لا يشفّ عمّا وراءه حينما حاولت التطلّع إلى قادمات الأيام. أمعنت النظر عند جبهتها المغطّاة كأنّها تبحث عن موضع الحلقة

الجليديّة التي باتت وشماً في منتصفها. كان السؤال يترنّح في رأسها، «أيعقل أن تكون حياتي تافهةً إلى هذا الحد، عديمة القيمة لدرجة أن إزهاقها لا يكلّف أكثر من قولةٍ لا تلفظها شفتاي؟ لا، تساوي موتاً! نعم، تساوي الحياة! يا للمعادلة السهلة!! ما هي طبيعة القوى التي تنتهك حياة المرء حتى تجعلها بخسةً على هذا النحو؟ وأيّ عيشٍ ذاك الذي يجعل حياتك بكلّ ما فيها وما يمكن أن يجدّ عليها عديمة القيمة والمعنى؟»

انهالت الأسئلة دون رحمةٍ فراحت ملامحها تتقلّص حتى غطّتها الظلال وبقيت عيناها تعكسان ومض حيرتها وبؤسها الغاضب. انتزعت نفسها انتزاعاً مغمِضةً كيلا ترى انكسارها يتحامل على نفسه مشكّلاً هامتها المحنيّة والمتداعية!! تهاوت على سريرها ومرّغت رأسها على وسادتها علّها تنشج وتطلق دمع عينيها ثمّ هبّت نحو مكتبها الخشبيّ، راحت تعبث بدروجه ودرفاته مقلّبةً محتوياتها... لمحت في درجها العلوي دفتراً كبيراً سحبته ووضعته أمامها، فتحته على صفحته الأولى؛ كانت بيضاء دون خدش.

راحت كفّها تبحث عن قلم تخطيطٍ فاصطدمت بحاجز، رفعت بصرها فوجدت أفعىً مبرقعةً بالأبيض والبنيّ تلتفّ على نفسها متطاولةً في وعاءٍ زجاجيّ مغمورةً بالفورمول، استرجعت سؤالها الأوّل في سنتها الجامعيّة الأولى: لمَ اعتبروها شعاراً للداء والعلاج؟ انسلّت الأفعى من السائل وراحت تنوس أمامها ثم تهبط متلوّيةً فوق زجاج المكتب والسائل يترك آثاره خلفها، تسلّقت كفّها وذراعها سارت نزولاً إلى بطنها ثم عاودت الصعود نحو صدرها ورقبتها حيث التفّت عليها، ضغطت قليلاً قبل أن تمدّ رأسها وتفحّ قرب أذنها بكلماتٍ لم تعِها تماماً، ثم رجعت من حيث أتت سالكةً نفس الدرب. «ما الذي همست به؟» لا يزال رنين

ألفاظها يتردّد في أذنيها من غير أن تفقه معناه . وجدت أصابعُها القلم أخيراً ، رفعت غطاءه ووضعته فوق صفحة الدفتر علّ الكلمات تنساب وحدها فتقرأها بعينيها . . . لكنّ القلم رسم قوساً علوياً ، هبط من طرفيه فعاودا الاتّصال من أسفل . رسمت عينين ضيّقتين وأنفاً ضخماً وشاربين ولحيةً كثّةً ثم أسدلت شعراً على الجبين الذي خطّت عليه ـ عبد الجبّار ـ وفي وسطه تماماً رسمت دائرةً صغيرة! «ما كلمة السرّ الآن؟» كان الجواب يرتسم وجهاً آخر على صفحةٍ جديدةٍ وكان اسمه ناصيف . تتالت الوجوه والصفحات . . . غانم ، نوّاف ، عادل ، حسين ، آمنة ، وسيم ، حسان ، وأخيراً رباب ، وعلى كلّ جبهةٍ اسم صاحبها ودائرةٌ تتوسّطها ! ! قلّبت الصفحات بنزقٍ وحدةٍ ثم انتزعتها جميعاً من الدفتر ، رمت القلم وألقت نظرةً مواربةً نحو الأفعى التي حدّقت ببلاهةٍ عبر الزجاج . استدارت واتّجهت نحو سريرها ، وصلته ثمّ رتّبت الوجوه إلى جانب بعضها متطلعةً إليها من علٍ وضوء القمر ينحدر عليها من النافذة المقابلة ملقياً بظلاله فوق الوجوه التي راحت تتّخذ تقاسيمها الحقيقيّة وسماتِ أصحابها بعدما اختفت أسماؤهم وسمات جباههم متحولةً إلى تضاريس تنطق بما يعتمل في نفوسهم وداخل جماجمهم .

كان وجهها هو الأوّل مصادفةً . تحركت الشفتان المزمومتان كأنّما تخاطبانها :

ـ ما الذي يربطني بك أيتها الغجريّة الرعناء؟ أية صدفةٍ حمقاء جعلتنا نحمل نفس الاسم؟

ودّت لو تصفع الوجه لتخرس الشفتين لكنّها تراجعت عن فعل ذلك ، «سيصدق قولها فيّ إذن ! »

ـ ما الذي لا يعجبك فيّ يا حاملة اسمي وشبيهة وجهي؟

تردّد الوجه قليلاً وارتسمت عليه معالم الحيرة، وما لبث أن انبسط:

ـ ليست المسألة إعجاباً أو عدم إعجاب، لكنّك تفشلين دوماً في أن تكوني ما تريدينه!

احتدّت رباب سريعاً:

ـ أأنتِ من يقول هذا؟ وكلّ ما فعلتُ وحققتُ وأنجزتُ، تعتبرينه لا شيء؟

تثاقل الوجه وأطرق.

ـ هكذا أنتِ دوماً، تسارعين بردّ فعلك منفعلةً حانقةً دونما سببٍ فلا تتبيّنين دلالة الكلام! لستُ أنكر كل ما صنعتِه، بل تفرّدتِ في تحقيقه، حاربتِ من أجل تحويله من حلمٍ إلى واقع، لكنّ المسألة تُطرح على النحو التالي: كيف يفيد صنيعك في موقعك الحالي؟ هل سيغيّر من كونك تقفين عزلاء مكشوفةً دون بدايةٍ ولا أفق نهايةٍ كأنّما تقفين على زلَجٍ دون دعامةٍ أو سند؟ هل تستطيعين الدفاع عن كلّ إنجازاتك؟

صمتت رباب وهي ترى في قول وجهها الكثير من الصواب دون أن تقرّ به علانيةً، أرادت أن تقول شيئاً ما عن ضرورة أن يفعل المرء ما يراه صحيحاً بغضّ النظر عن النتائج المرتقبة وو... لكنّ الوجه غاب وبقيت حلقةٌ صغيرةٌ تتوسّط جبهةً بدائيةً فجّة!

التفتت إلى وجه أبيها؛ كان معافىً ينضح حيويّةً ويفور صحّةً وقوّةً، لم يكن قد انكسر بعد ودخل دهاليز الذلّ:

ـ ما الذي تسعين له يا ابنة أبيك؟ فمن يسعى سعيك لا يأبه بالثمن الذي عليه أن يسدّده لقاء ذلك!

لاذت بالوشائج القديمة التي تخلّعت وكادت تصير مزقاً مجهولة الأصل.

ـ ولكنّي أحتكم إليك يا أبي!

اتّقد الوجه جمرةً دون شرر:

ـ ومن أنا حتى تحتكمي إليّ؟ عليك أن تحتكمي إلى نفسك مثلما أفعل أنا ومثلما علّمتك كيما تكوني أنتِ نفسك! اتّخذي قرارك واندفعي نحوه دون ترددٍ أو استباقٍ لندامة.

ألحّت وقد تلهّفت الجواب:

ـ لكنّكَ قيدي قبل أن تكون حريتي!

صرخ بأعلى صوته:

ـ اختاري إذن أن تكوني أمَةً أو طليقة!

ابترد الجمر وعاد فحماً أسود متناثراً على شكل لطخاتٍ وخطوطٍ تشكّل خربشاتٍ ميتةً اسمها عبد الجبّار... أمسكت صدغيها ورأسها تكاد تتصدّع وراحت تضغط براحتيها عليهما.. «لِمَ يحمّلني ما لا أطيق حمله؟ أجبني أيّها الوجه الباغي وإن أثارتك لجاجتي فأخرج سوطك وأهِلْه على جسدي علّي أتلهّى بآلام حزّه لجلدي وعضلاتي وأنسى في غمغمات وتأوهات أعصابي المرتجفة».

كان ثمّة ما يمور في باطنها ويتدافع باحثاً عن منافذ يبدّد عبرها هيجاناته المتفلّتة وقد تسلّق عينيها ومنخريها وفمها بينما كان يضجّ في أذنيها صوت انهداماتٍ تحدث دون أن تعرف أين!

وخلال الضجيج الذي أصمّها سمعت صوتاً خافتاً يصيح هامساً:

ـ رباب... رباب!

التفتت فأبصرت وجه أمها يستيقظ بعد نومةٍ طويلةٍ دون أن تبدو عليه آثار النوم. زال شيب شعرها وعاد فاحماً يلتمع على وهج جبينها القمريّ الذي يحتضن عقدةً صغيرةً لا تبين بين حاجبيها؛ خطّان صغيران قائمان يُظهران شدّة مراسها وعزمها وتصميمٍ لا ينثني. وتحت حاجبيها الأزجّين تلتمع مقلتان نسي الليل فيهما التماعات شُهُبِه؛ فتيّتان وحشيّتان في إقدامهما ونهمهما، كأنهما ما عرفتا زواجاً بعدُ وما انساقتا إلى خنوعٍ وتبعيّة. وبعيد السفح السهل لأنفها تنهض هضبتان صغيرتان ترتعشان فوق كهفين لا يشبعان الهواء، تتراخى الشفتان الرقيقتان فيتّضح الهمس.

ـ ما الذي تبتغينه يا أمي وقد استعدتِ وجهك القديم الذي فقدتِه للأبد؟ لن يغرّني ذلك فأنا أعرف إلامَ استحال وعلى أيّة هيئةٍ استقر! لن أقبل أن توحي بقوةٍ وصلابةٍ تتمترس وراء وجهكِ الذي نالت منه الأيام فتركته بقايا حطام! ولن تنالي مني بتلك الطريقة الماكرة، فأنا لا أرتضيها لك مثلما كرهتُ ذلّ خنوعك الدائم.

ضحك الوجه فبانت غمّازتان بهيّتان فوق كل وجنةٍ ضرّجها دم الحياء أو الغبطة. «ما أجملها!» هتفت رباب في سريرتها، فقالت الشفتان بصوتٍ جليٍّ وصافٍ:

ـ لا عليك يا رباب، لن أقول يا ابنتي، كيما أكون أقرب إليك وكيما تفهميني بوضوحٍ وحيادٍ أكثر، دون تصورٍ مسبقٍ كما فعلتِ منذ قليل! لقد كنتِ دوماً عجولةً تريدين مسابقة الزمن مثلما تسابقين نفسك كأنك تخشين أن يسبقك فلا تستطيعين اللّحاق به وتذعنين للمضيّ في ركابه. ما من خديعة! أريدكِ أن تبصريني كما أنا، وليس كما كنتُ وحسب ـ مثلما خلْتِ ـ فبصمات الزمن الملقاة بإهمالٍ على وجهي وبدني ليست سوى سطحٍ لا يشفّ عن روحي.

لم تطمئن رباب للقول. «ستأتيني من نافذةٍ أخرى ثم تعيد نصائحها لتدفعني للانصياع، يا ابنتي أنا أمّك، أعرف خيراً منك. لقد خبِرتُهم

جميعاً زمناً طويلاً، تحدّيتهم، جابهتهم، لكنّي دفعت ثمن ذلك غالياً جداً فقد استحلتُ عدوةً دائمة لهم يخشونها، ومن خشيتهم يسومونها سوء العذاب. ولكن ثمّة جديدٌ في قولها، لِمَ أصدّها؟ ألا أصغي لادّعاء جديدها؟» حدّقت بها:

ـ إنّي أصغي يا أمّ، أقصد يا آمنة، سأجاريك وأنصت إليك إنصاتي لصديقة، لكنّني أرجوكِ، لا تعيدي على مسامعي ما بقيتِ ترددينه طويلاً.

ضحكت آمنة من جديدٍ فعادت أكثر فتوةً وصبى. قالت جذلى:

ـ ليس ثمّة الكثير يا رباب، أردت أن أخبرك دون قولٍ حتى، انظري كيف كنتُ، وإلام صرتُ، وفكّري. لا تطرقي الدرب نفسه إن كنت لا ترغبين موتاً في الحياة وحصاداً أقلُّه الخسران!!

ذوى الوجه، تراكمت عليه الغضون وجفّت نضارة الحياة من عينيه وسربل الشيب شعره ومضى غيمةً تجمّعت فجأةً ثم بدّدتها ريحٌ غادرةٌ فما بان لها أثر. «يا آمنة، أمي!!» انفطر قلب رباب. لطالما ظلمت أمّها ولطالما ندمت دون أن ترعوِ.

ضاقت روحها بإهابها وما استطاعت خروجاً، فراحت أوصال جسدها ترتعد، «لِمَ يحدث ذلك كلّه، لم؟» نبّهتها طلقةٌ متفرّدةٌ صفرت وراءها أخرى فازداد ترقّبها، «دور من الآن؟»

كان الرسم الممسوح يعلن دور ناصيف، لكنّ وجهه الاعتياديّ لم يظهر. تناهى إليها صليل سلاسل تتخلّله آهاتٌ خافتة ووقع أقدامٍ باهتٌ يوحي صداه بثقل الأحمال التي تجرّها أو ترفعها فوق كواهلها. «صوت من هذا؟» أوجفت وهي تصيخ منتظرةً ظهور تفاصيل الوجه دون جدوى. كان ثمّة جمجمةٌ يتدفق دمٌ مسودٌّ من محجريها وهيكلٌ بشريٌّ غير واضحٍ يناضل للخروج من الفكّين المطبقين نصف إطباقةٍ وللخلاص من أسر

الأسنان اللامعة. «هكذا إذن يا ناصيف! ستبقى العينَ اليقظة الساهرة التي تعدّ خططها ليلاً وتهيئ سبل نجاحها قبل أن تسلّمها للأيدي التي ستقوم بتنفيذها نيابةً عنك. أهو دمي الذي ينثال من محجريك؟ أأنا التي تكافح للخروج من شرك أنيابك؟!»

ضاقت ذرعاً وكادت تعفّ عن متابعة تصفّح باقي الوجوه لولا أنّ عادلاً أهاب بها بعينيه الحالمتين ووجهه الشاحب المتعب كأنما لا يجد متّسعاً للنوم فيتابع أحلامه خلال يقظته:

ـ ارحلي يا رباب! امضي بعيداً، أسّسي حياتك من جديد، حاولي أن تبدئي دون ماضٍ لا يمكن أن يكون إلا غلاً ترسفين داخله.

ـ لكن، لِمَ لا تقول ذلك يا عادل بلسانك؟ من تخشى؟ ألستَ رجلاً غير خاضعٍ وقوّاماً مع القوّامين؟ هل تخاف تهمة تحريضي أو التغرير بي؟

ارتعش الوجه وتقلّص وجعاً فقالت الشفتان:

ـ لا، ولكنّي لا أريد أن أكون شاهد قتلك!

قفزت عيناها دون ترددٍ إلى وجه نوّاف، امتلأ لحماً واستدار فبدت عيناه الغائمتان شاهداً على ما أضاعه وفقده إلى الأبد! نظرةٌ هائمةٌ لكائنٍ لم يعتد التفكير أو لم يأبه به، هتفت الشفتان الغليظتان وقد استوليتا على الوجه كلّه بصوتٍ أجشّ ونبرٍ شديد:

ـ انتظرتك طويلاً يا رباب... تركوا لك الحبل على الغارب، من غير أن أجرؤ على تنبيههم لخطأ ذلك وخطره، حقِدتُ على خروجك عن إهاب أمك واعتدادك بنفسك، لكنّ أحداً لم يأذن لي بإيقافك عند حدّك وليت أحدهم فعل، إذن لكنتِ الآن بقرةً وديعةً ترعى عجولها ولا تثير جلبةً لا يقدر عليها إلاّ ثورٌ أصيل. اقتربت ساعتك وليتها تكون كما أشتهي وأتمنى!

أشفقتْ عليه، «كم هي المسافة ضئيلةٌ بين البشر والبهائم؟ أيّة روحٍ نُفخت في هذا الطين الخام وإلى أي أصلٍ تنتمي؟» لم يثر تهديدُه خوفها بقدر ما استثار اشمئزازها. «أيّ كائنٍ أخي هذا؟ ألا تحركه صرخة بابا التي يطلقها أحد أطفاله؟ ألا يسأل نفسه مرةً واحدةً على الأقل، لمَ خُلق على تلك الصورة؟ ولمَ يتحاشى استخدام عقله ليسأل أو يفكر؟» ما عادت تهتم لسكّينه التي ستوضع في كفّه وتُدفع قسراً لتنحر عنقها قدر اهتمامها بأطفاله، «أيّ قدرٍ ينتظرهم وعلى أيّة صورةٍ وهيئة سيكونون؟»

حزيناً بائساً بدا وجه حسين الطفوليّ وقد برزت لحيته شوكاً على تربة وجهه الملفوحة من غير أن يخفي إباءً أطلّ من عينيه:

ـ دفعتُ ثمناً غالياً لتمرّدي وكسر قيدي، لو تعلّق الأمر بي وحدي لكنت سعيداً وهان الأمر، لكنّ الأسى يعتصرني لأنّني جعلتُ أطفالي وزينب يسدّدون جزءاً غير يسيرٍ من حسابي الخاصّ. لست نادماً في كلّ الأحوال، لكنّ تركي لهم ومعرفتي أنهم سيهيمون في الشوارع والطرقات يفترس روحي وينهش أحشائي. سيدفعني ذلك كلّه إلى الجنون!

ودّت في تلك اللحظة لو تعانقه وتبكي على كتفيه:

ـ لا تحزن يا حسين. ستعود إليهم قريباً ولا يمكن لأبيك أن يتخلّى عنهم، هم لحمه ودمه أيضاً!

هز رأسه يائساً:

ـ انسي أباكِ يا رباب، أعلم أنّه رغم جبروته يحمل بين جوانحه قلباً رؤوماً، ولكن هل بمستطاعه الآن أن يفعل أكثر مما تفعله عكّازتاه؟ المشكلة في ناصيف يا رباب، وناصيف... ماذا أقول؟ أنتِ خير من

يعرفه، لا أستطيع مساعدتك فسامحيني يا أختاه. ولكن من لي غيرك؟ وصيّتك الأطفال وأمّهم، أودِعهم أمانةً لديك!

تبدّد الوجه سريعاً واستحال خطوطاً غير منتظمةٍ تداور كي تخفي معالمها، جرحاً ينتفض كقلبٍ مكشوفٍ يقاتل ضدّ موته المحتوم، فتلتئم ضفتّاه وما تلبثان أن تنفغرا عن دفقة دمٍ تنتثر في الجهات... لم تطاوعها عيناها على خذلانه وتركه ولم تتمكّنا من متابعة تلقّي رشقات الدم فانتقلتا مرغمتين إلى اسم غانم...

بقي الاسم وشماً على جبينٍ ضاع حتى اتّصل حاجباه ببدايات شعره وقفزت تحتهما ضفدعتان صفراوان ظلّتا عالقتين بخيوطٍ كثيفةٍ من المخاط لم تتح لهما فرصة الهرب. استحال الوجه إلى حرباء تأخذ ألف لونٍ وشكل، يشقّها فمٌ استبدلت أسنانه بقوسين غضروفيين تراقص بينهما وخارجهما لسانٌ ضيقٌ طويلٌ ولزجٌ ينتظر فريسته:

ـ هيّأتُ لكِ وجاراً يليق بمكانتك ويتّسع لجرائك الصغيرة. ستكون هديّةُ عرسك لجاماً حديداً يغطي فمك إلى الأبد كيلا تفكّري بعقري أبداً وسلسلةً أقصر من قامتك لتنسي أنّ لكِ عينين تريان أبعد من أنفك!

كادت تمزّق الورقة وقد امتدّت يدها إليها فاختفى الوجه المشوّه واستعاد ملامحه الاعتيادية:

ـ ما بالك يا رباب، أنا ابن عمّك أيضاً! صحيحٌ أنّني دونك في كلّ شيء، ولكنّي رجل، رجلٌ حقيقيّ! يعرف كيف يرضيكِ ويحميك ويؤمّن كلّ متطلّباتك. لا تلوميني، فأنا لم أفكّر حتّى في طلب يدك، لكنّ ناصيف اصطفاك لي وهو يعلم أنّني غير أهلٍ لك. ربّما رغب في التخلّص من ورطته، ربما أراد التخلّص منك. لا أعرف، ولو أنّي لا

أطمئنّ لأفعاله، ففي وجهه لا تجدين ولا تتبيّنين شيئاً مما يدور في خلده. المهمّ ألا تحقدي عليّ فليس لي ذنبٌ في كل ما حدث ولا يسعني إلا أن أعد بإسعادك.

لم تتمالك نفسها ولم تنتظر أن يختفي من تلقاء نفسه فأشاحت عنه وقد أسقمتها استكانته أكثر مما أغضبها لؤمه، وتاقت لمن يدفعه بعيداً عنها. «هل هو حسّان؟» لاقت عيناه عينيها كأنّما انتظر مستعداً للقائها!

شعرٌ أشقر طويلٌ مردودٌ إلى الخلف، جبينٌ منبسطٌ لا تعوق انحداراته أيّة تجاعيد أو خطوط، أنفٌ أقنى ينتهي إلى شفتين باسمتين دون تكلّفٍ ومن غير تكبّد عناء تغيير ملامح الوجه ليبدو فرِحاً، تؤطّر وجهَه المستطيل ذقنٌ عريضة ملمحاً وحيداً للخشونة على وجهٍ حلو التقاطيع أضفت العينان السماويّتان مزيداً من الملاحة عليه:

ـ انتظرتكِ طويلاً يا رباب واشتقت إليك! أطلتِ غيبتك، هل ستدعينني أنتظر أكثر؟

لم يكن ردّ فعلها طبيعياً، فقد حافظ وجهها على ملامحه الصارمة التي تشوبها حيرة البحث وخشية الضياع. لم تردّ على ابتسامته بالمثل كأنّها لا تجهله أو تعرِضُ عنه، كأنّها لم تختره من بين كثيرين، وهاهي الآن تلاقي تلهفّه ببرودٍ يتنكّر للمودّة وللعشق الموعود:

ـ حسّان، كيف سمحتَ لنفسك؟ تتركني وحيدةً عزلاء أواجه ليس قدري وحسب بل قدرنا المشترك! لربّما تفهّمتُ عدم اكتراثك بي، أفلا تهتمّ لكوني سأصير لغيرك؟ لا تقل إنّك لا تعرف فتجاهلك السابق لن يغفر لك، لقد أتت راوية وهي تعرف كلّ شيء وهي التي تعهّدت بإرسالك وارتأت ضرورة تواجدك. راوية لا تكذب أبداً ولا تتخلّف أو تتقاعس، إيّاك أن تلقي اللوم عليها!

حافظ الوجه على تبسّطه كأنّما يجده فخّاً يوقع به من يشاء.

ـ لن أفعل ذلك يا رباب، ولن أبرّر امتناعي عن مساندتك كما رغبتِ بقدر ما سأخبرك بحقيقة ثقتي بك، وبقدرتكِ على تجاوز كلّ العقبات دون عوني ومساعدتي!

تملّقها الوجه مداهناً لكنّه لم يستطع خداعها، فقد تعرّت بشاعة تخلّيه عنها وخذلانها حين احتاجته.

ـ هكذا إذن يا حسّان، سنرى ذلك ونناقشه في وقتٍ لاحق. ولكن قل لي الآن، هل ستقف معي لنخلق علانيةً حياةً مشتركةً لكلينا إن استطعتُ التملّص بأعجوبةٍ ما من هذا الوضع؟

ضحك الوجه:

ـ تخلّصي يا رباب سريعاً، أنا بانتظارك... أنا بانتظارك!!

استبدل الاسم صفاتِه بنقائضها على الوجه الغرائبيّ الذي لم يحتفظ على جبهته إلا باسم صاحبه ووسمه. أرادت أن يبقى قليلاً لتتبيّن إن كان ثمّة خطأٌ ما في اختيارها! غاب وبقي وجه.

طفلٌ لا يميز ذكورتَه إلا زغب عذاريه النابت كزغب أفراخ البط الناقفة حديثاً، ليس لأساه حدودٌ ولا لأمله بإنقاذ شقيقته سقف. ارتجفت شفته العليا وتفتّح منخراه كأنّه يقاوم إجهاشاً وشيكاً:

ـ أختاه، لِمَ نسيتني؟ ألست ابنَك كما أخبرتِني؟ أولستِ أمّي الصغيرة كما ناديتُكِ؟ لمَ جافيتني إذن؟ قولي فقط، اسألي ما ترينه وستنظرين كيف ألبّيك وأهبك عيني وروحي! اخلعي حزنك وافسحي لي متّسعاً لأحتمي بك وأذود عنك، لا تهمليني فليس في ذلك سوى قتلي!

اختفى الوجه قبل أن تقول شيئاً. نادته فلم يلبثْ! اعتصرت حنينها إليه وسكبته على الوجه الميت ليحيا فما استجاب، «وسيم... وسيم... وسيم!»

لكن الوقت دهمها وتراقصت على حدّه الذي سيقودها إلى حتفها أو خلاصها أو كليهما معاً!! وفي دورة الخراب التي بدأت تُحكِم التفافها عليها ترددت في ما تفعله، إلا أنّها مضت قدُماً، انحنت أكثر وأدارت بصرها بين الوجوه كأنّما تريد أن تباعد بينها وبين الهوّة التي تنتظر ابتلاع ضحاياها!

سحبت وجه أمّها أولاً، ثم وسيم وحسين، أبعدتها وهي تعاود البحث، ترددت أمام وجه عادل. . . سحبته أيضاً وضمّته لمجموعة الناجين. تريثت عند نوّاف، هو الأداة الأكثر خطراً والتي تستعدّ لتكون جزّارها، هل تخرجه من الجحيم الذي ستكتوي وتتلظّى في مجاهله أم تدفعه أمامها ليكون دليلها وشاهدها؟ لكنّ إشفاقها تغلّب عليها! سحبت وجهه وسارعت لإلقائه فوق المجموعة التي تستمهل لتُدفع إلى مطهرٍ يبعدها عن الجحيم مؤقتاً وربما يجعلها تأمل بورود فردوس النعيم كي تحسم ترددها ولا تفكّر ثانيةً بإرجاعه إلى الموضع الذي يفترض أن يكون فيه.

أمام ساحة إبصارها تضع وجهي ناصيف وغانم وتحتهما مباشرةً وجهها، وجه عبد الجبّار، ووجه حسّان. تداهمها قوة النزَع فتهبّ واقفةً تركض صوب مكتبها وتفتش بجنونٍ أدراجه حتى تجد ضالّتها المنشودة التي تبتر الأزمنة وتختصر المسافات!

توجّه مصباح مكتبها نحو السرير فتظهر الوجوه واضحةً جليّةً تنتظر بوجلٍ مصيرها الوشيك. يتطلّع القمر بفضولٍ مرتابٍ للغجرية التي أصابتها لوثة حضوره وتمتمته منتظراً ذروة الأزمة وتفجراتها! بينما تتقدّم هي بخطىً هادئةٍ وقد توتّرت عضلاتها وانعكس ضوء القمر على نصلٍ يلتمع في كفّها اليمنى فانتشى وكادت عيناه تغشيان من إبهار البرق المرتدّ على طرف ساعدٍ اتّخذ هيكله وضعاً قتالياً متحفزاً. يختفي وجهها بعد

أن قاطع نور المصباح، وكان أعلى من شعاعات القمر التي سالت على كفّيها وجذعها . . . تنحني ثم تجثو على ركبتيها وتتأمّل الوجوه الباقية على ضوء المصباح المجانِب والساقط فوق كتفها اليمنى مظهراً صفحة وجهها؛ بدا رأسٌ شُطر نصفه الأيمن دون أن يتوقّف عن الحياة. ترفع وجهها وتضعه قرب وجه حسّان. تعاودها أحلامٌ قديمةٌ؛ عشقٌ على أرجوحةٍ حبالها شعاعات شمسٍ تأرجحت فوق عشبٍ أخضر يانع. تداعب الوجه برقّةٍ وخشية، «ربما ظلمته، وربما كان محقاً!» تحاول مساعدته فتنجح. تسحب الوجه وتضعه برفقٍ فوق المجموعة السابقة. يتردّد النصل اللامع وهو يحوم فوق الوجوه الأربعة ثم يخترق بحسمٍ وسرعةٍ جباهاً ثلاثاً؛ ناصيف وغانم ورباب! يدور ويدور فوق وجه عبد الجبّار كأنّما يُمهِل الوجه ليبتعد متفادياً طعنةً ستنقضّ لا محالة! لكن الأوان قد فات! فتخترق الطعنة الدائرة التي تتوسّط الجبين، تشهق رباب، تُخرِس صرخةً كادت تمزّق حنجرتها وتودّ لو انغرس النصل في قلبها. لكنّها تجهش بالبكاء . . . تنكبّ على الوجه الذي اتسعت حدقتاه دهشةً واستنكاراً دون أن يبدي ملمح رعبٍ أو ألم!

يصيح ديكٌ فيصل صداه خافتاً وقد أخرسته طلقةٌ وحيدةٌ بدت خلّبيّة!! تنهض رباب من كبوتها، تمزّق الأوراق فتحيلها نتفاً ترميها من النافذة لتتناثر في الليل والسكون. تعود، تعيد النصل إلى موضعه، تصلح وضع عصبتها وهي تمسح المكان بنظرةٍ شاملة كأنما تودّعه وهي ترتجف فرَقاً. تطفئ المصباح فتمتصّها العتمة وقد نأى القمر!!!

غادرت غرفتها وأشهدت الجبال القصيّة والهضاب التي كشفها آخر ضوءٍ للقمر أنّها لن ترضخ ولن تستسلم. ليس ثمّة إلا الموت أو الفرار. هبطت يداعبها أملٌ وحيد، فقط لو يصغي إليها وهما وحيدان! هو

الذي سيمنحها الفرصة الضائعة ومنه ستستمدّ العزيمة أيضاً لتقبل الذبح برضىً أو لتطلق جنحيها لريحٍ مواتية! أو أنه سيجترح المعجزة الشاقة التي ستنقذهما معاً! تقدّمت خطوةً وتراجعت خطواتٍ فاستحالت المسافة التي تفصلها عنه أبعاداً شاسعةً لا تحدّها الأبصار.

«ما الذي ستفعلينه يا رباب؟ هل تريدين إلقاء نفسك في التهلكة وتستعجلين ذلك؟ ما من فائدةٍ تُرجى في كلّ ما تفعلينه، ارجعي إلى صوابك وفكري بهدوء. ثمّة أمل. لا يمكن أن يخذلني وأنا التي ما خذلته يوماً، سيستفيق ويتذكّر أنّ هنالك ما لا يمكن فصمه بيننا، وسيرى في لحظة الصحو أنّ رحيلي يعني ويطابق رحيله هو! إذن جرّبي. ولكن أحكمي شدّ عصبتك علّها تمنع ما سيخترق جمجمتك!»

لكنّ هبوب اشتمت رائحة شقيقتها فنادتها. انعطفت رباب مذهولةً نحوها، فتحت بابها فوجدتها بانتظارها. «أنسيت وعدك؟» ودون عناقٍ أمسكت رسنها ومشت أمامها بعد أن أوصتها أن تبقى صامتة، وصلت البوابة، فتحتها. حالما أحسّت هبوب بسِعة الفضاء الذي يترقّب انطلاقتها حمحمت بخفوتٍ وراحت ترتعش وتتوثّب وهي تعبّ الهواء وقد تراقصت طرباً فاشرأبّ رأسها وانتصبت أذناها وشعر عرفها وتوتّر قوس ذيلها وما عادت قوائمها تستقرّ. استدارت نحو رباب، وضعت عنقها على كتفها وراحت تتمسّح بها فعانقتها رباب:

- هيا يا هبوب، فلكِ السهوب وجبالك القديمة.

لكن المهرة تلكأت مهمهمةً:

- امتطي صهوتي، لن أرحل دونك، وتلك الفضاءات التي تدعونا تتّسع لنا معاً!

ضغطت رباب عنق المهرة بحنوّ:

ـ لا أستطيع يا هبوب، لا أستطيع. عليكِ أن تفعليها وحدك، عني . . . وعنك!»

حرنت المهرة ففكّت رباب رسنها وأدارتها، أفلتت عنقها، تراجعت قليلاً وربّتت بقوةٍ على كفلها فانطلقت المهرة تخبّ دون أن تجرؤ على الصهيل . . . وبعد حينٍ أتى صهيلها يجرح الهواء وينزف وداعه الأخير!!

عادت وهي تمسّ الأرض بقدميها العاريتين مسّاً رقيقاً كأنما فقدت وزنها، أوقفتها وخزةٌ شديدةٌ في باطن قدمها، رفعتها وتلمّستها براحتها، اكتشفت جرحاً لم تأبه به، لكنّها بسطت راحتها أمام وجهها فتوقفت خائرةً مبهوتةً أمام دمها.

«أصرتِ تخافين الدم يا رباب، هل أرعبتكِ قطراتٌ قليلة؟ ما الذي ستفعلينه أمام شلاّله الذي سيغمرك وأنت تختنقين داخله؟»

لم تعِ السؤال، لكنّ فزعها كان الجواب! تسلّقت تلعة المصطبة ولم تقف إلا أمام أبيها، حاميها وقاتلها، لاهثةً مشوّشةً فاقدة الاتجاهات، عييّةً عن الكلام عاجزةً عن التفكير. «ما الذي تفعلينه هنا يا رباب؟ ما الذي تبغينه أو تترصّدينه أو تنتظرينه؟» تلفّتت حولها باحثةً عن مصدر الصوت، لكنّ السكينة كانت تلفّ المكان، والجسدُ المحطّم مستلقٍ بفوضىً لا يصدر عنه إلا غطيطٌ خافت، صدىً لتنفسه العميق الذي عزله عن كل ما يحيط به.

تتقدّم بخطى حذرةٍ بطيئة، تجثو قربه، يتردّد في أذنيها صدى نباح بنات آوى تعوي بعيداً. طرق كأنما تؤدّي صلاتها الأخيرة، تتلو تعاويذها على صفحة وجهه المتجهّم ويقع بصرها على مسدسه ملقىً بإهمالٍ قرب فراشه، تمدّ يدها تريد إيقاظه لكنّ يدها اليمنى تلتقط المسدس وترقب الوجه العجوز

الساكن، يهوي ساعدها الأيسر فوق حجرها بينما يتّجه المسدس نحو صدغها فتتقلّص تقاطيع وجهها وتعضّ على شفتها، تنفتح عيناها على سعتهما، تتراخى التقاطيع ثم تعاود الانقباض. وفجأةً تنتزع الفوهة الباردة عن صدغها وتغرسها وسط جبهتها، تميل برأسها وتلقي بثقله على الفوهة، تبقى ثوانٍ ثم توجّهها وقد التمعت عيناها ببرق أزرق نحو الوجه النائم. تتمتم كأنّما تتلو صلاةً أو تعدّ عداً تنازلياً، تغمض عينيها ظانّةً أنّها ستطلق، لكنّها تتوقّف. . تفتحهما متلفتةً حولها فتجد وسادةً مرميّةً ترفعها بيسراها وتسندها إلى الوجه بسرعةٍ وقد وضعت حافّتها على حافّة الجبهة تضع فوهة الماسورة السوداء في مركز الجبين فوق الوسادة تعاود إغماض عينيها وتطلق. تجفل مع انفجار الطلقة وترتعد فرائصها كأنّها غافلتها! يعلو الآذان فترنو إلى القمر ولا تجده، تحاول رفع الوسادة فلا تطاوعها كفّها، تمدّ يسراها تحتها وتخرجها مخضبةً بدماءٍ حارّة، «اختلط دمُنا وعاد كما كان!» تندفع متعثّرةً تكاد تتدحرج في كلّ خطوة، وحالما تعبر البوابة تركض بأقصى سرعتها دون وجهة، ودون هدف!!!

وعلى نفس الآذان وتحت شمسٍ ملتهبة تقاصرت ظلالها حتى كادت تختفي، اجتمع أهل القتيل في مدفن البلدة.

هبط ناصيف الحفرة وغاب في غياهب اللحد متلقيّاً رأس الجسد الذي صبّ جام غضبه عليه منذ يومين والذي تصلّب الآن وانتفخ وكاد يمزّق الأربطة الزرقاء والحمراء التي تلفّه بعدما لقنّهُ شيخ البلدة ما يتوجّب عليه قولُه لدى مثوله للإدلاء بشهادته أمام ملَك الموت وكيف عليه أن يجيب على أسئلته بدقّةٍ كيما يخفّف عنه عذابات قبره وويلاته. . . كان صدى الكلمات يتردّد في أذنيه وهو يكظم غيظه غافلاً مسح عرقٍ نضح حتى غطّى جسمه. أسند الرأس على بلاطةٍ صغيرة وأمال الجسد على جانبه الأيمن قليلاً ثمّ حاذاه، راغباً عن وداع الوجه الذي مضى بغير رجعةٍ،

واندفع من الفوهة التي نزل منها .

وقف بجانب عادل ونوآف ووسيم والأقارب وشيوخ البلدة بينما راح حفّار القبور يهيل التراب على الملحود قبل أن يثبّت البلاطة التي ستغلق الفوهة وتدخِل عبدَ الجبّار عالَمَ النسيان ومدائن المجهول . وتحت عيونٍ تشتعل غضباً وطلباً للثأر ووجوهٍ كظيمةٍ كالحة ، عضّ ناصيف على نواجذه وتمتم وهو يرمق عادلاً بحقدٍ أعمى :

ـ ستلحقين به سريعاً ، ولن يكفي دمك لغسل إثمك وعارنا !

تقدّم الجميع من الإخوة يقدّمون العزاء ويذكّرون بمناقب الفقيد ، يستغفرون له ويطلبون له الرحمة وحسن المثوى ويشدّون على الأكفّ الممدودة بقوةٍ وعنفٍ كأنّما يذكّرون بدمه المطلول ويستعجلون الاقتصاص من قاتله !

وعلى وقع الخطى المترفّقة ارتفع نواح العجائز وندبهم المرير .





كأنّها تتذكّر أو تحاول ألاّ تنسى! كثبانٌ من العتمة في الأجواء والعينين والقلب، والروحُ طائرٌ ليليٌّ دخل متاهاتٍ متقاطعةً من الضوء فأطبقتْ عليه وراح يرفرف دون هدىً ويحوم دون اتجاهٍ يلاحقها لهاثُه وقد كادت رئتاه تتفجّران احتياجَ الهواء وفقدانه. شيءٌ من أطيافٍ ملوّنةٍ تسطع كبروقٍ ناريّةٍ تأتي في لحظاتٍ غير متوقّعة تارةً تنشقّ عنها رقعةٌ من السماء فتحمي العين وطوراً تقذفها ثقوبٌ في الأرض فتطفو مندفعةً كمهلٍ بركانيةٍ تسدّ الطرق أمامها تقاربها فتكاد ترفع ساقيها قافزةً خشية مرورها تحت قدميها... طافت عيناها السماءَ فلمحتْ أو خيّل لها شبحٌ مستدير الوجهِ فضيّ اللون لا يُبدي وجهُه إلاّ ابتسامة رضىً كأنّما حقّق مبتغاه وراح يفرك يديه سروراً بصنيعهما، فانكسرتا متحطّمتين على هياكل معابد مندثرةٍ تجمّعت كتلاً سوداء صمّاء تزيد أوجاعها.

ادلهمّ الليل عليها، مع أنّ السماء تنقشع ويتعالى في تضاعيفها رذاذٌ غبشيٌّ يبدّد العتمة أو يكاد يمتصّها أو يغطّيها، لكنّها كانت تحمل حلكتَها الخاصّة وهي تتحسّس جسماً صلباً بارداً تقلّصت أصابع يمناها عليه فلا يستطيع فكاكاً أو إفلاتاً... رائحةٌ تَفغَم أنفها كأنّما حُشرت به جاعلةً من تنفّسها عمليةً صعبةً وغير مجدية.

من أين أتاها ذلك كلُّه؟ أيّة كوابيس تداهم يقظتها فتجعلها تضيع المسافة بين الحقيقة والوهم؟ تتلفّت حولها فتصدم عينيها جدرانٌ منخفضةٌ اقتربت منها حتى كادت تطبق عليها، بقي السقف بعيداً يواصل بثّ إشعاعاته الباهتة المصفرّة من مصباحٍ كلُح زجاجُه فاخترقه النور وقد فقد بريقه ووهجه، خبا كأنّما اخترق مئات الأعوام وتوالت عليه آلاف الفصول. تمدّ يديها متلمّسةً الجدران فتحسّ عريها وقد تجعّدت كأنّما هرمت قبل الأوان... «أين أنت الآن يا رباب؟ هل هو الحلم الذي رأيتِه منذ زمنٍ بعيدٍ يعاود ولوج نومك؟ استيقظي إذن لتري إن كان ثمّة ضوءٌ للشمس أو ليلٌ حقيقيٌ!»

كانت رباب تسترجع حالةً من التكوّنات البدئيّة التي ينفصل فيها الوعي عن مكوّناته ووسائط تشكيله. كم مضى عليها هنا وكم بقي؟ وهل هي موجودةٌ هنا فعلاً في هذا المكان الموحش الذي افتقدت فيه مشهدَ وجهٍ بشريٍ منذ زمنٍ لا تدريه؟ وكيف تستطيع تحديد ذلك الزمن إن كانت فقدت صلتها بدورة الأرض واختفت الشمس مثلما فعل القمر؟ «إن كان حلماً فأين توقّفت اليقظة وما هي آخر علاماتها؟»

كان آخر ما أحسّته وخزٌ شديدٌ في باطني قدميها، استلّها الإحساس من غيبوبتها وركضها العشوائيّ الذي اكتشفت فيما بعد أنّه لم يكن كذلك أبداً، «لِمَ أركض حافية القدمين؟» لم تستطع الحجارة المدبّبة ولا الحصى ولا حبّات الرمل ولا حتّى إسفلت الطريق الذي خفّف أذى الأشواك أن تجيب على سؤالها حتّى وصلت مبنىً أحاطت به البنادق جيّداً، اندفعت داخله وقد أذهل منظرُها الحرّاس فما جرؤوا على إيقافها!

ـ قتلتُ أبي!

رمت المسدس أمامهم وكفّها المضرّجة في وجوههم...

ـ لِمَ أيتها المجنونة؟

دخلت رباب صمتَها، أغلقت الأبواب وأحكمت إرتجاها على آخر كلماتها:

ـ سيلحقون بي. . ويقتلونني!!

أربك الموقف عناصر الشرطة، كان هنالك ما لا يمكن الوقوف في وجهه ولا يمكن حتّى للحصار المفروض على البلدة أن يمنعه. أجرى رئيسهم اتّصالين، وعلى وجه السرعة اقتيدت رباب مخفورةً إلى المدينة نحو مركزٍ آمنٍ ومحصّن!

وحالما أُغلق الباب الحديديّ وقعقعت مفاتيحه تنفّست الصعداء، اقتعدت الأرض. ما كانت بحاجةٍ إلا لغسل يديها لتنعم بنومٍ عميق. . لكنّ النوم لم يأت. . واليقظة استحالت ضبابةً حمراء عابقةً بالرطوبة والهواء الفاسد، مضاءةً باحتراق كبريتٍ أصفر يضخّ مزيداً من الضباب الكثيف، واخز الرائحة يحرق العينين ويجرح الحنجرة والرئتين!

توقّف الزمن، وحين فشلت في تعيين المكان فكّرت أن تنظر إلى ساعتها وبشكلٍ آليّ رفعت رسغها فتحركت الرائحة واقتربت أكثر من أنفها فلم تتمكّن من خفض عينيها لمعرفة اتجاهات عقارب الساعة، «عليّ أن أتخلّص منها فما عدت أحتاجها. ومتى احتجتها؟ ما الذي شكّلته عقارب الزمن بالنسبة لي؟ غروبٌ يؤذِن بانقضاء يوم. . شروقٌ يُعلن بداية يوم. . تراكمُ أيّامٍ يليها تراكم سنواتٍ وقد انغلقت الدائرة عليها الآن! أكان ذلك تحصيل حاصل؟ لو أتخلّص من تلك الرائحة فقط، فهي تشلّ قدرتي على التفكير. . ليتك قربي يا أبي!!!» انتفضت وعاودتها الرعدة ضاقت بنفسها فانطبق المدى عليها، وقفت تريد الاندفاع للتخلّص من شيءٍ يلاحقها وسيقضي عليها إن أمسك بتلابيبها. «ما الذي

أوصلني إلى هذا المكان الضيّق؟ لقد كنت أركض وأركض . . ولا أريد ولا أستطيع التوقّف لكنّني كنت في مأمنٍ طالما كنت أتنفّس وأستطيع المضيّ بعيداً . » راحت تدور حول نفسها وقد مدّت يديها أمامها مسافةَ أمانٍ وحاجزاً يقيها انقضاض شيءٍ ما في أيّة لحظةٍ لا تدري من أين، من أمامها . . من خلفها . . من ميمنتها من ميسرتها . . من فوقها من تحتها! هو موجودٌ لا محالة وجاهزٌ للانقضاض في كلّ لحظةٍ لكن أين ومتى وكيف؟ ذلك ما جهلته تماماً .

وفي دورانها حول نفسها أطبقت الفوضى عليها فأضاعت حواسّها وراحت تتخبّط بالجدران الضيّقة والمتلاصقة . . ترتاح قليلاً في الزوايا وقد حمت ظهرها ومجنبتيها وركّزت انتباهها على الأمام والأعلى، حالما تلتقط أنفاسها تندفع مجدّداً وهي تردّد مع لهاثها : «ابتعد . . إن اقتربت ستكون نهايتك، لن تستطيع مغافلتي ومهاجمتي»، تطبق شفتيها كيلا ينطلق صراخها رغماً عنها . لكنّ الكائن الخفيّ لم يظهر أبداً رغم إعلان وجوده فقد انطلقت قهقهاتٌ صاخبةٌ أصمّت أذنيها وراحت تنهال عليها من كل الجهات وهي تصرخ بشراسةٍ ووحشيةٍ وتشفٍّ: قاتلة . . . قاتلة . . . قاتلة!

انهارت وقد أنهكتها الحرب غير المعلَنة بينها وبين شياطينها واضعةً راحتيها على أذنيها وقد شقّ الصراخ حلقها ومزّقه :

ـ لا . . . لا . . . لا!

فتح الحارس الباب وهو يلعنها في سريرته، «ابنة الحرام، تقتل أباها وتأتي هنا لتصرخ وتثير كلّ تلك الجلبة» .

ـ ما بكِ أيّتها العاهرة؟ هل ركبتك شياطينك أم أن حيضك أتاك قبل أوانه؟ و . . .

لم يكمل وقد لمحها مستلقيةً دون حراكٍ على جانبها وقد أطبقت راحتيها على رأسها وضمّت ركبتيها إلى بطنها كقنفذٍ دون أشواك، تقدّم نحوها وركلها بقدمه فلم تستجب، التفت نحو الباب ودسّ يده بين كفليها فلم تتحرك، أطفأ فزعُه اشتهاءه اللحظيّ الدنيء ومضى مهرولاً دون أن ينسى إغلاق الباب. عاد بعد لحظاتٍ مع رئيسه وعناصر أخرى، أنعشوها فاستيقظت غائمة العينين تائهةً تكاد تسأل أين أنا.

ـ أين دورة المياه؟

قادها أحدهم إليها، دفعها وبقي منتظراً، داهمتها الروائح الكريهة وكادت تفرغ عصارات أحشائها، تماسكت بل إنّها ارتاحت بعدما أبعدت عنها رائحة كفّها! غسلت يديها ووجهها وقدميها المليئتين بالخدوش والندوب وتذكّرت ساعتها فانتزعتها ورمتها في المرحاض وخرجت. دفعها الحارس أمامه إلى غرفةٍ صغيرةٍ جلس وراء مكتبٍ يواجه بابَها رجلٌ مكتنزٌ ينزّ وجهه لؤماً وكراهيةً وقد أضاع ملامحَه ترهُّلُ لحمِ وجهه، لكنّها انتبهت لعينيه الكابيتين اللتين تلتمعان بين الفينة والفينة. أخذ منها معلوماتٍ تتعلق بهويّتها، وحالما انتهى:

ـ انزعي حلقيك وسلسال رقبتك وإسوارتك وخاتمك و...

قالها ببطءٍ وعيناه تتنقلان على إيقاع صوته الرتيب من رأسها إلى قدميها، انتزعتها وقدمتها بآليّةٍ وهو يسجّل موجوداتها على ورقةٍ مستقلّة.

ـ هل معك شيءٌ آخر؟

أجابت برأسها أن لا، لكنه واصل تحديقه كأنّما ينتظر أن تُخرج شيئاً ما، ثم قام على مهلٍ وغافلها بصفعةٍ غادرةٍ أذهلتها عن انتزاعه لعصبتها بغضب، وسأل ناهراً:

ـ ما هذا إذن؟

رمى الجوربين الأسودين في وجهها وقال بعد أن تأكّد من سقوطهما أرضاً:

ـ اذهبي، سأراك قريباً!

قبض الحارس على زندها ودفعها بقسوةٍ أمامه، أعادها لزنزانتها ورماها بعنف:

ـ لا تستعجلي عذاباتك، ستأتيك سريعاً أيتها السافلة!

وقبل أن يطبق الباب ركل بقدمه نحوها رغيفاً عليه بضع حبات زيتون، وكوباً بلاستيكياً يحوي سائلاً بنيّاً فاتراً أصابها رشاشه في ظهرها. أتاها صوت الارتطام ليدخلها متاهاتٍ جديدة...

أراحها تخلُّصها من الرائحة واستطاعت للتوّ أن تنظر كفّيها معاً متعانقين وقد تداخلت أصابعهما... راح أصلا راحتيها يحتكّان على وقع حركة رسغيها. انزاحت أعباؤها إلى حينٍ كأنما كانت قيوداً تشابكت مع حليّها وعصبتها، «ليتهم يسمحون لي وليتني أستطيع أن أتخلّى عن ثوبي أيضاً!» أحسّت أنها اشتطّت فأمسكت براحتيها المضمومتين عنق ثوبها وشدّته إلى نحرها كأنما تخشى نزعه عنها...

كانت لا تزال مرميّةً على الأرض إثر الدفعة التي تلقّتها، ثقلُها مستقرٌ على فخذها الأيمن المطويّ وجذعُها منحنٍ ومائلٌ للأمام من غير أن يلامس الأرض. ما من أحدٍ ليرثيها، رغم أنها نعت نفسها!

على الأرض، تحت بصرها تماماً، بان لها رغم الضوء الشحيح وجه أمها ينتحب... استعادت وجهاً بعيداً وقديماً تبرق عيناه بشهوة الحياة، لكنّ العجوز استولت على الوجه وانطفأت العينان وخبا ومضهما. بقيت تحدّق في الوجه متوجسةً، «لقد جفّ دمع آمنة منذ زمنٍ طويل، ربّما بكت حين كانت عيناها مشعّتين، أمّا بعدما خمدتا فما عاد فيهما أيّ دمع،

جفتّا كتربةٍ جافاها المطر فأقحلت وحمَسَها نور الشمس حتّى تشقّقت . كيف تبكيان إذن؟

أفلتت ثوبها وفكّت اشتباك أصابعها وأطلقت كفّيها على الوجه البارز فوق سطح الأرض تحتهما . . . غار الوجه في باطنها حالما وصلتا إليه فاصطدمتا بقسوةٍ بصلابتها ، لكنّه واصل بكاءه وراح ماء الملح يغمره شيئاً فشيئاً فانتفض محاولاً إزاحة الماء المتراكم كيما يستنشق الهواء شاهقاً خشية اختناق قريب . . . وفي لهفتها وعدم فهمها لما يحدث بدأت تزيح بكفّيها ماءً سراباً وتنضحه بعيداً عن وجه أمّها ، وكلّما أفرغت كميّةً منه عاودت العينان الذرف فأعاقتا النزح المتواصل . أحسّت دفء الماء ولم يمسسها البلل ، رغم ذلك ابتهلت ، «كُفّي يا أمي . . . كُفّي وإلا اختنقتُ بدمعك! لا أستطيع إزالته ، فيا لهذا الغمر الذي سيقضي عليّ وعليكِ!»

لكنّ الوجه غاض ولحقه الماء . بقيت الأصابع المرضوضة تغطّي الهوّة التي غيّبت أمّها ودمعها ، «لقد مضيا إلى نبعهما ، عليّ أن أتبعهما لأعرف أيّ وجهٍ ذاك الذي بكى . لو كان وجهَها الهرم فهنالك خطأٌ فاحش ، وعليّ معرفة الوجه الذي استعار ملامحها ليستدرّ عطفي ويعذبني» .

حبت متقدّمةً نحو الجدار متابعةً ما تراه مجرىً تحت الأرض ، وسرعان ما اصطدم رأسها بالجدار القريب ، آلمتها الصدمة فحكّت قبّة رأسها وهي تنعطف على نفسها جالسةً موليةً ظهرها للجدار طاويةً فخذيها إلى صدرها مطوّقةً ركبتيها بساعديها متطلّعةً بدهشةٍ وأسفٍ للباب الحديديّ المواجه وقد أحاطه الإسمنت من أطرافه الأربعة .

«اهدئي يا رباب واستكيني ففي صندوقك المقفَل تستطيعين ولوج روحك التي بحثتِ عنها عبثاً! وما من أحدٍ ليقطع عليك نجواك وبوحك أو يلج إليها معك فيفسد خلوتك ويدفعها للهرب . »

اقترب الباب منها رويداً رويداً وهي تتراجع ملتصقةً بالجدار وقد روّعها أنها ستنسحق بينهما. «حسنٌ. . . حسن. . . سأنهض، تذكّرت، عليّ أن أفتح صيدليتي مبكّرةً اليوم، تراجع أيها الباب سأفتحك حالما أغيّر ثيابي وأكمل زينتي!» لكنّ الباب لم يصغِ ولم يمتثل، اقترب واقترب حتى اضطرّت لوضع راحتيها عليه لتوقفه وهي تصرخ ملء فيها طالبةً النجدة. تنبّهت، وقد استجاب الباب وشرع يتراجع خطوةً خطوة حتى استقرّ في موضعه، أنّها تحسّ صوتها لكنّها لا تسمعه! «أنا رباب عبد الجبّار، عمري خمسٌ وعشرون سنةً، عزباء، عملي صيدلانيّة أقيم في. . .»

لكنّ صوتها لم يغادر حلقها رغم محاولاتها المتكرّرة. «أيّة مصيبةٍ حلّت بي الآن؟ وكيف سيتاح لي الخروج من هذا الرمس؟ لمَ أسمّيه رمساً؟ وما أدراني إن كان كذلك فعلاً؟ ولكن ألا يكفّنون الميّت قبل لحده؟»

تطلّعت إلى نفسها فتداعى قلبها وكاد يكفّ عن الخفقان. . . «كنت أرتدي ثوباً أسود وجوربين أسودين دون حداد، أحببت اللون لصراحته ولصعوبة تمويهه وحسب، كيف استحال أبيض إذن؟» وفي دهشتها تلمّست مذهولةً جسدها. . . عنقها وصدرها وبطنها وفخذيها وصولاً إلى قدميها، «ويلي! أنا ملفوفةٌ فعلاً بنسيجٍ حريريٍ تمرّ راحتي عليه دون احتكاك، لم ألمس بقعةً عاريةً واحدةً من جسدي! أيمكن أن أكون قد. . .؟»

هبّت واقفةً معاودةً تلمّس بدنها. . . حاولت انتزاع القماش الملفوف حولها بعنايةٍ وإحكامٍ فلم تُفلح. وفي رعبها مدّت سبّابتها نحو جبهتها

متوقعةً أن تنغرس عميقاً داخل حفرةٍ محترقة. «أيمكن أن تكون قد فعلتَها يا أبي دون إنذارٍ وعلى غفلةٍ مني؟» لكنّ سبّابتها ارتطمت بجبهتها من غير أن تلج الحفرة المبتغاة، «لا، لقد ظلمتكَ، أما كنتُ واثقةً أنّك لن تفعلها؟ أيكون نوّاف إذن وقد خضع برعونةٍ لإيحاءات ناصيف؟» تلمّست عنقها بحثاً عن شقٍّ فاغرٍ لا تزال الدماء تنفر حارةً منه، «وإذن كيف حدث هذا؟ أيُعقل أن يكون ناصيف قد أتاني ليلاً واعتصر بأصابعه الغليظة عنقي أو وضع وسادةً فوق وجهي فاختنقتُ دون صراخٍ أو شعور؟ ثمّة ما حدث رغم أنّني لا أتذكّره ولا أجد علاماته أو ما يدلّ عليه سوى وجودي الغريب هنا واحتباس صوتي. ولكن أيّ قبرٍ ذاك الذي يشبه غرفةً موصدةً؟»

راحت تفرك جبهتها وصدغيها بأصابعها الموجوعة... تحاول أن تتذكّر وتُصغي وترى.

«لا، لا أستطيع قتل نفسي، ليس في ذلك خلاصي، عليّ أن أواجههم وأدافع عن نفسي وعمّا حقّقته وأنجزته، هاهو مسدّسك يا أبي، لن أستعمله وأتمنّى ألاّ تستعمله أنتَ أيضاً، لن أوقظك فأنت أصلب من صخرٍ وأعند من ـ بغل ـ ولتسامحني، وما من شيءٍ يحرّكك سوى دموعي، لكنّي أضنّ بها ولن أسفحها مراءاةً وخداعاً وعجزاً، وداعاً يا أبي! سنبقى أصدقاء ولن أخون عهودك، ثِقْ بأنّني سأبقى دوماً موضع ثقتك وفخارك، سأقطع المسافة سريعاً، لن أنظر إلى أحدٍ ولن أتذكّر شيئاً، جملةٌ مختصرة ـ لن أرضخ لكم، فوداعاً ـ ألقيها على مكتبي، ألملم أغراضي وأغادر، ليقولوا بأنّي جبنتُ وهربتُ، أليس خيراً من استسلامي أو تسليم عنقي لسكّينهم؟ أغادر فجراً، لن تُلحظ امرأةٌ تحمل حقيبة سفرٍ صغيرة تلفّها العتمة وانزلاق الليل تاركةً روحها في المكان الذي ملأ قلبها وجوارحها غير آسفةٍ ولا نادمةٍ إلاّ على فرارها، ستهبّ العاصفة سريعاً ورائي فقد منحتُهم إجازة ملاحقتي وهدر دمي، ما من

أحدٍ سيجرؤ على استقبالي، فكيف بإيوائي أو حمايتي؟ لن أكبّدك يا خالي أيّة مصاعب، تكفيك همومك ومشاغلك، هاك مفاتيح المنزل والصيدليّة، حاول أن تجد لهما شارياً، لا تخشَ عليّ أرجوك، سأتدبر أمري، لا، معي ما يكفي من النقود لكأنّما ادّخرتُ انتظاراً لتلك اللحظة، لن أستطيع توديع زوجك وأولادك، قبّلهم عنّي، أعد بأن أتّصل وأحافظ على نفسي، صارت الحقيبة اثنتين، وامرأةٌ وحيدةٌ تبحث عن ملجأٍ في مدينة خلت من الملاجئ! آهٍ حسّان! لا أستطيع تحميله عبء حمايتي أو تعريضه للخطر أيضاً، فوق ذلك هو غير مؤهّلٍ للدفاع عني، سأتدبّر الأمر وحدي، سأجد مسكناً وعملاً، وأبدأ من جديد، دون مساعدةٍ ومن غير عون، ليست المرّة الأولى، فلطالما كنت أجد نفسي حالما أشعر بالضياع وهي التي ستجدني هذه المرة.»

تنفض رأسها، تتحرك في الفسحة الضيّقة التي لا تتجاوز طول قامتها... «لا، لم يحدث هذا! وإن حدث فكيف وصلتُ هنا؟»

فُتح الباب فجأةً فركضت صوب الجدار المواجه، انتحت أسفله متكوّرةً على نفسها وهي تنظر بفزعٍ متشبثةً بنفسها مبتهلةً أن تلتصق بالأرض فلا تُنتَزع عنها. لم تأبه الأقدام المقتربة بإصرارٍ بارتجافها ولا بتحريكها اليائس لرأسها، امتدّت ذراعان قويّتان وقبضتا على عضديها ككلاّبتي رافعةٍ سرعان ما رفعتاها فراحت تتجرجر بين صاحبيهما من غير أن تقوى على المشي. على الباب التقاها الوجه المكتنز فعصب عينيها بخرقةٍ كالحة اللون أحكم شدّها فأوجعتها ولم تدرِ إلا ورسغاها مقيّدان بصفدٍ معدنيّ، وصراخٌ وحشيٌّ يتردّد من أمامها وخلفها وأصوات اصطفاق أبواب... تعلو درجاتٍ وتهبط أخرى تنعطف شمالاً تارةً ويميناً تارةً أخرى. تتجاذبها الأيدي حتى تتوقّف نهائيّاً على وقع ارتطام قدمٍ ثقيلةٍ بالأرض، وصوتٌ أجشّ أخفت نبرتُه المحتدّة مللَه:

ـ هاهي سيدي!

ـ دعها وأغلق الباب، أجاب صوتٌ لم تميّز ملامحه لسرعته وإيجازه.

عمّ السكون فحسبت أنّها ستفتح عينيها لتجد الباب المغلق يحدّق بها متحدّياً ومستفزاً. أرادت أن تستكين للفكرة وتفتح عينيها ببطءٍ لتطمئنّ لتصوّرها، لكنّ شيئاً صلباً اصطدم بجبهتها وانتزع فجأةً العصبة من فوق عينيها ففتحتهما بآليّةٍ وهي تطرف محاولةً امتصاص الضوء الذي غمرها فجأةً. وفي تحديقها تبيّنت نوافذ كبيرةً أُسدلت ستائرها البنّية وارتمت إشعاعاتٌ اخترقتها على مقاعد جلديّةٍ وثيرةٍ جلس عليها جمعٌ من الرجال، يدخّن بعضهم فيخفي دخان سجائرهم قسمات وجوههم. قال أحدهم:

ـ أنت إذن؟

التفتت إلى الصوت فارتطم بصرها بعملاقٍ بدا مكتبه والهواتف المصفوفة فوق جانبه ألعاب أطفالٍ استخدمها طفلٌ بدل دُماه. لم تعِ السؤال، لكنّ رأسها اهتز للأسفل دون أن تدري لمَ. تفرّست فيها ستة أزواجٍ من عيونٍ غائمةٍ راحت تجوس بدنها خليّةً خليّة فأحسّت بأنّها تُعرّى، عادت كفّاها لتقبضا على عنق ثوبها لكنّهما بقيتا عاجزتين وأحسّت أنّهما مسمّرتان خلف ظهرها! فُتح الباب فجأةً فأجفلت.

ـ أمرك سيدي؟

ـ فكّ قيدها!

اقترب المكتنز منها فحاولت التراجع، إلا أنّه أمسك بها وفكّ قيدها فارتفعت يداها بآليّةٍ وقبضت كفاها على عنق ثوبها. أشار الضابط إليه فانصرف.

تهامس الحاضرون بشيءٍ ما، اقترب أحدهم منها واضعاً راحتيه على كتفيها:

ـ اهدئي وأخبرينا بما حصل.

بقيت واجمةً لا تدري ولا تفقه شيئاً ممّا يدور حولها. حافظ الضابط على هدوئه وقرّب وجهه من وجهها فحاولت التراجع لكنّها فشلت فقد قبض على كتفيها بقوةٍ سمّرتها في مكانها:

ـ لن نؤذيك، قولي فقط كيف حصل ذلك.

لم تبدِ أيّ ردّ فعل، كانت ترتجف وحسب، وعيناها المفتوحتان على مشهدٍ مهولٍ ومرعبٍ لا ترفّان. هزّها بشدةٍ خالت معها أنّ عظامها ستتحطّم وأن مفاصلها ستتخلّع...

ـ تحدثي كيف قتلتِه ولِمَ؟

فاجأها السؤال، «أيّ قتيل، عمّ يتحدث أولئك المجانين؟» لكنّها لم تفهُ، مدّت راحتيها أمامها متخليةً عن ثوبها ملوّحةً بهما هازّةً رأسها يمنةً ويسرةً مغمغمةً بما لا يُفهم وقد لاح الرعب على وجهها وفرّ لونها فبدت جثّةً أُخرجت للتوّ من رمسها وقد اكتشفت أنّها لا تزال حيّة! أتتها صفعةٌ شديدة، تماسكت لثوانٍ ثم تهاوت وقد ضمّت رأسها بساعديها وهي تنشج دون صوتٍ واضحٍ ولهاثها يتصاعد بقوّة، لم تتخلّ أبداً عن هزّ رأسها كأنّما تُبعد صورةً التصقت بعينيها سواءً فتحت جفنيها أم أغلقتهما!

ـ خذها معك، اعرضها على الطبيب الشرعيّ، انظر إن كان ثمّة علامات اعتداءٍ عليها و...

هزّ الضابط رأسه مستجيباً للعملاق الذي تابع:

ـ أريد اعترافها كاملاً!

تحولت رباب لكائنٍ هشٍّ منعدم الإرادة، تحطّمت صلاتها وروابطها مع العالم فانكفأت على داخلها الذي راح يتهدّم تحت أثقالها غير المحتملة. لفظتها مداراتها مرةً واحدةً وانتحى عقلها في موضعٍ مجهولٍ متخلّياً عنها في أمسّ لحظات حاجتها إليه، تحاول أن تتفكّر في ما يحدث حولها من غير أن تعيه فتفشل.

كانت تتساءل بصمت، لمَ تُعامل بهذا الامتهان ولمَ تسحقها الأقدام كأيّة حشرةٍ ضارةٍ ومؤذية؟ ما الذي حدث وكيف؟ ومثلما خرجت أسئلتها دون صوتٍ جاء الصمت جواباً مكمّلاً ومستتبعاً قوس أسئلتها المفتوح.

نسيت إلى حينٍ أو أُكرهت على نسيان كونها كائناً بشرياً يمتاز عن الكائنات الأخرى، لكنّ أكثر ما أثار هيجانها عجزُها وامتناعها عن الدفاع عن نفسها أمام شراسة العدوان الذي تعرضت له. ومثلما أرجحتها الأسئلة تلاطمتها بقايا معاقل دفاعاتها ونذورها أن تقاتل حتّى الموت أيّاً كانت ضراوة المعتدي وجبروته، لكنّها ورغم ذلك فشلت في تحقيق أيٍّ ممّا خطر ببالها حال تذكّرها شذراتٍ عن ماهيّتها وامتيازاتها التي وهبتها الطبيعة لها بسخاء.

ليست تلك هي المرّة الأولى، ومضت في رأسها الفكرة في ثانية صحوٍ نادرة، كيف لم تنتبه إلى ذلك؟ «لا، لقد تنبّهت، لكني أعميت بصري عن رؤيته كي أوهم نفسي بأنّي غير خاضعةٍ له!!»

تتقاذفها الأيدي، تستحيل مادةً خاماً، عجيناً يسوّى كما تشاء الأيدي التي تشكّله وتدفعه إلى الفرن الذي تختاره وتبقيه إلى ما شاءت ثم تسحبه ناضجاً وتبيعه لمن يستطيع دفع ثمنه. «أيّة أيدٍ دفعتك إلى هنا يا رباب، ما الذي ستفعله بك، على أيّة نارٍ ستقلّبك، متى ستبيعك ومن سيكون شاريك؟»

كانت لا تزال لابدةً على الأرض وقد فقدت الأشياءُ من حولها صلابتها وأضحت رخوةً تكاد لا تتّخذ شكلاً ثابتاً ومحدّداً. استحال الأشخاص الذين يخطرون حولها إلى أشباحٍ لا تستطيع ملامستهم، وإن فعلت فإنما تلامس فراغاً وتمسك خواءً.

ـ أسألك للمرّة الأخيرة أن تخبريني بما حدث وسبب حدوثه. أنتِ امرأةٌ متعلّمة ولستِ من أولاء اللّواتي عشن في الشوارع، لا تكرهيني

على معاملتك مثلهنّ، فعلى الرّغم من بشاعة فعلتك سأفترض بأن هنالك سبباً قاهراً دفعك إليها .

لم تجب رباب لأنّها لم تكن تسمع شيئاً ممّا يقال ولو أنّها أحسّت أنّ ثمّة ما يُعدّ لها .

ـ ترفضين قول شيء ، حسنٌ جداً ، أنت التي ترغمينني على معاملتك بدونيّة يبدو أنّك تستحقينها ! وطالما ترتضين انتهاك جسدك فلا تلوميني إن عاملتُك معاملة العواهر !

كان التهديد واضحاً وصريحاً وفيه من التهويل ما يدفع حتى مومسات الأرصفة إلى السخط والاستياء ! أراد المحقّق من خلاله أن يكشف أوراقه دفعةً واحدةً ليضع خصمه في موقف الدفاع ويمنع عنه فرص المغامرة .

لكنّ رباب كانت في وادٍ آخر ، استنفذت كلّ طاقاتها في محاولة تبيّن مراميه دون جدوى فتمترست في خندق جسدها منتظرةً ما ستؤول إليه الأمور . أرادت أن تقول شيئاً حول إنهاكها وحاجتها لقليلٍ من الراحة علّها تستجمع خيوط قواها وتستدعي عقلها من مكمنه الخفيّ ليستحضر بعضاً من ذاكرتها التي دخلت شتاتها وأصبحت شذراتٍ تتلقّفها شاشة إبصارها دون أن يربطها رابطٌ أو يضمّها سياق ! لكنّها بدل ذلك أطبقت فكّيها بشدّةٍ وقد أدركت استحالة خروج الألفاظ والحروف من بين شفتيها وغرقت أكثر وأكثر في ضبابٍ يتكاثف حواليها حتى يكاد يستلب من عينيها الإبصار . . .

ما درت إلا وقبضته تنتزعها من شعرها مكرِهةً مفاصلها وعضلاتها على التجاوب مع اتّجاهها فهبّت واقفةً ولم تدرِ إلاّ وقد أضحت مستلقيةً على ظهرها ناسيةً ضرورة محافظتها على تكوّرها ، أُخذت بسرعة الحركة فتعطّلت مزيدٌ من الحواسّ لديها وفقدت جملتُها العصبية قدرة إبداء ردود الفعل الطبيعية ، لكنّها وبشكلٍ غريزيٍّ ضمّت ساقيها وقلّصت عضلات فخذيها لأقصى الدرجات فما عاد لأيّة قوّةٍ أن تفصل التصاقهما طالما

بقيتْ متيقظةً ومحافظةً على رشدها. التمع السؤال كومضٍ فزادها رعباً، «أيفكّرون باغتصابي؟» احتاجت كلّ وعيها المستنفذ وإرادتها المستلبة، «لن أسمح لهم بفعل ذلك!» شحذت كلّ طاقاتها لمواجهة ما تراه يقترب ويضحي أقرب إليها من وجيبها ولم يُجدِ ذلك إلا في تصلّب فخذيها . . .

«كان أرقّ من أن يندفع كثورٍ هائجٍ ولاهثٍ يسيل لعابُه من شدقيه، كنّا اتّفقنا أن أحافظ على عذريتي لا لسببٍ إلا لأنّني أريد افتضاضها على هواي وساعة أشاء أنا! لكنّه في لحظة شبقٍ منفلتةٍ استحال وحشاً خرافياً؛ كنت مستلقيةً استكشف خفايا جسدي عبر تماسّه مع جسده مسترخيةً أنضح عرقي على مهلٍ ليختلط بتؤدةٍ مع عرقه مطمئنّةً إلى أنّي أؤسّس الصورة المعاكسة لما عرفته وخبرته. متفهمٌ حنون، أرقّ من نسمةٍ وأعذب من ماءٍ في هجيرٍ قائظ، بعيدٌ عن مفاهيم التسلّط الذكوري وأوهام تملّك المرأة. لكنّ ذلك كلّه انقلب رأساً على عقب، حاول بدايةً أن يغيّب يقظتي بمزيدٍ من محاولات تفتيت جسدي واستثارة كلّ خليّةٍ حسيّةٍ طالتها يداه وأصابعه المتمرّسة وشفتاه الشافيتان ولهاثه اللاّفح الذي يدفعني متأوّهةً نحو ممرٍّ إلزاميٍّ يصعب عليّ التراجع عنه، ولكنّني تماسكت وأبديت ممانعةً تلزمه باتفاقنا فثارت ثائرته وقد قارب نقطة اللاعودة، صفعني بقوةٍ كادت تغشي عينيّ وتشلّ إرادتي محاولاً إبعاد ساقيّ قسراً، لكنّ عزيمةً مجهولةً انتابتني! أيمكن أن أُنتهك بتلك السهولة؟ دفعتُه، إلاّ أنّ وطأته اشتدّت وكاد يحترث تربتي، فأنشبتُ أظافري في وجهه، ابتعد قليلاً فاغتنمتُها فرصةً لأناله في موضعٍ شديد الإيلام، ارتدّ مرعوباً: ـ قتلتِني أيّتها المجنونة!»

اقترب أحدهم منها، شبحٌ مجهولٌ لم تتبيّن عيناها ملامحه، اقتعد القرفصاء بجانبها وحالما أحسّت عينيه تتمليّانها عاودت القبض على

ثوبها، «سيخلعونه عنّي لا محالة». بدا متردّداً لكنّه مدّ يده ليعرّي ركبتيها وفخذيها فأنزلت يديها سريعاً وتشبثت بأطراف الثوب. نظر الرجل ببلادةٍ إلى المحقّق فأوعز الأخير لاثنين من عناصره أن تقدّما بينما وقف الرجل متراجعاً ومفسحاً لهما مكانه، وصلا فأمسك أحدهما رسغيها ورفعهما عالياً خلف رأسها ولم تدرِ ما الذي سيفعله الآخر، لكنّ الرّعب أطار لبّها فراحت تتخبّط ذات اليمين وذات الشمال تركل برجليها وترفس بقوةٍ عاجزةً عن تحريك يديها المثبّتتين. «بدأت المعركة!» بقي جذعها طليقاً وساقاها حرّتين فراحت تعارك بهما خصماً وهمياً ينتظر أن يوصلها تعبُها ولهاثها حدّ الإغماء فينقضّ عليها، لكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث، ففي حركتها المهتاجة والمضطربة أزاحت ثوبها دون أن تدري فارتفع حتى قارَب بطنها وبإشارةٍ من المحقّق تحول إلى رباطٍ ثبّت رأسها وذراعيها وكمّ فاها وغطّى عينيها...

حالما أحسّت عريها توقّفت عن المقاومة، «انكشفتُ أمام أعينهم القذرة، لا بأس لكنّهم لن ينالوا وطرهم!» وبين لهاثها والفحيح المنطلق من حنجرتها ركّزت قواها المتبقّية في عضلات فخذيها وانتظرت قانطةً الخطوة التالية.. لكن شيئاً لم يأتِ سوى حركةٌ مفاجئةٌ قلبتها على بطنها.. والى الطبيب فحص جسدها فلم يلفت انتباهه سوى خدوش باطن قدميها وجرحٌ صغيرٌ لم يلتئم بعد!

ـ ما من علامات عنفٍ أو عراك!

ـ هل هي عذراء؟ سأل المحقّق بإسفاف.

ـ أشكّ في ذلك لكنّني أستطيع التأكد.

ـ ما الذي تنتظره إذن؟

لم يكن فعل ذلك هيّناً إلاّ بعد أن تلقّت رباب ضربةً شديدةً على رأسها أفقدتها وعيها وشلّت حركتها المتلاطمة...

ـ ثيّبٌ منذ زمن، ما أشرسها! أظنّ أن الصدمة أودت بعقلها!!!

ـ هذه شغلتنا نحن يا دكتور، شكراً لك، يمكنك الذهاب لإعداد تقريرك.

كان أوّل ما فعلته حين صحت أن تلمّست أسفل بطنها، جنّ جنونها حين لم تجد سروالها في مكانه، بحثت عنه فوجدته مرميّاً قربها.. عاودت تفحّص جسدها فاطمأنّت، «لم يحدث شيء!» وفي لحظات انفلاتها من الغيبوبة أوحت لنفسها أنّ ثمّة كابوساً يتغشّاها وعليها أن تستيقظ منه بأيّة طريقة قبل أن يورِدها موارد الجنون! لكنّ رضوضها وأوجاع جسدها قالت عكس ذلك فاحتارت وأوت مجدّداً إلى غيبوبةٍ مشتهاة!

طفلةٌ صغيرةٌ سمراء بجديلتين تنتهيان بعقدتي شريطين أحمرين تضحك لشمسٍ تغمرها.. تدوس قدماها عشباً أخضر يانعاً يبلّ باطنيهما عصيرُهرسه البارد.. تمدّ يديها ضاحكةً جذلى وهي تلاحق فراشةً بيضاء مرقّطةً بالأحمر والأسود تحوم أمامها صاعدةً هابطة، كلّما أحسّت أنّها ستمسكها تُطبق عليها كفّاها فتجدها قد فرّت، تعاود الكرّة مرّاتٍ عديدةً إلى أن تهوي أرضاً من غير أسىً ولا حرد، تصيح بها مهدّدةً:

ـ سألحق بك لآخر الدنيا وأمسك بك!

لكنّ كفّين ضخمتين ترفعانها من تحت إبطيها:

ـ أمسكتُ بك أنا أيّتها الشقية!

تلتفت فتجد أباها طويلاً كحورةٍ ضخماً كسنديانةٍ وحيدةٍ لا تنبت حولها إلا بلوطاتٌ قزمة.

ـ أنزلني.. أنزلني.. ستضيع فراشتي مني!

لكنّه لا يصغي إليها، يحملها فوق كتفيه:

ـ أنتِ فراشتي الآن!

يركضُ بها فتسمع صهيله وهو ينادي جياداً بعيدة، تمسك بشعره وتشدّه:

ـ كنْ حصاني إذن!

يمتلىء غبطةً فيعدو بسرعةٍ أكبر، فجأةً يظهر شيخٌ أحول العينين بعثنونٍ أسود مشذّبٍ وشاربين رقيقين فيقف الأب مباغتاً مبهوراً لاهثاً منتظراً سلام الشيخ ليردّ تحيّته، لكنّ العباءة الهفهافة التي تحيط بالجلباب الأبيض تطايرت أطرافُها في الهواء ملوّحةً مع أطراف حطّته البيضاء المطوّقة بعقالها الأسود فوق رأسه كأنّها تدعو حاشيته التي سرعان ما أحاطت به مطالبةً أن تؤدّى له فروض الطاعة والتحيّة والولاء.

ـ أتبيع الطفلة يا ولد؟

تلفت حواليه... «من الذي يخاطبه هذا الأبله؟» لم يجد أحداً فاحتدم غضبه، «أيحسبني أحد خَوَله؟»

ـ هل تخاطبني أنا؟

ضحك الشيخ الهزيل، وقد اطمأنّ لوجود حرّاسه المدجّجين بالسلاح وكلابُهم قربهم:

ـ أهنالك غيرك في هذه الديرة؟

حاول ضبط أعصابه، تلمّس منطقته، «نسيت المسدّس أيضاً، اللعنة على غبائك واستخفافك يا عبد الجبّار!»

ـ أنت قدمت للسياحة والاصطياف والصيد، ألا تحترم مضيفيك؟!

قهقه المتنقّل من خباء البداوة إلى فسحة القرن العشرين:

ـ وبأيّ شيءٍ أزعجتك؟ اطلب ثمنها وخذه!!

مدّ كفّه فناوله أحد المقربين إليه رزماً ماليّةً ما لبث أن رماها بين قدمي عبد الجبّار بينما تمسّكت الطفلة بساقه بعدما أنزلها أرضاً.

ـ أنت لا تستحي فعلاً . . .

وهجم دون رويّةٍ فأحاطه المرافقون بسواعدهم المفتولة.

ـ لي الحقّ أن أؤدّبك لكنّي سأعفو عنك فأنا قادر! تفكَّر بعرضي واطلب ما شئت فالطفلة تعجبني.

أرغى عبد الجبّار وأزبد، والطفلة بكت، لكنّه بعد مضيّهم لم يفعل سوى تمريغ جبهته بالتراب وضرب الصخور بقبضتيه وقد أدمى شفتيه حرقةً وقهراً، «ليتني أستطيع وأدها!!!»

أفاقت رباب على بكاء الطفلة، أرادت ضمّها ومواساتها لكنّ الصوت اختفى وتمدّد النور الشاحب المسمّر في عينيها فراحت تعركهما. تنبّهت لعريها فقامت وهي تحاول أن تتذكّر أين تركت سروالها، وجدته وسارعت لارتدائه وتسوية ثوبها خشية أن تفاجأ بتلك الوضعيّة المبتذلة. لم يخب توقّعها فحالما استعادت إحساسها باستتار جسدها صلصل المفتاح في القفل وقعقع فوقفت واجمةً واجفةً لا تريم ولا تتحرك، استسلمت للقيد والعصبة وأذى النهر والدفع دون تذمّرٍ كأنها لا تريد تبديد طاقاتها توفيراً لمعركةٍ وشيكة!!

بدأت الجلسة هادئةً، ورغم محاولة المحقّق تهدئة روعها مستبدلاً بلينٍ مخادعٍ أسلوبه الخشن، إلا أنّها دخلت تيهها من جديدٍ وراحت تهوّم في مجاهله وقد تدرّع جسمها لا إرادياً بوضعيّةٍ دفاعيّةٍ جعلتها ترتعد وتمدّ يديها نحو أيّة نأمةٍ وسرعان ما تغطي رأسها بهما. ومن شدّة توتّرها واصطراعها الداخليّ لم تستطع أن تستقرّ على رجليها فتهاوت مفترشةً الأرض منتفضةً تجفل لأيّ حركةٍ وأيّ صوت، متنفّسةً بعمقٍ وقد غاض

الهواء حولها ورقّ جلدُها وشحب حتى كادت كلّ خلجةٍ تندفع خارجةً ممزِقةً جدرانه الرقيقة، امّحت قسماتُها واختلطت حتّى بات صعباً تمييز وجهها وسيمائه الخاصة.

حسِب المحقّق للوهلة الأولى أنّها تخاتله وتدّعي مسّاً أصابها، لكنّه تأكّد شيئاً فشيئاً، وأمام ردود أفعالها الخفيّة والظاهرة على أسئلته المتنوّعة وعنفه المرافق لها، أنّ ثمّة خللاً أصاب عقلها وربما لوثةً داخلتْه، لم يأبه إن كانت دائمةً أم مؤقّتة وأوعز بإعادتها، مؤكِداً على عزلها التامّ ومنع أيّ اقترابٍ منها أو أيّ اتصالٍ بها. سجّل ملاحظاتِه وتابع عمله الاعتياديّ.

في زنزانتها الجديدة اكتشفت رباب أنّ عالمها ضاق حتى ما عاد يتجاوز جدرانها، أكّد لها ذلك مرحاضٌ قائمٌ في نهاية استطالة الزنزانة وبويبٌ صغيرٌ أسفل بابها لا يتّسع إلاّ لإدخال آنية الطعام. كانت كلّ عدّتها كوباً وصحناً من البلاستيك وغطاءين رثّين من صوفٍ عديم اللون، وفضاءً مشبعاً بروائح واخزةٍ ومنتنةٍ حاولت تحاشيها عبثاً بالانزواء في الزاوية المقابلة للمرحاض.

كان مضيّ الوقت هو الذي دفعها للتساؤل عن آخر علامات اليقظة، إن وُجدت! وإن كان ثمّة حلمٌ لا تزال واقعةً تحت تأثير تردّداته، فمتى سينتهي ومتى ستستيقظ مجدّداً؟ ولأنّها باتت جزءاً من الوقت الهامد المشبَع بروائح لا تتغيّر انتمت إليها روائح بدنها ومفرزاته وبعضٌ من الأثير الغبِش الذي يخيّم عليها جاعلاً منها طيفاً يتحرك ضمنه دون أن ينتقص شيئاً من حيّزه الساكن، فقد بدت آلة توقيف الزمن معياراً لتوقّفه الفعليّ عن الحركة بالنسبة لها، خاصةً وأنّ الوجبات الثلاث التي تعلن مواقيت الليل والنهار استحالت لشيءٍ متشابهٍ لا طعم له ولا رائحة ولا لون، تلوكه فلا تزدرد سوى لعابها الذي تنكّر لها أيضاً وصار شيئاً مغايراً لما تعرفه وتذكره! مثلما تنكرت لها يدها اليمنى، فهي تراها وتشعر بها إن تأذّت لكنّها لا تستجيب لها.

ومثلما عيي لسانها فما غادر صوتُها جوفَها، كذلك نسيتها ذراعها فاستحالت وسادةً تريح رأسها المكدود عليها حين تتفرّس في الفراغ المحيط بها دون أن تعرف عمَّ تبحث. وحتى لو أغمضت عينيها، فلا تطبق عليهما عتمةٌ متوقَّعةٌ بل يتوالى ذات المشهد، فراغٌ لا عمق له مشبعٌ بشحمٍ أسمر تحسّه عيناها من صعوبة اختراقه من غير أن تتلمّس أصابعها قوامه! عكس ما يحدث في رأسها تماماً فهو يتّخذ قوامه المعتاد، كلّما حاولت العبور خلاله تكاثف حولها وأحاط بها حتّى أضحت حركتها شبه متوقّفةٍ رغم محاولاتها المستمرّة لمواصلتها ولتبلغ حيث تبصر عيناها ما توارى خلف لزوجته وكتمانه من شخوصٍ مألوفةٍ وأحداثٍ متراكبةٍ وتضاريس معتادة. . . خليط التاريخ والجغرافية الخاصّ بها محتفظاً بتفاصيله الدقيقة ومشبعاً بعبق روائحه، كان ذلك كلُّه يدعوها ولم تتمكّن من تلبية النداء!

عاودتها تصوّراتها عن موتٍ وشيكٍ أو موتٍ قد ولّى، اليقظة مفقودةٌ والنوم مبهَم. ليس ثمّة إلا الموت! راحت تردّد في سريرتها دون إرادةٍ أشياء ممّا تعلّمته في ماضٍ بعيد؛ أدعيةً وصلواتٍ وابتهالاتٍ تخفّف عنها عذابات قبرها من غير أن تفقه منها شيئاً كأنّما هي شريطٌ ممحوٌّ يدور في آلة تسجيلها مستعيداً صوتاً غاب دون أن يطلقه في الفراغ! صدىً مكتومٌ لا تميّزه أذنٌ رغم إحساسها بوجوده. نأت عن أفكارها الهائمة تلك حين تراءى لها أنّها خبِرت ذلك في وقتٍ سابقٍ وامتحنت بطلانه!!

«افرحي يا رباب، ليكن الفناء، ما الذي يعنيه ذلك؟ لقد انتهت عذاباتك مرّةً واحدةً وإلى الأبد. لو كان ثمّة شمسٌ وزرقةٌ أو ليلٌ نجومه تومض بدل هذا الغبش الكليل، لو كان هنالك أوديةٌ خضراء أو بنيّةٌ تتناهى لأفقٍ ما بدل هذا الفراغ المحصور، لو كان ثمّة هبوب ريحٍ أو خريرٌ أو هسهسةٌ أو سقسقةٌ أو حتى نباحٌ أو نهيقٌ بدل هذا الصمت لكان ثمّة ما

يعزّي . ومع ذلك افرحي فما عاد هنالك من يتدخّل في سيرورة حياتك أو يقحم نفسه قسراً على أفكارك فتضطرين لأخذها بعين الاعتبار . أيّة أفكارٍ وأيّة حياة؟ أهنالك غير هذا الرماد؟ وأنت نفسك، ألستِ بعضاً منه؟»

انبسطت أسارير وجهها وضحكت من غير صوتٍ ثم عاودها الانقباض من جديدٍ وبدا أنها تقاوم حزناً دفيناً راح يشقّ لحمها ويمزّق جلدها ويدفع دمعاً عصيّاً إلى عينيها، «من أين يأتي كلّ هذا الحزن؟ أثمّة ما يُحزِن أو يورث الأسى؟ دعكِ من هذا يا رباب، ما من فرحٍ هنا وإذن ما من ترح! على من ستبكين أو من أجل من؟ دعكِ حتّى من نفسك فما عدتِ أنتِ أنت، افترضي أنّ شبحاً ما ظهر لك وسألك من أنتِ، فهل تستطيعين التعريف بنفسك؟ هل تملكين ذاكرةً تعيدين بسطها وسردها لتحدّدي انتماءك؟ قولي لنفسك إذن من أنتِ، أبلغيها أأنت رباب أم شخصٌ آخر؟ وحتى إن فعلتِ ذلك لنفسك أو لشبحك المنتظَر، فما الذي سيعنيه ذلك؟ وكيف يفيد؟»

راحت تتقلّب وقد تراءى لها أنّها تخضع لامتحانٍ مريع، أن تمتلك قدرة إعادة تشكيل نفسها من اللاشيء . . من سديمٍ كانته ذات يومٍ وقد تبدّد غباراً في فضاءات الكون وتلاشى . . . ودّت لو تنجح فيه أو تتخلّص منه، لكنّ دافعاً مجهولاً أصرّ ألاّ توقف محاولاتها، فقد كان الفناء الملحوظ الذي عليها أن تتماهى فيه كريهاً وغير محتملٍ ولا يمكنها ولا يمكن أن تصطبر على صيرورتها جزءاً منه!

وبينا هي مستلقيةٌ على جانبها الأيمن متوسّدةً ذراعها تحاول استكشاف الدرب التي وجدت نفسها مدفوعةً نحوها حذرَ السقوط في مهاوٍ أكثر إبهاماً وأبعد ما تكون عن فهمها الخابي، أحسّت بدفءٍ لزجٍ ينساب على فخذها الأيمن المطويّ تحتها . . أجفلتْ لحدوث تباينٍ

صريحٍ عمّا افترضت ثباتَه السرمدي! مدّت يدها وحشرتها تحت ثوبها فانتقل الإحساس لراحة كفّها، رفعتها وقرّبتها من عينيها فابتعث اللونُ القاني والرائحة المخالفة التي اندفعت لاحتلال رئتيها رعبَها. انتفضت وهبّت مذعورةً، «لقد غسلتُه.. لقد غسلته فمن أين عاد؟»

هاجمتها يدٌ تخترق الظلمة مغمورةً بدمٍ طازج تفوح رائحته الثقيلة وتضمّخ الأجواء حوله تريد دفع وجهها به، فتراجعت تريد فراراً منها وهي تلاحقها دون مهادنةٍ حتى تعثّرت واليد تقترب منها سريعاً، رفعت يديها لتغطّي وجهها خشية وشمٍ لا يزول، لم تطاوعها سوى يسراها التي غطّت وجهها، سرعان ما تنبّهت مرتاعةً أنّها نقلت الدفء واللزوجة إليه فاختفت اليد المهاجمة. «ويلي، ألن أُترك لحالي؟ ألن يكفّوا عني ويعتقوني؟» راحت تمرّغ وجهها أكثر حتى تغطّى بالدم الصريح. «ها قد وسمتُ نفسي ودمغتُ وجهي بما لا يمكن أن يزول، عِفّوا عني إذن».

مستلقيةً على ظهرها طاويةً ساقيها ودمها يوالي انثياله، أحسّت بدفئه على إليتيها. «ما الذي يحدث؟ هل ثمّة إصابةٌ في أحشائي تجعلني أنزف على هذا النحو؟» وكمراهقةٍ داهمها حيضُها الأول فأرعبها لون دمها ورائحته، تسلّلت يدها وحاولت أن توقف النزف.. وحالما تموضعت كفّها ضاغطةً الفوهة النازّة عاودها الاطمئنان وتبيّنت جسدها الغائب وقد تسرّب إليها من وعيها الغائم شيءٌ عن دورة الإباضة الشهرية... الحيض الدوريّ، دورة الحياة التي لا تتوقّف، «هو دمي إذن يواصل رحلته يذكّر بأنّني لا أزال موجودةً وأنّني أحيا، أيُّ موتٍ وأيُّ فناءٍ يا رباب!»

نهضت من عثرتها، غسلت البقع التي ضرّجت وجهها وكفّها وفخذيها والتجأت للجدار ملتصقةً به لتؤكّد إحساسها بنفسها وتمايزها عن المناخ الذي باتت جزءاً منه. ولجت نفسَها من الفوهة التي دفعتها فوهةٌ مشابهةٌ عبرها نحو الحياة.. زحفت داخل أحشائها، وسبحت ف

أول وريدٍ اتّسع لها وهي تستعيد تفاصيل وتضاريس الأعضاء ووظائفها داخل أحشائها حتى ارتمت في قلبها واستقلّت في نبضةٍ تاليةٍ شرياناً دفعها نحو دماغها، «آه، هنا عليّ أن أقيم وأتقصّى البناء الذي تسوّر الجمجمة عالمَه المجهول.» وفي تلافيف دماغها استنهضت روحها الهائمة لتأخذ بيدها وتجوبا المكان معاً! «ها قد التقينا معاً مرةً أخرى، ألا يمكن لنا أن نحاول من جديد، نتّحد لنكتشف المجهول ونحقّق معاً ما نصبو إليه؟» تركت عناءاتها وكدّها خارجاً حيث اعتزلتْ متسلّلةً تعاود سبر ذاتها.

حال دخولها عانقتها روحها فاستراحت إليها مستعيدةً سكينتها وهي تلج عالم نجومها الليليّة المصغية لنداءات الكون الخفيّة قاطعةً ملايين السنين الضوئية لتوصل رعش همسها الحنون إليها وومض رقّتها المتناهية، متناوباً مع عالم الشموس النهاريّة المفتوحة على فضاءاتٍ لا تُحَدّ ترسل شعاعاتها على الأنهار والغابات والجبال والبحار... أصغت حتى تناهت لأذنيها ضحكات أطفالٍ لاهين تترقرق كأمواه البحيرات، انتقلت الضحكات لدماء عروقها فضجّت من احتباسها واشرأبّت لتنفر قافزةً مجيبةً النداءات الخفيّة التي تهيب بها أن تلاقيها!

أرادت في غياهب التجاويف التي تردِها أن تخاطب روحها ولا تكتفي بمناجاتها بعدما افتقدتها خارجها وأحسّتها وقد تداخلت واختلطت في بدنها مثلما كانت. ما خشيت تيهاً يلفُّها فثمّة من عاد يقودها من داخلها وهاهي ذي تسترجع فردوسها الضائع وتجوس معالمه كأنها ترتادها للمرّة الأولى.

أوغلت تبغي الوصول إلى العتبات الأولى.. العتبات الممنوعة والمقهورة والمكبوتة، فقد هدَتها بصيرتُها التي عاودت نشاطها بتؤدةٍ أنّ معرفة كنهِها ستضعها على الطريق الصحيحة التي ستوصلها من حيث لا تدري إلى حيث هي الآن فتخرج منتصرةً على غيبوبتها ومنها!

كانت البدايات متنافرةً، ثمّة ما يريب فيها وقد تداخلت حتّى أضحى فصلُها مستحيلاً، خاصةً وأنها ترصّعت وامتزجت بانطباعاتٍ لاحقةٍ أتت كخبراتٍ تجمعها الذاكرة من نتفٍ متفرّقة . . . ما تراه العين وما تسمعه الأذن وما تحسّه النفس ويشمّه الأنف، ثم عمليّات الفرز والتصنيف والتخزين، فيعود الفصل أكثر صعوبةً بين المادّة الخام والتصور المتشكّل عنها.

شيءٌ من طبيعة الجبال وماهيّة الصخر، القسوة والكراهية متواشجان مع الحنين والإيثار، التنافر الاعتيادي بين اللامبالاة والحنوّ الشديد . . انتظارٌ ممضٌّ لقادمٍ مرتجى ومتمنّى وترقّبٌ متوفّزٌ لمضيّه ورحيله . . إعلانٌ للفرح العفويّ مكبوتٌ بخوف ما يمكن أن يورثه ذلك من عارٍ مرتقب! المشكلة السرمدية للأنثى التي تحفظ النسل وتواصله والمعارف الموروثة عن احتمال أن تقوم بتدميره عبر تلويثه بنزعاتها الشيطانيّة المتأصلة فيها أو الملقاة على عاتقها قسراً وإكراهاً.

ارتجف قلبه فرحاً وسعادةً ولو أنّه أبى إلاّ أن يبدي انكساراً تقليديّاً على سيماء وجهه حال سماعه أنّ الصرخة الأولى كانت لبنت . . خرج إلى البراري موارياً فرحته مُظهراً غضبةً جعلت العيون تتحاشاه والأجسام تحيد عنه. في ذروة جبروته كان، وفي وحشة البراري وعزلتها أبدى وأظهر وأطلق ما أخفاه وغلّفه بنقائضه. حكى لها بعد سنواتٍ وهو يحاول أن يحصّنها ضدّ نفسها وضدّ كلّ عدوانٍ مرتقبٍ يضعها نصب عينيه هدفاً، لقد صرختُ ومرّغتُ بدني بالتراب متدحرجاً عليه أريد أن تشاركني الريح والقمم والأودية والسيول . . الحشائش وزرقة السماء . . الأشجار والمنحدرات، فرحتي بصرختك الأولى بعيداً عن الأعين، وأطلقتُ . . . أطلقتُ حتى فرغت مخازني، طلقةٌ واحدةٌ كانت تكفيني

لأجندل هدفي وما كفتني كلُّ الطلقاتِ لإشهار ولهي بقدومك. دون أن أراك حتّى! كوني ما تشائين لكن لا تورثيني عاراً يجعلني أندب عمري وأنوح عليكِ!

ثمّة أصواتٌ تتردّد في الدهاليز المعتمة لا تبين وجوه أصحابها، تخفي العتمةَ وتمنع الرؤية لكنّها تتيح للصدى أن يعبرها وللروائح أن تنشر شذاها وتتضوّع وتفوح دون قيود... هل كانت الغيبوبة بدايةً أم نهايةً مؤقتّةً وحسب؟ تنير القناديل فتنكسر الظلال على الدهاليز وتبدّد فيها العتمة... صهيلٌ شاسعٌ وقرع حوافر فوق أرضٍ صخريّةٍ صلدة.

من جموح الخيل كانت البداياتُ ولم تكن أبداً إلاّ صحواً ينفتح على مساحاتٍ رحبةٍ لا تُحَدّ.. متنٌ أجرد، ودون عنانٍ تمتطي صبيّةٌ صغيرةٌ الصهوة المنبسطة فتثب الفرس مندفعةً بجموح. لا تجد البنيّة سوى شعر العرف لتمسك به طاويةً الساقين على البطن الضامر فلا تصلان وسطه متشبّثةً بكتل العضلات والعروق النافرة. ومن بين الأذنين المنتصبتين ترى عالماً آخر يسارع مرتداً نحو الخلف فلا يتوقف أبداً حتى يصل الأفقَ والأفقُ لا ينتهي ولا يتناهى... يخرج صوتٌ من فناء الدار:

ـ مجنونةٌ امتطت مجنونةً، أليس غريباً أن تعودا معاً؟

تنزلها يدان مكتنزتان:

ـ هل تسعين وراء حتفك أيّتها الحمقاء؟

لم يكن الجواب سوى استعادة لونٍ غاب ووجيباً شديداً يكاد يخرج اللهاث المضطرب والعرق البارد المتجمّع على الجبهة الواسعة.

ـ اركبيها مرّةً أخرى وانظري ما سيحدث لك!

نفس الصوت الناهر المفزوع خوفَ الفقدان، لكنّ صوتاً جهورياً يقهقه من وراء جدارٍ خفيّ:

ـ دعيها فالأرض لا تسعها، لربّما وجدت متّسعاً فوق ظهر الفرس!

تتراكب الأشياء... أيّ فصلٍ كان؟ ما من بردٍ لكنّ النور الشاحب يشي بغيمٍ كثيفٍ وطلائع ريحٍ تهبّ من ذرىً بعيدةٍ تملأ أشرعةً لسفائن تبحث عن بحارٍ فلا تجد سوى الرمال... تفوح روائح كشكٍ مطبوخ.. مزيجٌ من أريج البيادر ورائحة أخشابٍ محترقةٍ تحت حللٍ ضخمة ينضج داخلها على مهلٍ قمحٌ جديد... فوحُ زرائب الأبقار، والحليب الذي استحال لبناً رائباً جفّفته الشمس بكل تؤدة، وأعشابٌ من أكماتٍ وعرةٍ لا يُعرَف اسمُها إلاّ من رائحتها الواخزة.. لعبٌ بالوحول ورمي دميةٍ قماشيةٍ في موقد الشتاء البهيج.. نزوعاتٌ متهوّرةٌ لضرب الصبية ورجمهم بالحجارة حال تجاوزهم حدّاً لا يعرف أحدٌ كيف وأيّة يدٍ خطّته!

تنطفئ القناديل فجأةً وتحلولك الظلمة فتتلمّس الكفّان الجدران النسيجية الرخوة.. تكاد القدمان تنزلقان فتتوقّفان خشية سقوطٍ محتمل.. تنتقل اللّزوجة من الكفّين إلى الوقت فيخمد إلى حين!

على تخمٍ غامض المعالم انتصبت أسلاكٌ شائكةٌ وموانع مائيّةٌ وأرضيّةٌ يصعب اجتيازُها.. وخلفها حقولٌ غير متناهيةٍ من الخضرة لا تحدّها الآفاق تختفي بين حشائشها النديّة المتطاولة صبيّةٌ تلهو مع أمهارها لا يتحدّد موقعها إلاّ على وقع الحوافر والصهيل وصرخات الجذل والحبور اللائي تردّد صداها سماءٌ ربيعيةٌ تحار العين في عمقها فتخالُها جدَّ قريبةٍ تكاد تلامس الحدقات! وأمام التخم ثمّة مرتفعاتٌ جداريّةٌ شاهقةٌ شديدة الوعورة تحرسها وحوشٌ وأشراكٌ وقيودٌ وسياطٌ وعويل الجنون!

كيف انكسر العالم فجأةً وانشطر؟

دخل الأب مهتاجاً ذات ظهيرةٍ وقد سعّرت الحرارة غضبه فتفاقم واستحال إلى ضربات شديدة وسباب وشتائم انهالت على جسد الأمّ، الذي استحال أزرق بلون كحل العين، وعلى الروح! في زاوية الغرفة وقفت فتاةٌ صغيرةٌ وقد باغتها الرّعب فما استطاعت حراكاً ولا امتلكت قدرة إطلاق صرخة. لكن مع احتدام الجنون وجدت قدماها الدرب إلى حضن أمّها لتكون حاجزاً بينها وبين العقاب المنهال دون سببٍ واضح. على إثر لطمةٍ طائشة أتت صرختُها موجوعةً نادبةً وقد أفلتت من عقالها عويلاً لا يتوقّف.

انتبه الأب فبوغت! توقّف واستدار خارجاً دون أن يلتفت ولو لمرّةٍ واحدة، وبين الدموع والنشيج والمواساة المتبادلة، انزاح الفرح والاحتفاء المبالغ بالموجود الجديد في بيتٍ جفّفته القسوة ومناخ التسلّط المستشري وانزلق على مهلٍ الحزنُ والخوف والاستكانة لتحتلّ جميعاً ما شغر من مكان!!

عاودت الرجفة رباب، خشيت أن تُضيع الدرب مجدّداً لكنّها أصرّت على عدم الهروب منه.

توجّهت بخطىً حثيثةٍ نحو الأمّ والبنيّة الباكيتين وسألت الخطوط الزرقاء والبقع الأرجوانية المسودّة التي غطت الوجه الأبيّ الخلبيّ، لماذا؟ قالت الأم أشياء عن جنون البشر وعن الرجال الذين يعوّضون ضعفهم وعجزهم وهزائمهم في نسائهم فيكيلون لهنّ ما عجزوا عن توجيهه لخصومهم الحقيقيّين، أشياء عن حسّ الامتلاك وحبّ الهيمنة والتسلّط والاستعباد!

تنبّهت رباب، فما كان ذاك صدى صوت أمّها.. كان وقع صدىً آتٍ من زمنٍ لاحقٍ يحاول دفع الندوب للبوح بما يخفّف عنها أوجاعها

ويجعلها أكثر قدرةً على التحمّل والاستمرار، فالتفتت إلى الصغيرة التي لم يتوقّف اختلاج أوصالها رغم توقّف حنجرتها عن إطلاق صفيرها المبحوح.

ـ ما تقولين يا رباب الصغيرة في ذلك؟

ـ ما من سببٍ يبيح له معاملتها على تلك الصورة ولا يجب عليها أن تسمح له بذلك.

حاولت استفزاز الصغيرة:

ـ وما تفعلين لو فعل أحدهم بك ذلك؟

احتدّت البنية:

ـ سأرجمه، ليس بالحجارة ولكن بجمر الموقد المتّقد.

وصعّدت ذلك الاستفزاز:

ـ حتى لو كان أباك؟

صمتت رباب الصغيرة ولم تجب!

ـ هل ستنسين ما حدث يا رباب؟

تمهّلت المهرة.

ـ ربّما.

وتابعت بعد برهة صمت:

ـ ما لم يتكرّر!

لكنّه تكرّر وتكرّر...

غادرت رباب حضنَ أمّها وانطلقت تعدو.. ومن مكانٍ ما وسط باحة الدار بدت شجرة توتٍ ضخمةٌ تكاد تظلّل بيتاً كاملاً تحت أفيائها.. وعلى غصنٍ ضخمٍ وعالٍ هبط حبلان خشنان من قنّبٍ مفتولٍ علّق في نهايتهما

لوحٌ خشبيٌّ غير مشذّبٍ تطاولت رباب حتى اعتلته وجلست عليه . . راحت رويداً رويداً ترتفع عن الأرض وتتطلّع في لون الزرقة تريد أن تبلغه وتغيب فيه ، فراشاتٌ ملوّنةٌ وعصافير حمراء تدعوها . . غيمتان صغيرتان استحالتا ذراعين امتدّتا لاستقبالها فأفلتت حبليها واندفعت نحوهما . . لكنّ الأرض تلقّتها وخلّفت في ساعدها الصغير كسراً ظلّ وخزه يؤرّقها بين الفينة والفينة . . .

استيقظت البنيّة عطشى في ليلٍ بهيميّ . . نادت أمّها فلم تجب . . . تذكّرت شيئاً عن سلحفاةٍ ضخمةٍ تتّجه بها نحو غمرٍ هائل ، حاولت أن تهبط من على ظهرها لكنّها تراجعت فقد كانت الأرض التي تدبّ عليها السلحفاة متّقدةً بلفح نيرانٍ ملتهبة . . وبين نارٍ ستحرقها وماءٍ سيُغرقها ودخانٍ يعمي عينيها ويخنق رئتيها أبصرت غراباً أسود فرد جناحيه فوقها فأعتمت السماء . . التقطت مخلبه الضخم ورأت فيه نجاتها ، لكنّ بقيّة المخالب التفّت على جسدها وراحت تعتصره حتى خالت أنّها ستتمزّق وتُطحن بينها . . . أنزلتها على قمّةٍ جرداء عاليةٍ ومنفردة غابت الأصقاع من حولها ، حالما وقفت على قدميها راح المنقار يهاجمها . . ضرباتٌ مركّزةٌ وسريعةٌ تواكب عصف الهواء الناتج عن كلّ اصطفاقٍ نحو عينيها . . . تراجعت وقد أذهلها الرعب بين تلقّي الطعنة النجلاء وفقدان البصر وبين السقوط في الهاوية التي لا يبين قاعُها لشدّة عمقها وبُعدها السحيق . . . زلقت قدمها وبينا تتهاوى أمسكت جذعاً منفرداً من وسطه حسبته منقذَها فتشبثت به ملتقطةً أنفاسها مستجمعةً ما بقي لها من فكرٍ لتنجو من ورطتها ، لكنّ راحتيها أحسّتا طراوة الغصن ولزوجته فانزلقتا . . أيّ غصنٍ هذا؟ تأمّلته . . كان أفعى تحدّق فيها بعينين باردتين يكاد لسانها البارز أمام نابيها يلامس وجهَها الملفوح بحرارة الفحيح . . . أفلتتها وقد شلّها الرعب . . .

جفافُ حلقها والعرق المنهمر بغزارةٍ ووجيب قلبها المتدافع أخرجت وجه أمّها من العتمة فنادتها ولم تلبِّ. . حملت ذراعها الملفوفة بالجبس ومضت نحو غرفتها. . ولجت الباب وقبل أن تناديها بلغ أذنيها صوت تأوّهاتها وهمسها يطفو عليها لهاثٌ كفحيح أفعى أو نخير ثور، فصمتت. . تبيّنت في العتمة جسد أبيها يعلو أمّها. . أيّ أذى جديد؟. . . أرادت أن تعدو نحوها لتقف مجدّداً حاجزاً بينهما. . لكنّ شيئاً جعلها تلبث في مكانها وقد انقطع تنفّسها وازداد وجيب قلبها. . . حتى نهاية المشهد الذي لم تفقه منه شيئاً سوى أنّهما لو اكتشفاها وهي ترقبهما لانصبّ أذاهما معاً عليها. . انسلّت عائدةً إلى سريرها دون أن تجرؤ على إغماض جفنيها أو التفكير بعطشها. . .

نهضت رباب من استلقائها مسندةً ظهرها إلى الجدار، احتضنت ركبتيها وراحت تمرّغ جبهتها على عريهما. «أيمكن أن يكون ذلك قد حدث؟ أيّة دهاليز تلك التي أجوسها. . أوَيمكنني استعادة نفسي من هذه الفوهات الحالكة وتبيّنها في تلك المجاهل؟ ما من طريقٍ آخر! عليّ مواصلة التنقيب والبحث وصولاً للفضاءات المفتوحة والمكشوفة للضوء، لا يمكن أن أقعي على تلك الصورة البائسة مُذَلَّةً ومهانةً جاهلة، عليّ أن أمضي في النفق إلى نهايته وإلاّ. . عليك السلام يا رباب!»

لم يكن زمن التحريمات والممنوعات قد أتى بعد، رغم أنّ رجفة التقاء الجسدين قد بكّرت. . . ففي صراعها مع أحد أولئك الصبية الأقوياء تدحرجا على التربة طويلاً حتى تعفّرا وقد أصرّت على صرعه وإلقائه تحتها لكنّ العكس هو ما حدث، فلم تدرِ كيف غطّاها جسدهُ والتصق بها بالكامل محاولاً تثبيتها تحته. . اختلط لهاثهما واستكان. .

لثوانٍ توتّر جسداهما فاستحالا جسداً واحداً. . تراخت وفقدت حسّ المقاومة فخمدت بُرهةً، حمل إغماض جفنيها خلالها إلى عينيها صورةً غامضة عن ليلٍ مليءٍ بالتأوّهات واللهاث فانتفض كيانها دافعةً الجسد الطفليّ وقامت وقد اشتعلت وجنتاها ورداً تفتّح مبكّراً. . . وعلى حين غرةٍ جذبت رأسَها المنكّسة قبضةٌ شديدةٌ من شعرها، لمحت وجه ناصيف الغامض والغاضب وهو يشتمها ويصفعها بكفّه الأخرى. . جرجرها من شعرها حتى رماها أمام أمّها التي بُهِتت.

ـ ضبّي ابنتك قبل أن تثكليها!

صاحت الأم ناهرةً:

ـ ليست لك علاقةٌ بها! امضِ قبل أن أشكوك لأبيك.

ـ لا أنصحكِ، فلربّما ذبحها إن أخبرتُه!

التفتت إليها وهمست:

ـ ماذا فعلت أيّتها الملعونة؟

أجابت البنيّة صائحةً بعنفٍ وغضب:

ـ لا شيء يا أمّي، صدّقيني، لكنّه يغار منّي، ولا يريد أن ألاعب أحداً.

مضى ناصيف فسألتها الأمّ أن تحكي لها ما حدث. . . ضحكت وما لبثت أن ثابت إلى رشدها وهي تتأمل الصبيّة التي تنضج على مهلٍ مثل إجّاص المرتفعات، فأطلقتْ غضباً مصطَنعاً في وجه الصغيرة وقرصتها في عضدها قرصةً شديدةً وقالت ناهرةً:

ـ إيّاكِ أن تعودي لمثلها، العبي مع الفتيات وحسب!

كان أكثر ما يثير غضبها أن يشدّ أحدٌ شعرها الطويل المسترسل أو يجرّها من جديلتيها المضفورتين على جانبيها، كان نقطةَ ضعفها وافتراقها عن الصبية. . .

ـ أمي قصّي لي شعري .

ـ لمَ يا حبيبتي ؟

قالت الصبيّة مداهنةً :

ـ إنّه يزعجني !

أجابت الأم بصبر :

ـ لكنّه جميلٌ ويجعلك أكثر جمالاً . انتظري بعد سنتين أو ثلاثٍ ستتباهين به أمام صديقاتك وسيحسدنك على طوله وجماله ولمعانه .

فقالت بنزقٍ ساخطٍ :

ـ لا أريده ، قصّيه لي !

وأمام حرَنها المفاجئ صفعتها أمّها .

ـ اخرسي ! الفتاة يجب أن يكون شعرُها طويلاً .

أخفت وجهها وعينيها فقد طفر دمعهما دون إرادتها .

وفي الليل أمام مرآةٍ صغيرةٍ راحت تتأمّل . . كيف ومن أين ستقصّه ! لكنّها أطفأت النور وأمسكت المقصّ وأخذت تجزّه كيفما اتّفق دون عنايةٍ أو تفكّرٍ راميةً الخصل الطويلة جانب سريرها شاعرةً أنّها ارتاحت من أعبائه إلى آخر عمرها !

في اليوم التالي امتعضت أمها وغضبت وراحت توجِعها بضرباتها ولطماتها فما أبِهت ، أمطرها إخوتها بوابلٍ من سخريتهم وهزئهم فلم تبالِ بهم ، لكنّ أباها ضحك :

ـ هنالك خطأٌ ما جعلك بنتاً وما أنتِ إلا صبيٌّ !

ارتفعت الضغائن جدراناً سميكةً تفصل بينها وبين إخوتها وأمها . . ازدادت علوّاً وغلظةً مع الأيّام ولربّما ارتفعت بينها وبين ذاتها . . صار

للكراهية مذاقٌ مرٌّ ولاذعٌ كلّما تقدّمت بها السنون وأبدت تفوّقها في مدرستها وبزّت أترابها في كلّ الأمور. لكنّها في أرجاء روحها المحمومة والمحوّمة كانت ترضى... ربّما أدركت في وقتٍ مبكرٍ أن كلّ رغبةٍ تنتابها سيكلّفها تحقيقها معركةً حقيقيةً عليها أن تنتصر فيها ولا تتراجع أبداً. وهذا ما حصل إلاّ فيما ندر فجلجلت الضحكات في فضاءات روحها كلّما تردّد صدى كلماتٍ صارت لازمة...

«سيحدث... رغم أنوفهم!»

انقشع غيمٌ أسود وانفتح سردابٌ منخفض على مروجٍ تسطع تحت شمس ربيعٍ أول.. أزهرت أشجار المشمش والخوخ والدرّاق قبل تبرعُم أوراقِها فالتمعت أغصانها البنيّة النديّة تحت الشعاعات الزرقاء لشمسٍ خفيّة... عاودت ركضها وراء الفراشات وبحثت عن الزيزان الخضر في أجواف الشقائق الدموية الموشّاة بلطَخٍ سوداء لامعة.. راحت التويجات الهشّة تتقصّف بين أصابعها الغضّة فتصبغها بحمرتها القانية.. ركضت نحو شجرة خوخٍ فتيّة.. عانقت جذعها البارد فارتعدت مفاصلها وقد استحالت الشجرة بين يديها فتىً يسامقها... تلفح وجنتيها حرارة تنفّسه ويداعبهما زغبٌ أسود نبت على شفته العليا.. تضرّجتا وقد اكتشفت أنّ جذعها يطاول جذع الشجرة فارتفع بصرها لتفرّع أغصانها.. همت عليها زرقةٌ موشاةٌ بثلجٍ زهريّ يهطل وئيداً بين الأغصان التي تعانق الشمس.. سقطت زهرتان ورديّتان فتيّتان في عينيها وضغط الجذع الليّن الصلب صدرها فتفتّق وقد انعقدت الزهرتان عليه خوختين صغيرتين شديدتي الصلابة! أيُّ تغيّرٍ انتابكِ يا ذات الشعر المقصوص؟

وفي خَفَرها وهي تتلمّس زغب إبطيها وأسفل بطنها امتدّ برثنٌ جارحٌ فانتزعها من حقولها وأشجارها وشمسها وسمائها نحو التخم القريب!

رماها وراء الأسلاك والموانع وهي تستشعر استحالة اختراقها والعودة حيث كانت فالتفتت واشرأبّت عيناها إلى قمّة الجدار الجبليّ الناهض بتضاريسه الموحشة الوعرة القاسية. «هل أصل هناك وأعرف ما يختفي وراءه؟ . . .» وبين حنينها الموءود وعذاباتها الآتية وضعت قدمها على أول المرتقى وأعلنت.

«سأعبر . . . وسأصل، رغم أنوفهم!»

أحسّت أن ثمّة ما ينصهر في داخلها، «تبتسمين يا رباب رغم أساكِ، حسنٌ أنتِ على الدرب الصحيح إذن. كم مُرّغ أنفك بالتراب . . وكم نفضتِ التراب عنه!» رفعت رأسها وأنصتت، «هل يحدث القرع هنا أم هناك حيث أوالي رحلة العودة؟» استفاقت على خدر ساقيها، أرادت أن تقف وتتحرك قليلاً إلاّ أنّ ما دعاها في أعماق رأسها كان أقوى فأصغت إليه واتّبعته رغم الخدر والتشنّج الذي جعل أيّة حركةٍ في رجليها تدفع آلاف الدبابيس لتخز سطوحهما وتدبّ عميقاً في طول لحمها وعرضه . . .

تبكي وحيدةً في غرفتها المعتمة وقد واستها أمها وطمأنتها فرِحةً أنّ عهد طفولتها ولّى وعليها منذ اللحظة أن تتهيّأ لتصير أمّاً! ! سال دمُها ووشمها إلى الأبد بأنوثتها وخنَق نهائيّاً نزعتها لأن تكون نداً للأولاد الذين عيّروها بشعرها فيما مضى. انكفأت على نفسها خجِلةً من القدر المريب، وبين ليلةٍ وضحاها انقلبت المهُرة الجامحة إلى حمَلٍ وديع. لكنّها لم تغفر لأحد أبداً أنّها صارت كذلك، ووراء طواعيتها الظاهرة ولينها أخفت صلابةً عجيبةً وعنداً صخرياً وضراوةً غابيّة.

آلت على نفسها أن تكون شيئاً مخالفاً لأمّها وخالاتها وعمّاتها وبناتهنّ ورفيقات صباها! بحثت فيهنّ عن واحدةٍ فقط تشاركها بعض ما يعتلج في نفسها من غير أن تصرّح به أو تعلنه ووجدتها بعد لأيٍ. كانت ابنة

خالتها، سميّة العرجاء، شوهاء الساق التي وقفت سدّاً بين أمها وعصا أبيها فدفعت الثمن حتى آخر أيامها.

«ومثلما أيقظكِ الآن دمك المسال يا رباب دافعاً بك نحو صحوتك، كذلك فعل بك يومها حين كشف أمام عينيك الضريبة الفادحة التي عليك تأديتها حتى مماتك ثمناً لتفتّح جسدك وإعلانك حُرمةً بين النساء! ندبةٌ عميقةٌ تنكأ روحك كل شهرٍ وتُشهِر الجواب نفسه، لستِ قوّامةً على أحدٍ حتى نفسك مهما فعلتِ ومهما سعيتِ ومهما أنجزتِ! لكنّك أبيتِ ذلك. أهو ما أوردك موارد الهلاك؟ لا، لا يصحّ هذا لأني فصلتُ منذ البداية بين العيون التي ترصدني وترقبني وتشتهيني وتريدني كما تريد وتبغي وبين عينيّ اللتين أقرّتا بطبيعة تمايزي دون أن ينفي ذلك التمايز وجود قدَرٍ مستقلٍّ لي أبزّ فيه سواي!»

تضطرب الصور وتتداخل مجدّداً... كأنّ حلقةً قد اكتملت الآن وانعطف القوس لاصقاً البداية بالنهاية فضاعت نقطة الاتصال! أهو خيط الدم الذي ابتدأ الرحلة وواصلها، أم ثمّة ما تمخّض عنه فألغى دوره دون أن يلغي وجوده؟

«تظهر سميّة صديقتك الأثيرة قبل أن تكون القريب المقرّب. أيُّ شيءٍ جمعكما وشكّل روابط لا تنفصم بينكما؟ ما أجملكِ يا سميّة! تلتمع العيون وتنبهر الأنفاس وتحتدم الخصومات، فقد دخل حلبة الصراع وجهٌ جديد! غزالةٌ نفرت من قطيعها ملتجئةً لغديرٍ يرتاده البشر فصارت واحدةً منهم! بدت - رغم طفولتها - بقامتها الممشوقة والنحيلة وشعرها الفحميّ الكثّ الذي يغطّي ظهرها أكبر من سنوات صدارتها الستّ إلا أنّ عينيها كانتا أجمل ما فيها؛ ليلان عميقان دون قرارٍ سوى التماعة نجمين قصيّين في أغوارهما السحيقة حين ينفتح جفناهما فتظهر سعتهما وقد نترت رأسها بعنفٍ للأعلى لتردّ خصلة شعرٍ طويلةً انسدلت عليهما. كانت

محطّ الأنظار فصارت مثار شفقةٍ وأسف! بدت وحيدةً وقد انفضّ الجميع عنها إلاّكِ! فما كان مظهرها جاذباً لكِ بقدر ما قرّبكما حسّ تمرّدٍ ورثته دماؤكما من جفاء الصخور ولسع الصقيع الذي يهجم فجأةً حاكماً بموتٍ سريعٍ على الثمار والأشجار! ثمّ الأسى الذي يقتلع القلب وهو يقتلع الغراس والكَرْمة بوحشية الخسران الذي يحاذي نشدان الأمل في الصخر وعزلة الارتفاع والاتّحاد الذي يستولده التصاق الذرى بالسماء.. نفس السماء التي ستطفئ في بهيم ليلها القادم نجمةً كانتها سميّة وتحوّلها لفحمٍ باردٍ فقَدَ وهجَه الظاهر واحتفظ تحت سواد رماده المعفّر بدفء القلب وصلابة الروح التي لم تزعزها الأحداث ولا توالي الضربات! هل كانت سميّة وجهك الآخر يا رباب؟ أم أنّها أنتِ، وتحاولين الآن فصلها وتجسيدها، شخصاً آخر مفارِقاً يهبك حسّاً أرهف في تحديد ملامحك العصيّة المختفية تحت قسمات وجهك الذي غيّره توالي الفصول؟»

وفي مخاضها العسير أبت رباب أن توغل أكثر أو ما استطاعت أن تفعل لأنّ العتمة كانت تشتدّ حيث خيّم الظلام دامساً وتكاثف الضباب كلّما ظهر ضوءٌ يغمر متاهات الذاكرة التي تعانِد، لكنّها ارتاحت لفكرةٍ طارئة؛ طالما استعادت فضاءاتها الأولى فما عادت بحاجةٍ للحفاظ على تيقّظها الدائم وصحوتها المدمّرة ليذودا عنها ويمنعا أيّ عدوانٍ مرتقبٍ وجاهزٍ للانقضاض، كأنّما الأسلاك الحاجزة تبدّدت كخيوط عنكبوتٍ دهمتها ريحٌ شديدةٌ فاقتلعتها من أساساتها، وكأنّما الخنادق والموانع قد استبدلتها يدٌ خفيّةٌ بدروبٍ ممهّدةٍ تميل بها بهدوءٍ نحو سهولها المبتغاة. ما عادت أخيراً تريد شركاء في فردوسها المفقود والضائع، أدركت أنّها لا تستطيع الحفاظ عليه وحمايته إلا بمنعه عن الغرباء! وقد بدا لها الآن كما تشتهي فاسترخت مبتسمة، «مضى عالم الأشباح إلى غير رجعة،

وما عاد ثمة وحوشٌ تكمن خلف الأجمات لتنقضّ عليكِ وتفترسكِ أو يدفعها الجوع لمهاجمتك في عقر دارك . »

قامت على مهلٍ وهي تقاوم ممانعة خدر ساقيها المثنيّتين ، وقفت بعد لأيٍ وهي تتمتّع بإصرارها على الوقوف رغم الوخز الذي يزداد مع كلّ محاولة ، أحسّت أنّ ساقيها لن تحملاها أكثر من ذلك لكنّها واصلت محاولاتِها رغم وقوفها فوق شظايا دقيقةٍ لحطامٍ زجاجيٍّ سيخترق باطني قدميها وتنتقل رؤوسه المدبّبة عبر فخذيها إلى حوضها حيث تتطاحن في أحشائها وتزيد من نزفها المستمر . تخلّصت من إحساس الخدر فمشت خطوةً خطوة وراحت تذرع زنزانتها بخطىً وئيدةٍ دون أن يكون انعطافها حول نفسها مؤشّراً على ضيق المكان أو إمكان الارتطام بالجدران ، كأنّ مجالها اتّسع فأخلت العتمةُ والحدود القسريّة مكانها للضوء والفراغ المنتشر دون نهايات .

«ما عاد هنالك ما يقيّد حركتي أو يوجّهها أو يُكرِهني على فعل ما لا أريده أو الامتناع عن فعل ما أريد . . ما من أحدٍ ليكُمّ فاهي أو يضع منظاراً على عينيّ يحصر رؤيتي في ما يراه مناسباً لي أو يُخضع أذني للصوت الذي يروق له ، ما من كائنٍ يخترق مجالي ويفرض عليّ هواء تنفسه وروائحه ومنطق رأسه العفن أو ملمس كفّيه الكريهتين ! »

وفي غبطتها التي هطلت كوابلٍ اشتاقته طويلاً وعطشت لريّه زمناً مديداً خلعت ثوبها وانتزعت ثيابها الداخلية ، رشّت جسدها بالماء ووقفت ترتعش في عريها البهيج على وقع المطر المتساقط مع غبش النور الباهت الذي استحال بداية صباحٍ مغمورٍ بالضباب . . وعلى إيقاع رعشتها أخذ جسدها يختلج وينتفض موزِّعاً حركته على أوصالها التي رقصت على أنغام فضاء أشجارها المغدور !

مشهدٌ بدائيٌّ لامرأة الكهوف المنقرضة وهي ترقص أمام فوهة كهفها على خلفيّة ناره المشتعلة طقساً احتفالياً لإعلان اتّصالها بالكون المحيط وقطيعتها عنه بذات الآن، لأنّها تعرفه وتحاول التخلّص من سطوته بكلّ الوسائل والأشكال!

هدّها التعب والإجهاد فتهاوت منزلقةً على عرقها الذي اكتسح خلاياها ولهاثها الذي يبحث لرئتيها عن فيض الهواء، وقرعٌ شديدٌ والى صدْع رأسِها ودفَعَها لضغط صدغيها بإبهامها وسبّابتها، متكئةً على جانبها نصف مستلقيةٍ حانيةً جذعها فوق فخذيها. «أهو صدى خبط قدميّ على الأرض أم وجيبُ قلبي وقد تجمّع في صدغيّ، أم هل عادت الأشباح لتقرع رأسي بمطارقها الخشبيّة العملاقة مذكّرةً أنّ الحلم قد انتهى وآن أوان الاستيقاظ؟ أم أنّ أحداً يقرع بابي ويحاول اقتحام خلوتي؟» التفتت لعريها فسارعت لارتداء ملابسها، إلا أنّ الطرق الخافت تواصل وقد هدأت وتنبّهت حواسُّها ولاحقت مصدره.. فقادها نحو بابها البعيد!!

أصاخت السمع.. ما من صوت! خمدت الأصوات وتباطأ وجيب القلب وهدأ اللهاث. هل كان وهماً ما سمعتْه أم أنّه طرقٌ خفيٌّ من موقعٍ مجهولٍ يدعوها للانزلاق في سراديب أخرى لتكشف كثيراً من الخوافي التي تهاجم مخيّلتها آن اليقظة وآن المنام محاولةً صرفها عن بغيتها التي وضعتها نصب عينيها؟ كادت تنسلّ راجعةً إلى مكمنها فأوقفها القرعُ الخافت من جديد... تسارَعَ نبضُها وصار صدىً للقرع المكتوم، «لا ليس وهماً. ثمّة ما يتردد خلف الجدار!» ضمّت قبضتها في لحظة الصمت التي تلت وقرعت بطريقةٍ مماثلة... سرعان ما أتاها الجواب ولكن من موقعٍ منخفض. «لستُ وحيدةً إذن، هنالك من يشاركني الهواء والجدران التي تحدّ وتسقف فضائي.. احذري يا رباب! احذري السقوط في هوةٍ جديدة، كفى أنّك أضعت نفسك وتهتِ في مجاهلها حتى جهلتِ موضع قدميك!!»

عاودت بثّ ندائها وأتاها الجواب همساً خامداً شديد الخفوت مسحوقاً بين ذرات الإسمنت التي يخترقها متجمّعاً في الزاوية الصغيرة التي يتلاقى خلالها الباب والجدار! تراخت رويداً رويداً، استلقت ملتصقةً بالأرض حاشرةً رأسها في الزاوية تماماً وهمست بصوتٍ مبحوح:

ـ من هناك؟

فاجأها صوتُها. بُهتت، أرادت أن تضحك ابتهاجاً باستعادته لكنّها أصغت. كصدىً يتردّد محتبساً في جوف كهفٍ عميقٍ أتاها الجواب بطيئاً فراحت تجمع حروفه واحداً واحداً حتى اكتملت في لفظةٍ ذات دلالة:

ـ جارتك!

التبس الأمر عليها. للوهلة الأولى خطرت لها نسوة الجوار حول منزل أبيها وحول منزلها، مررن سريعاً دون أن يتطابق جرس أيٍّ منهنّ مع الهمس المتفتّت على الجدار كطلاءٍ جافٍّ ومتقشّر! سألت وهي تقطّع حروف سؤالها واحداً واحداً لتسهّل اختراقها للفراغ الكتيم:

ـ أية جارة؟

خيّم الصمت مجدّداً، فتنبّهت. «علّها تقصد الزنزانة المجاورة، كيف سهوتُ عن ذلك؟» قرعتْ مرّةً أخرى.. لم يأتِ الجواب فتوتّرت وزادت من حدّة قرعها حتى خشيت أن يتنبّه أحدٌ ما للصوت الذي خلخل السكون المهيمن، وفعلاً كان ثمّة خطواتٌ تقترب على مهلٍ بحذرٍ واحتراس.. هبّت واقفةً وقفزت إلى موقعها لصق الجدار المقابل للباب.

استلقت متصنّعة نوماً مخادعاً، توقّفت الخطوات في نفس اللحظة التي انفتحت فيها الشرّاقة المعدنية المجاورة بسرعةٍ وقوّةٍ أصدرتا قرقعةً مزّقت الصمت فهوى قلبها بين ضلوعها ولم تمهله ليستقرّ في موضعه إذ سرعان ما انفتحت شرّاقتها بالذات، ارتعش جفناها فأطبقتهما بشدّةٍ خشية

أن يظهر ارتعاشهما، تراخت حال سماعها صوت الإطباق دون أن تجرؤ على فتحهما رغم سماعها صوت إطباق شرّاقة جارتها.

«آهٍ ما أغباني! لقد قصدتْ جارتي في الزنزانة! الزنزانة؟ رباب أنتِ في زنزانةٍ إذن؟ أنتِ موقوفة؟ ما الذي فعلتِه فأوجب توقيفك؟ أخيراً بدأت العُقَد تتفكّك! أيّة دهاليز حاولتِ ارتيادها وأيّة أنفاق أصررتِ على اختراقها لمعرفة نهاياتها وعلى أيّة فسحٍ ستنفتح؟ استيقظي يا رباب! ليس ثمّة حلمٌ أو وهمٌ أو تخيّلات فالرعب الذي تسلّقك درجةً درجةً وأصاب رأسك بالقشعريرة رعبٌ حقيقيٌّ، مثلما هي تلك الجدران وهذا الفراغ المحصور الذي ترينه وتحسّينه وتشمّينه رغم جفنيك المطبقين، وحقيقيٌّ مثلما أتاكِ همس جارتك الآثمة الأخرى التي أرادت تبديد وحشتها وتخفيف أعبائها عن طريق الاتّصال بك فأعادت من حيث لا تدري صوتَك المفقود والغائب؛ جارتان معزولتان إذن وقد وحّدكما اشتراككما بارتكاب جريمةٍ ما . . . فعلٍ ما يعاقب عليه القانون! ما الذي جنته عليكِ يداك يا رباب؟ وما الذي جنته يدا جارتك؟»

انزاح الخوف على مهلٍ من جسد رباب وسال مع عرق خلاياها الناضح دون توقّفٍ فامتلأت بسؤالٍ تمدّد داخلها وراح يضغط على جدرانها الهشة. «ممَّ تخافين يا رباب؟» أقلقها السؤال وزاد من اضطرابها عجزُها عن إيجاد جوابٍ محدّدٍ له.

انزاحت الستائر، أضيئت مشاعلُ بدائيّةٌ على فجواتٍ أشبه بالكهوف تقود إلى ممرّاتٍ خلفيّةٍ خفيّةٍ دعتها للولوج، يدٌ شبحيّةٌ تقدّم لها واحداً من المشاعل لتستكشف مجاهل ينابيع ذلك الخوف وماهيّته! مدّت يدها لتمسك المشعل ورفعت قدمها لتخطو الخطوة الأولى لكن ثمّة ما أمسك بها من ظهرها وسحبها للخلف فسقط المشعل أمامها . . . اختفت اليد

الدخانيّة وتوهّج وقود المشعل المنسكب على الأرض فاختفت التفاصيل وراء لهيبه البرتقالي المتصاعد والمنتشر في كلّ الاتجاهات . . . احتارت بين أن تلتفت لترى من الذي منعها من الإقدام وبين إبقاء بصرها على الوهج خشية أن ينتقل إليها! قرّرت الالتفات وقد أدركت أنّ النار صارت حاجزاً يمنعها من العبور، وجدت عينيها خلفها؛ مقلتان شمعيّتان خامدتان تضرعان إليها أن تبقى خارجاً فلربّما لو عاودت الدخول لما استطاعت الخروج أبداً!!

كان دخولها مجدّداً رغم كلّ مخاطره يعادل ويطابق استمرار إحساسها بتفرّدها وحريّتها المستوحاة من عزلتها والمبنيّة وفق حجمها المختزل، واضطرارها للدفاع عن البراءة والعذوبة المستوهمة وعدم السماح بتلويثهما أو الافتئات عليهما، وهي عمليّةٌ يسيرةٌ طالما حافظت على توحّدها ولم تشرك أحداً بفضائها المتاح. لكنّ اكتشافها أنّ ثمّة عالماً يجاور ويلامس عالمها ويوالي وجوده وصيرورته رغماً عنها دفعها للتأكّد أنّه ما من مفرٍّ لمواجهته الآن أو بعد حين، فأدركت أنّ البقاء خارج باطنها هو الأمل الوحيد المتاح لها لتتمكّن من الدفاع عنه!

استجابت لعينيها وأكرهت رأسها على الإجابة عن السؤال العصيّ، من أين يأتي الخوف وما هي مصادره وكيف يفعل فعله في حنايا الروح؟؟؟

«ترى ألم يذهب بعد؟ هل عاد لمكانه أم أنّه يكمن قريباً في موضعٍ خفيّ؟» تساءلت وهي ترغب في مخاطبة جارتها وطرح السؤال الذي هربت منه وبقي يلاحقها، «حسنٌ، لنفترض أنّه اكتشفني أخاطبها، ما الذي سيفعله معي أو معها؟ أهو مخوّلٌ بمعاقبتي أو الإساءة إليّ؟»

هاجمتها أكفٌّ دون أذرعٍ راحت تنخسها وتصفعها وتشدّ شَعرها وتدفعها ثم تجمع قبضاتها وتشبعها ضرباً. لكنّ الأكثر إيلاماً.. السبابُ المقذع والشتائم البذيئة التي انهالت عليها من أفواهٍ دون وجوهٍ طوّقتها من كلّ صوبٍ والنظرات الوقحة التي وجّهتها إليها محاجر دون مقلٍ مملوءةٌ هزءاً وسخرية!

«من أنتم ومن الذي منحكم حقّ معاملتي على هذا النحو المهين؟! هل تناسيتم أنني كائنٌ بشريٌّ ولست دابّةً أو بهيمةً تربطونها بالسلاسل في حظائركم وتعاملونها بالطريقة التي تشاءون؟» بدأت تضيق ذرعاً بها وكادت تبادلها شتيمةً بشتيمةٍ وضربةً بضربةٍ ونظرة ازدراءٍ بنظرةٍ أشدّ تحقيراً، بدا لها ذلك حقّاً مشروعاً وهو الردّ الوحيد المتاح لها، لكنّها امتنعت.

«هل خفتِ مجدّداً يا رباب، وممّ؟ تذكّري أنك تقيمين في هذا الموضع الذي تتعرّضين فيه لكلّ ذلك الإذلال، فما عساهم يفعلون أكثر من ذلك؟ الموت؟ منذ متى صرتِ تهابينه؟ أما ازدريتِه دوماً واعتبرته معادلاً للولادة وأشدّ دلالةً ووضوحاً منها؟ ليس الموت! ماذا إذن؟ أليس غريباً أنّ الموضع الوحيد الذي أشعرك بحرّيتك هو الوحيد الذي امتهنك؟ أثمّة رابطةٌ ما أم خطأٌ في التصوّر والمحاكمة والحساب؟ أما تعرّضتِ لذلك في موضعٍ آخر، في مكانٍ آخر قبل أن تسقطي في هذا الشرك الذي لم تتبيّني حتى اللحظة كيف قادتك قدماك إليه أو كيف دُفعتِ نحوه فلفّك بشباكه قبل أن تحاذريه؟ لا، خارج هذا المكان كنتُ أدرك قيمتي وقدْري وأُعامَل وفقهما فما جرؤ أحدٌ على تحقيري أو إذلالي! تكذبين يا رباب، ليس ذاك ما حدث وليس هو ما كان! أما كنتِ توهمين نفسكِ بذلك إيهاماً؟ فما الذي كانته إذن ساعات الغضب التي كانت تنتابك وأنتِ

تمانعين البكاء وتحولّين هزائمك الصغرى إلى عدوانٍ على ما يحيط بك، فتحطّم يداك كل ما تطالانه؟ بدل مَنْ تلقّت الأشياء اندفاعاتك التدميريّة ونحو من كان يفترض أن توجّه؟»

أرادت رباب الهروب من تلك المواجهة وخشيت أن تعاودها حالات انفصالها عن ذاتها وتخلّعها عنها.. خافت أن ترجع الأمواج المتلاطمة لتتلاعب بها فتمنّت لو أنّ القدمين اختفتا لتواصل حديثها المنبتر مع جارتها. تضرّعت أن تقرع الجارة من جديد فما عادت ساقاها قادرتين على حملها وإيصالها للباب.

«ثمّة ما تغيّر فيك يا رباب! منذ متى فقدتِ صلابة إرادتك وقوّة اندفاعك نحو ما ترينه ضرورياً أو هاماً أو صحيحاً؟» عادت من الفراغ ومن موقعٍ مجهولٍ تراجيعُ صدى كلماتٍ مطحونةٍ جمعت من هبائها جملةً ما استطاعت إلى تفسيرها سبيلاً.

«رغم أنوفهم سيحدث!»

أدركت معاني الكلمات منفردةً ومعنى الجملة مترابطةً لكنّها لم تولّد في ذهنها أيّة دلالةٍ وظلّت غائمةً تتردّد، تظهر وتغيب.. تعلو وتنخفض دون أن تعرف كيف يمكن لها أن تصير فعلاً ما!

تنبّهت لانطباق جفنيها «هل أحلم؟ ليس حلماً يا رباب فأنتِ في كامل صحوتك لكنّ شططك ما عاد يسمح لك بتبيّن ماهيّة أحاسيسك أو تصوراتك، اغفي قليلاً عساك في رؤية حلمٍ حقيقيٍّ أن تميّزي جيّداً بين الحقائق والأوهام!!!»

«كم مضى من الوقت؟» لم تستطع رباب الإجابة حين عاودت أذناها التقاط النداء السرّي للقرع الذي استعاد نبضه مجدّداً، هبّت واقفةً وأرادت

أن تثب نحو الباب لكنّها تمهّلت، «ألا يكون فخّاً أُعدّ للإيقاع بي؟» لكنّ إلحاح القرع جذبها دون تبصّرٍ ودفعها للتخلّي عن كلّ حذر . . ودقّت.

ـ مرحباً! قال الصوت الممسوح والخالي من أيّ تعبيرٍ بعد ما تصفّى، واعتصر الإسمنت منه كلّ حياةٍ وانفعال.

ـ أهلا! أجابت رباب متلهّفةً جاهلةً إن كان علوّ صوتها كافياً لدفع كلمتها عبر الجدار والباب.

ـ اخفضي صوتك قليلاً كيلا يسمعنا الحارس مجدّداً!

هدّأها الصوت لكنّها حارت، أيكون صوت امرأةٍ أم صوت رجل؟ أيمكن أن يبتلع الإسمنت نبرة الصوت؟

ـ حسنٌ، ولكن من أنت؟

مضت برهة صمتٍ دفعت رباب لإعادة سؤالها، وقبل أن تفعل:

ـ جارتك في الزنزانة المجاورة، اسمي هند.

اندفعت رباب دون تمهّل:

ـ هند ماذا؟ لمَ أنتِ هنا؟ كم مضى عليك؟ وكم سيطول بقاؤك؟

تلاحقت الأسئلة مع ازدياد انفعال رباب بسبب خطابها لشخصٍ آخر مغايرٍ وغريبٍ بعدما أمضّها حديثها المتواصل مع نفسها وأشباحها!

ـ على مهلك! واحدةً واحدة، ألا يكفي مؤقّتاً هند؟ ولكن ما اسمك أنتِ؟

سارعت رباب:

ـ رباب عـ. .

ـ ما بالك؟ أليست لك كنية؟

صمتت رباب حائرةً في ابتلاعها لاسم عائلتها وقد كادت تطلقه

عفوياً. «لمَ أخفيه عنها وقد طالبتُها منذ لحظةٍ بالتصريح عن اسمها الكامل؟ هل أصابني حذرها بالعدوى فانتقل إليّ؟ هل سأخشاها أيضاً؟ لن أفعل ذلك، فلربّما امتنعت عن مخاطبتي إن أحسّت بذلك!»

ـ بلى، رباب عبد الجبّار.

ـ ولمَ أنتِ هنا؟

تمهّلت رباب، إلا أنّها قرّرت ألاّ تعاملها بالمثل:

ـ لا أدري حقيقةً!

أتتها من الطرف الآخر آثار ضحكةٍ خافتةٍ أو هكذا خيّل لها فدافعت عن نفسها:

ـ صدّقيني، لا أكذب عليكِ.

ـ لا! ألا تعرفين؟

تواصل الضحك مع الكلمات فاحتدّت رباب، لكنّها سيطرت على انفعالها.

ـ وأنتِ، لأيّ شيء؟

توقفت الضحكة وحلّ صمتٌ مؤقّتٌ قطعه الجواب سريعاً:

ـ قاتلة! يقولون إنّني قاتلة!!

أجفلت رباب، ما الذي تعنيه اللفظة؟ بحثت في مخزونات ذاكرتها، فتحت ملفّاتها وقلّبت صفحات قواميسها دون فائدة. تنبّهت لأمرٍ غريب، هل هي فعلاً ما تدّعيه أم أنهم يتقوّلون ذلك عليها ويلصقونه بها؟ أرادت أن تسأل إلاّ أنّ جلبةً معتادةً طرقت أذنيها فابتعدت آلياً عن الباب وانزوت في مكمنها انتظاراً لوجبة الطعام!

وببطءٍ ازدردت الكلمة مع طعامها المتقشّف وبدأت تعي معناها، «ترى روحَ منْ أزهقتِ يا هند؟ ولمَ؟ أهنالك ما يسوّغ قتل إنسانٍ أيّاً كان الدافع؟» غُصّت، هل الطعام هو السبب أم شيءٌ آخر توارد لذهنها؟ لم تتبيّن ذلك فوالت تفكيرها.

«ليس ثمّة ما يسوّغ، لكنّ القتل يحدث. تتباين أسبابه ودوافعه، وتجدين نفسك مضطرّة للقبول بتسويغات بعضه واعتبارها ردّ فعلٍ طبيعيّاً، لكنّ ذلك يحدث دوماً بعد الفعل ولا يأتي أبداً قبله. كيف يُجري الفعل بحدّ ذاته ذلك التحوّل في الموقف؟ أهو التعامل مع أمرٍ واقعيّ صار بحكم المفروغ منه ولا يمكن تجنّبه، أم اختيار البديل بينما يجد المرء قبيل حدوثه أنّ البدائل متاحةٌ ومفتوحةٌ ومتوفّرةٌ حتى لو لم تكن كذلك فعلاً وواقعاً؟» وعلى إيقاع فتح الأبواب وإغلاقها والأصوات الناهرة والحاقدة لحمَلَة مفاتيح الأقفال حملتها الذاكرة بعيداً... حيث الكثير من السلال الضخمة المغطّاة بأغطيةٍ مُحكَمةٍ من ذات القصب المجدول تدعوها لفتحها واكتشاف محتواها!!!

فتحت الغطاء الأول بيسرٍ متناهٍ فانبعثت من العتمة رائحة رطوبةٍ وعفونةٍ خانقة، أطلّت برؤوسها ديدانٌ سوداء تنغل في وسطٍ رماديٍّ عديم القوام. لا قصاص للخيانة إلاّ القتل!

لعلع صوت جدّها الجهوريّ وقد سحب جثّةً من قدميها مربوطةً بحبلٍ مشدودٍ خلف فرسه الدهماء. حلّ عقدة الحبل في ساحة البلدة وخلّف الجثّة المعفّرة المرميّة برصاصةٍ وحيدةٍ بين العينين؛ كان شحادة مجرّد فارٍّ من وجه العدالة، ورغم شجاعته وما أبداه من مظاهر المروءة والنخوة والرجولة فهو لم يترك أثراً طيّباً في نفس العجوز اليقِظ والحذِر فأبقاه تحت رقابة عينيه الثاقبتين، لم يدعْه يغب عنهما دقيقةً واحدة! كان فيه شيءٌ مريبٌ ربّما كان يعكس قسوته وطبيعة الحادثة التي لوحق بسببها

حين قام بتهريب شابتين يهوديتين، وبدل أن يعبر بهما الحدود قابضاً أجره حسب الاتفاق المعقود قام باغتصابهما وذبحهما وسلب ما بحوزتهما من مالٍ ومصاغٍ ذهبي! ولولا أنّه استجار به لما قبِل بأيّة صورةٍ أن يضمّه لمجتمع المطارَدين والهاربين، ومع ذلك فما قبله إلا بشرط ألاّ يطيل المكوث.

غافله يوماً وقايض غضّ طرف الحكومة عنه بتحوّله إلى دليلٍ يقودها لمواقع المطاردين ويعيّن مواقيت تحرّكاتهم ونقاط ضعفهم. فلسف الجدّ ذلك بحسب رواية أمّها على النحو التالي:

ـ لا يكون القصاص إلا حين يذكّر البشرَ باستمرارٍ بسوء الفعلة التي استدعته وشناعتها، وهذا يستوجب إبقاء العقوبة والفعل حاضريْن ليس في الذاكرة وحسب، بل في مجال الرؤية والسمع. ليس الأمر مُثْلةً أو نكالاً بقدر ما هو تذكرةٌ دائمة! أمّا الخيانة ففعلٌ يستوجب الوأد والدفن في الحياة والذاكرة معاً كيما يخرج من دائرة التفكير!

كانت عمليات القتل التي ارتكبها معدودةً، ترتبط مباشرةً بالدفاع عن النفس، ففيها كان دوماً إما قاتلاً أو مقتولاً. ما أحبّ أن يكون الأخير، لكنّه في ذات الوقت خلّف كثيراً من المشوّهين الذين بقوا عبرةً لأنفسهم ولغيرهم.

أدارت الرائحة رأسها فأغلقت السلّة ورجت أمّها أن تأخذها وتمضي بها بعيداً لتعيدها إلى جدّها الذي أبى في آخر أيّامه إلاّ أن يموت قتيلاً، بعد ما كاد المرض يقعده وربئ بنفسه عن انتظار الموت.

«أهنالك خياناتٌ ما في حياتك يا رباب؟» أوجفت للسؤال. هزّت رأسها نافيةً، فهي لا تريد أن تكتشف أو تعلم إن كانت هنالك خيانةٌ لم تعالجها بالدواء الناجع الوحيد اللازم. لكنّها لم تستطع رغم ذلك إلا أن

تلتفت للضحكات الكثيرة التي قهقهت حولها وما دَرَت من أين! تهزأ منها ساخرةً من محاولات رفضها الطفولي لما تكره وجوده.

«اصمتوا! ما من خياناتٍ في حياتي، ولا يمكن أن تكون قد حدثت ومررتُ بها مرور الكرام من غير أن أتوقّف عندها ومن غير أن تتحول لأرقٍ دائمٍ ومقلقلٍ!!» لكنّ الضحكات استمرّت وتوالت تجلجل في أذنيها. عبثاً أصمتّهما فراحت تنفض رأسها وتهزّه يمنةً ويسرة، فهنالك ما أغلقت جفنيها عليه ولم تستطع فتحهما حذرَ مشاهدته... دفنته عميقاً وأهالت عليه أطناناً من الرمل والحجارة كيلا يظهر أو تفوح روائحه. عبثاً تحاول استعادته وعبثاً يلوح. أحسّت به وما أمسكته أبداً!!

«هل قمت بفعلٍ مشابهٍ أم أنّك تعرضت له؟ لا، لا يمكن لرباب أن تقوم بفعلٍ كذاك! ليست معدةً ولا مؤهّلةً للقيام به› لربّما تعرضتْ له إذن. إن كان قد حدث فأين وكيف ومتى ومن الذي قام بفعله؟ أسئلةٌ لا جواب لها عندي!!» مع ذلك كانت الخيانات تعشّش حولها وتلتفّ على عنقها كحيّات ماءٍ لا تتوقّف ولا تستقرّ. كان لبعضها مسميّاتٌ واضحةٌ اضطرّت لابتلاعها باعتبارها معايير عامة، محالٌ مناقشتها أو الإشارة إليها بطبيعتها الحقيقية. أما غالبيّتها فقد كانت مغلّفةً بأغلفةٍ مناقضةٍ لجوهرها وما كان لها أن تسفر عن وجهها الحقيقيّ! وعلى هذا فقد رفضت الفكرة بكلّيّتها وسعت لإبعادها عن ذهنها فمضت مصرّةً على التخلّص منها مع بقايا الطعام الذي أزالته من صحنها وهي تغسله ظانّةً أنّ فكرتها تلك مضت معه.

تركت الماء يسيل، أصاخت السمع لصوت ارتطامه بجدران المرحاض وقد استولى عليها وحملها على أمواجه...

كانت الثلوج قد ذابت واستحال تدفق الأمواه من المرتفعات إلى سيولٍ قطع أحدها درباً يقود إلى تلعاتٍ التمع اخضرار عشبها وقد خالط

لونَ التربة المُشبعة بالندى فالتمعت كحبّاتٍ متلاصقةٍ ومتراصّةٍ من الكستناء الطازجة . . . وقفت مبهورةً أمام الماء المنهمر بوحشيةٍ جارفاً الحصى والرمل وبقايا الأعشاب هادراً تصطفق مويجاته فترتفع قطراتٌ كبيرةٌ من الماء وتهبط على ماءٍ جديد . . . كانت سميّة تقف وراءها مستندةً على ساقها السليمة وقد رمت سلّةً قصبيّةً حملتها لتجمعا فيها معاً بواكير البنفسج والنرجس البرّي . وقفت خلفها كظلّها أو كحارسٍ شبحيٍّ لاندفاعاتها المجنونة!

ـ سميّة، ألا نستطيع اختراق الماء؟

اقترب الظلّ من الصوت الهامس المنفعل لمرأى الماء في هيجانه وألقى بكفّه على كتفها محذّراً :

ـ لا يا رباب، لا نستطيع وليس لنا أن نفعل .

اقتربت القدمان من تخم الماء فأصاب رشاشُه وجهَها وتقلّصت الكفّ على الكتف فتوقّفت القدمان .

ـ ليته كان أبطأ . . . وليت ارتفاعه أقلّ!

أرادت أن تواصل سيرها عبره واثقةً من أنّها ستتشبّث بالأرض ولن يجرفها في ما يجرف وستقدر على اختراقه نحو الضفّة الأخرى . لكنّ الكفّ الحارسة لم تصغِ إليها، انتشلتها من غيهب الغمر قبل أن يحيط بها ويبتلعها .

ـ لماذا يا رباب؟ هنالك الكثير من الجمال والروعة يستحقّان أن يتحمّل المرء الكثير ليتملاّهما عن كثب!

استند الكائن المعافى على الهيكل المحطّم واتكأ على ظاهر العجز الملوم .

ـ أنا لا أستطيع أن أقبل مثلكِ يا سميّة ما تسمّينه حظّك العاثر أو قدَرَك المكتوب ولا أستطيع احتماله مثلك!

لكن العجز الظاهر المتكئ على عاهته كان أشدّ صلابةً وأمضى إرادةً من المعافى.

ـ ليس من عادتك يا رباب التمسّك بظاهر الكلام، ما أدعوه حظّاً عاثراً أو قدَراً هو حادثٌ حدث وما كان بالحادث العرضيّ. لربّما كان مدعاةً لتحطيمي؛ فتاةٌ جميلةٌ حوّلتها ساقها المشوّهة إلى قطعة أثاثٍ مهملة في بيت أبيها لا همّ لها سوى انتظار الموت بعدما فقدت الأمل بتلمّس شيءٍ مغايرٍ للشفقة والرأفة الكريهتين في عيون الناس. لم أفترض أنّه الوضع الطبيعي لكنّه استحال كذلك فعلاً، فلم أهرب منه وأتخفَ عنه! حتّى الأطفال الذين أعلّمهم وأمنحهم ما حُرِمت من تقديمه لغيرهم، لا أسلم من أذى هزئهم ووجع سخريتهم التي تصل حدود اللؤم في بعض الأحيان، لكنّي ورغم كلّ ذلك وجدتُ ما أذود به عن نفسي وأُبعد به عن عيني شبح الشوهاء التي تلبّستني وتركت قلبي خاوياً يائساً ممّن يبادله حناناً بحنانٍ واهتماماً باهتمامٍ ورعايةً برعاية، بتّ أكره مجرّد تخيّل رجلٍ يحبّني.. تحسّباً من نظرة إشفاقٍ في عينيه أو لفتة نفورٍ من بشاعة منظر ساقي، ولو أنّي أرى في عيونٍ كثيرة جوعاً لجسدي، كأنّما قضاء ليلةٍ في فراشي تجعلها تغضّ النظر عن الساق الملعونة! عِفتُ ذلك كلّه ورغبتُ عنه ولكنّني لا أستطيع تصديق عجزي عن أن أكون أمّاً وألاّ يكون لي طفلي الخاصّ.. ولا أملك قدرة فقدان الأمل به!

ـ ولكن...

أرادت رباب أن تقول شيئاً تخفّف به عن صديقتها أثقال بؤسها المقيم، لكنّها أطبقت شفتيها على قلقها الذي لم يتبدّد أمام اليائسة التي

لا تعيرها انتباهاً كأنّما تناجي نفسها وقد توقّفت هنيهةً لتلتقط أفكارها وتتابع:

ـ هل تصدّقين يا رباب أنّني فكّرت بدعوة أيٍّ من تلك العيون لقضاء ليلتها المشتهاة علّها تعلق حملاً في أحشائي! ألدهُ معافىً رغم نظرات الاشمئزاز ونار الثأر التي ستلتمع في العيون وعلى شفرات السكاكين! لم أخشَ على نفسي ذبحاً محققّاً ولكن خشيتُ عليه ميتةً وشيكةً أو حياةً أبشع منها!

استعادت رباب مشاركتها لصديقتها:

ـ لمَ التشاؤم يا سميّة؟ لقد صمدتِ حتى الآن ومنحتِ حياتك معنىً بالتصاقك بأطفال الغير. هي مرحلةٌ مؤقتة، لا بد أن يكتشفك من يعشق روحك المكافحة من غير أن يُقذي شوَهُ جسدك عينيه. لشدّ ما ألوذ بك.. بقوّتك وصلابتك. لمَ تريدين حرماني من ذلك كلّه؟

ابتسمت سميّة واغتنمتها فرصةً لإزاحة الغيوم السوداء التي لفّتهما معاً:

ـ عظيم! وتلك فائدةٌ أخرى من وجودي العبثيّ والنافل تجعلني أتمسك بحياتي كما هي دون شكوى أو تذمّر... استندي إليّ يا أختاه. لا أدري لمَ تخطر ببالي مع فارق التشبيه حكايةُ الأعمى الذي حمل على كتفيه كسيحاً فصارا جسداً واحداً لا يخلو من غرابة!

ضحكت رباب رغماً عنها:

ـ أليس غريباً أن يكونا رجلين؟ لِمَ لمْ يختر الراوي رجلاً وامرأة؟ لن يكون مهمّاً ساعتها أيّهما الضرير وأيّهما الكسيح.

أجابتها سمية سريعاً:

ـ كيف لا؟ قد تفضُل إحدى الحالتين على الأخرى، لكنّهما سيتدبّران أمرهما بشكلٍ حسنٍ معاً!

اختفى السيل واختفى ربيعٌ على وشك الإزهار؛ امتطت سمية ريحاً قادتها بعيداً وحمّلتها فيما بعد أعباءً لم تستطع تحمّلها. بقي الماء يسيل مذكّراً بضرورة إغلاق الصنبور انتظاراً لوجبةٍ أخرى.

أغلقت صنبور الماء وعادت إلى مجثمها. «ما الذي قلقل سكينتك المؤقّتة يا رباب؟ ما الذي عاود إخراجك من عالمك الجميل، من رقصك العاري في فضائك المستقلّ؟ أما كسرت قيودك ووقفت وحيدةً دون رعبٍ ولا خشية؟ من الذي حاول أن يشوّه عالمك ويلوّثه؟ ألا يستحقّ الجهد الذي بذلتِه لتحقيق ذلك بعضَ الوفاء والقليل من الذود والدّفاع؟ أيُعقل أنّك ما فعلتِ ذلك؟ لا، لا يمكن!

بدأت رباب تستعيد عافيتها، وبين الأسى والفرحة المعذّبة نظرت بسخطٍ إلى الزاوية المحشورة بين الجدار والباب، «ما أكرهك أيّتها الجارة وما أشقاكِ! لمَ ترغبين بحرماني من بُرهةٍ تقتُ إليها طويلاً وتريدين بثانيةٍ واحدةٍ مصادرتها وانتهابي وتجريدي منها وممّا يبرّر وجودي ويضفي عليه معنىً ما؟»

عاودتها أطياف السلال بقصبها اللامع النديّ رغم صفرته الشاحبة، كانت ترفع قامتَها فتتطاول على رؤوس أصابع قدميها كيما تصل إلى أغطيتها محاولةً فتحها رغم معرفتها المُسبَقة بمحتوياتها وهي مقعيةٌ في عتمة المخزن المليء بالتبن وأكياس الشعير والحنطة والبقول، منتصبةً كعرائس الأحلام البحريّة تدعوها دوماً لاكتشاف كنوزها المخبوءة، حائرةً.

«هل ستخرج من هذه ثمراتُ السفرجل الخضراء التي تشوبها الصفرة وتغزوها تحت غلالة وبرها البنيّة الفاتحة فتفوح روائحها المختزنة التي تملأ الخلايا بشذاها وتستقطر لعاباً يجفّ سريعاً من ذكرى الغَصَص المرافِق لطعمها ولدانة لحمها الذي يمتصّ كإسفنجةٍ ماء الفمِ والحلق، أم تُراها تلك التي ستخرُج منها حبّاتُ الزبيب الشقراء التي تشفّ حتى تكاد تُظهِر النوى المختبئة في لبّها العسليّ فتستدرّ اللعاب وتُدبِق الأصابع بمجرّد لمسها؟ وأخرى تفيض بقلوب الجوز الذي تُسكِر رائحته أو اللوز أو عقود التين المضمومة مضغوطةً متلاصقةً يخترقها خيط القنّب المحلّى بذوب سكّرها . . أو كرات النحاس التي تحوي ماساتٍ زهريّة اللون بعضها حامضٌ وبعضها حلو؟»

وعاودتها رؤىً قديمةٌ فنسيت سلّة الديدان السوداء، خَطَتْ لتفتح سلّةً ثانيةً وقد منّت النفس بلُقَىً تعيد إليها فرح طفولتها المغدور. عالجت الغطاء فتحرك دون صعوبةٍ وقد لحظت أنّها تنحني بجذعها فوقه وما عادت السلّة بطولها الفاره تقارب سرّتها، «كم كبرتِ يا رباب! أيّة طفولةٍ تلك التي تلاحقينها؟ لقد غابت كلُّها وربّما وجدت لنفسها سلالاً تختبئ داخلها في أماكن قصيّةٍ وخفيّة . . لم يبق منها سوى شعرك الذي لا يجاوز طوله شحمتي أذنيك!» رفعت الغطاء.

«أيُّ كنزٍ ينتظرني؟ ليس ثمّة ما يذكّر بماضٍ بعيد، لا نكهة ولا عبق ثمرات الطفولة المجنيّة والمجتثّة، ليس سوى ضبابٌ معفرٌ بالسخام لا يتصعّد لثقله . . . غريبٌ عن ضباب المرتفعات الساطع والناصع الذي يمتصّك ويجعلك جزءاً من طقس البرد المألوف والمعتاد ولا يشعرك البتّة بالوحشة والغربة اللّتين أشعرك بهما ضباب المدينة الأسود الخانق دون ليل! هربتِ من غربتك الداخلية في بلدتك التي أطبقتْ على روحك

حصاراً يليه حصار وسقفاً يعلوه سقفُ لونِ السماء وحدودِ الغمام فأدخلكِ في غربةٍ مضاعفةٍ وتهتِ في الزحام» .

لكنّ المدينة ظهرت بعدما أزاحت بكفّها الطليقة ضبابَها المخيّم ، ولم تطاوعها كفُّها الممسكة بالغطاء على إعادته لتغلقه على أمنيةٍ لم تتحقّق !

تردّدت . لكنّها أبصرت ، وهي تنظر من علٍ إلى الرقعة الهائلة المنبسطة تحت قدمي جبلٍ ارتفعت قمّته ، وقد اختفت الخضرة من تخومها لولا بقعٍ لا تبين ، خيطاً من دمٍ يمشي كدليل طريقٍ فوق خارطة مدينةٍ مجهولةٍ يقود من موقعٍ نحو موقعٍ دون حاجةٍ لسؤالٍ أو دليل . أزالت ما بقي من تلوّث الأجواء وهبطت رويداً رويداً كأنما هي معلّقةٌ بمظلّةٍ أحكمت توجيهها فأنزلتها حيث شاءت .

بدت معالم الكليّة المألوفة ، حين لم تكن مألوفة . حديدٌ وإسمنت ، شرائح الألمنيوم التي تطوّق زجاج النوافذ والأبواب العريضة ، أدراج الرخام الواسعة ، متاهات الممرّات والطوابق والأبواب التي تُخفي وراءها قاعات الدرس والمدرّجات والمخابر المتنوّعة المجهّزة بأدواتها اللامعة البارزة بوضوحٍ على خلفية بورسلانٍ ناصعٍ يجعل ضوء النهار أكثر وهجاً وبريقاً . ضائعةٌ مبهورةٌ في أجواء لا توحي بالثقة والاطمئنان وقد حذّرتها راوية ، صديقتها التي سبقتها قبل عامٍ إلى دخول عالم الجامعة المفارِق والغريب عن عالم المدرسة بكلّ ما فيه ، من الانزلاق السريع ـ وهي التي تعرف تهوّرها وطيشها ـ في عالمٍ مجهولٍ دون رويّةٍ ومن غير معاينةٍ وتعرّفٍ عن كثب ، مؤكّدةً على ضرورة الحرص في اختيار الصحبة وبناء العلاقات ! لكنّها وفي اندفاعاتها لم تولِ قول رفيقتها أيّ اهتمام ، فاقتحمته ، كارهةً أن تكون وجهاً غريباً بين وجوهٍ غريبة .

فاجأتها أنهار وقد اصطدمتا على مفترق ممرٍّ رئيسيٍّ وممرٍّ جانبيٍّ يقود إلى قاعة المطالعة ؛ كانتا مسرعتين ، تحملان أعباء مختلفةً ومتنوّعةً

وسواعدهما مليئةٌ بالدفاتر والكتب والرداء الأبيض. وفي الصدمة وقد سقطت أحمالهما انزاحت الأعباء مع الاعتذارات المعتادة، لكنّهما وهما ترفعان ما تناثر لاحظتا أن كلّ واحدة منهما اهتمّت برفع ما يخصّ الأخرى! تطلّعتا من قوس انحناءتيهما باسمتين.

ـ كأنّنا على موعد! قالت أنهار وقد احتقن وجهها بدم انحناءتها.

ـ لمَ لا؟ هل نتناول فنجان قهوة؟ ردّت رباب سعيدةً من غير أن تشعر بالتطفّل فهي لا تفرض نفسها البتّة على الصديقة الجديدة.

ـ سيكون رائعاً بصحبتك، تمنّيتُ محادثتك منذ زمنٍ ولكنّي أراك دائمة الانشغال محاطةً بكوكبةٍ يصعب عليّ اختراقها أو التآلف معها!

ضحكت رباب قائلةً:

ـ لا تبالغي، أسعى وحسب لاختراق حصار عزلتي بطريقةٍ قد تبدو فجةً ومستهجنة، لم أستسغ أن يرغمني جهلي بالآخرين على البقاء بعيدةً عنهم.

أجابت أنهار مندفعةً:

ـ تبدو طريقةً غريبةً حقّاً، لكنّها توحي بإقدامك وبسالتك.

كانت القهوة.. وصارتا صديقتين حميمتين. حكت أنهار عن كرهها، ورفضها التمتّع بثمرات سلطان أبيها ونفوذه الذي تُحسد عليه، وأبدت مُقتها للاحترام الزائف الذي يوليه الناس لها إكراماً لاسم أبيها ومركزه أو تهيّباً منهما. لكنّها ورغم ذلك لم تستطع مخالفة إصراره على ركوبها عربةً خصّصها لها مع سائقٍ شابٍّ خجول!

اعتذرت عن دعوة صديقتها إلى منزلها معلّلةً ذلك بعدم رغبتها بتلويثها بأجوائه القبيحة والفاسدة! لم تهتمّ رباب بذلك، فقد تواصلت مع أنهار

وتوطّدت صداقتهما خارج منزليهما، كان حسّ التمرّد ورفض الانصياع دافعيْن مشتركيْن لالتصاقهما رغم التباين الظاهري الشديد بين شخصيتيهما!

ـ أنهار، لمَ تبدين اهتماماً زائداً بمظهرك الخارجي.. ثيابك وزينتك؟ أليسا قيدين غير محسوسين يأسران عفويتك وانطلاقتك ويستهلكان وقتك؟

ـ أريد إحاطة نفسي بكلّ ما هو جميل، لأبُعد عن عينيّ كلّ ما هو بشع! ربما تبدو في القول مغالطةٌ فادحة، لكنّي لا أجد ما أواجه القباحة بغيره!

لم يكن القول مقنعاً...

ـ لكنّك جميلة، من غير مجاملة، وفي غنىً عن اللمسات الإضافيّة! أتحدث أساساً عن الوقت المهدور!

ـ أعرف يا رباب، لكن ما الذي أستطيعه حيال وقتي المهدور؟

ـ تنمّين وعيك وتكملين نواقص معرفتك، تبحثين عن آفاق جديدةٍ لحياتك.. ألا يكفي ذلك كبداية؟

ابتسمت أنهار بأسىً:

ـ ما فائدة ذلك؟ لطالما تحدّثنا، اختلفنا واتّفقنا ثم عاودنا الاختلاف. ثمّة ما يبدو باطلاً، أحظى بكلّ ما يتمناه المرء ويسعى إليه بكل الوسائل، لكنّني لا أجد فيه شيئاً إلاّ ضياعاً واستراقاً كامليْن؛ تدرسين وتشقين لتنالي شهادتك، تعملين ـ إن وجدت عملاً ـ لتعيشي بشكلٍ لائق! هل سيتركونك لحالك؟ فكيف إن فكّرتِ وحاولتِ إضفاء معنىً ما على حياتك؟

ـ نصير متاعاً مثل الجميع يا أنهار؟

احتدّت أنهار:

ـ هل نحن غير ذلك؟ هل نجرؤ أن نكون غيره؟

لكنّ أنهار كانت تقيّم نفسها بصورةٍ متميّزة ولا تقبل أبداً أن تُمتَهن، وقد حاربت نفسها وأجواء أسرتها المفروضة دون هوادة، ودون هدفٍ أيضاً!

حين تغيّرت فجأةً، لم تُفصح أبداً عمّا يدور بخلدها أو عن مسبّبات تغيّرها حتى أعيت رباب!

ـ راوية، أنهار تتغيّر بصورةٍ مريعةٍ لا تثير قلقي بقدر ما تثير رعبي!

ـ كيف ذلك يا رباب؟

ملهوفةً أجابت:

ـ لا أدري تماماً.. تتزايد عزلتها حتى أحسّها تتحاشاني وتنفر مني! فوق ذلك تتدهور صحّتها بشكلٍ ملحوظ، يغزو الشحوب وجهها وتهزل يوماً وراء يوم. الأهمّ أنّها ما عادت تعتني بمظهرها، أقصد أنّ اهتمامها بات متكلّفاً وما عاد ينمّ عن ذوقها الأصيل ورهافتها العفويّة في اختيار ما يناسبها! باتت تشبه كثيراتٍ لا يتميّزن عن عارضات الأزياء!

أنصتت راوية باهتمام محاميةٍ متدرّبة.

ـ ألم تسأليها؟ ألم تسألي أصدقاءها؟ أما لاحظتِ تغيّراً في علاقاتها مع أحدهم؟

سارعت رباب لإطلاق إجاباتها:

ـ لم تُجِب، جافتْ إلحاحي، استغرب الجميع تبدّلها ونأوا عنها بالمقابل!

صمتت راوية زمناً حتى أكملت رشف قهوتها متملّيةً رباب التي لم تستقرّ انتظاراً لرأيٍ يهدّئ روعها ويعيد إليها الطمأنينة، تحدثّت وهي تحاول انتقاء ألفاظها كيلا تزيد من قلق صديقتها:

ـ ربّما تمرّ بحالةٍ طارئةٍ عرَضيّةٍ ومؤقّتة. أنتِ تعرفينها جيّداً وتعرفين أيّة انشطاراتٍ تمزّقها بين اضطرارها القسريّ للخضوع لانتماءاتها الأُسريّة وبين رفضها لها، بين ما تبحث عنه وبين ما تصطدم به. لا شكّ أنّها مأزومة، ربّما تعبُر أزمةً عاطفيّةً حادّة لا ندري عنها أيّ شيء. إن كانت الأمور هكذا فهي طبيعيةٌ ولا تستثير أي قلق.. ولكن!

ـ لكن ماذا يا راوية؟

أردفت راوية بعد تمهلٍ قصير:

ـ دعينا نأمل.. أنّها لا تتعاطى عقاراً ما، هرباً من مواجهاتٍ تعجز عنها أو لا ترغب في تكبّد مشاقّ وأعباء تحمّلها!

اندفعت رباب مدافعةً:

ـ لا، أنهار ليست من هذه الطينة ولا يمكن أن تكون.

أجابت راوية بهدوءٍ حاولت عبره السيطرة على انفعالات رباب:

ـ هي ليست من هذا النوع حقّاً، لكنّ الظروف هي التي تتحكّم بطبيعة الشخص وربما أرغمته على فعل ما يرفضه ويناقض قناعاته وبنيته وشخصيته!

أوجفت رباب وتوجّست مثلما تفعل الآن وهي تلاحق خيط الدم الذي يقودها من الكلّية وتتبعه فوق الشوارع وبين المنعطفات...

«كيف انكشف كلّ ذلك وأضاء أمام عينيك يا رباب؟ أسلّةٌ تلك أم عينٌ سحريّةٌ استحالت شريط فيديو ترينه الآن كما لو أنّه صوّر منذ دقائق؟ أهو واضحٌ بتفاصيله الغبيّة لأنه بقي حاضراً وراهناً بالنسبة لكِ أم لأنّ زمناً طويلاً لم يمرّ عليه ويطوهِ في ثناياه أم لأنّ جرحاً نزف وما توقّف حين توقّف قلب أنهار عن الخفقان؟»

اعتصرها حزنٌ طازجٌ أسقط الغطاء من كفّها . . غامت المدينة وغابت في قعر السلّة كأنّما حمل عينيها جنحان قويّان تسلّقا بهما بسرعةٍ أبعدت عنهما المشاهد وأضاعت تفاصيلها خلال ارتفاعهما المفاجئ ثمّ هوت بسرعةٍ فائقةٍ فأخذت المشاهد تكبر وتكبر حتى كادت تبتلعهما قبل أن يسملهما رمحان منتصبان ما استطاعتا أن تحيدا عنهما . . .

«أتى النبأ كإعصارٍ اجتاحني فزلزل كياني؛ مضت أنهار! أضناني البحث عنها فاستعدت توازني إلى أن سألتُ شاهدة قبرها كيف حدث ذلك، فعاودتني زلزلةٌ أشدّ وطأةً وتدميراً!

ـ هوّني عليكِ يا رباب، ربما وجدتْ في ذلك خلاصاً لروحها المعذّبة!

ـ أيّ خلاصٍ وأيّ عذابٍ يا راوية؟ لو عرفتِ كيف حصل ذلك لما صدّقتِ ولاستغفرتِ ربّك إن قلت خلاصاً!!

ـ ومع ذلك، من يستطيع فراراً من الموت؟

ـ ليس الموت هو المصيبة يا راوية. أوجعني فقدانها، لكنّني أستطيع تقبّله دون شكٍّ والتأقلم مع غيابها، أما الذي أعجز عن استيعابه فهو كيفيّة حدوثه وعلى أيّة صورة! لقد انطبع ذلك في ذاكرتي وما عاد يمّحي.

ـ رباب، أنت تعذّبين نفسك كأنك مسؤولةٌ عن مصيرها!

ـ كيف لا أكون يا راوية؟ أليست صديقتي؟ أما كان عليّ الوقوف إلى جانبها وإبعادها عن خطرٍ يحيق بها؟ هل يعفينا من المسؤولية كوننا شهوداً؟ ألا يمكن لذلك أن يحدث معي ومعك ومع أيّة فتاةٍ أخرى؟

لم تجد راوية مبرّراً للتأنيب الشّديد الذي وجهتُه لنفسي، اعتبرتني أحمّل نفسي فوق ما تحتمل كتعويضٍ عن ذنبٍ لم أشارك به ولم أكن طرفاً فيه، لكنّني عكسها تماماً حمّلت نفسي المسؤولية كاملةً حين

خضعت لرغبة أنهار في تركها لتحلّ مشاكلها وحيدةً ولم أضغط عليها بما يكفي ـ وكم كانت تحتاج لذلك ـ لتبوح لي بما كان يؤرّقها، ملتزمةً منطق راوية التي اعتبرت إصرار أنهار على عدم البوح ضرورةً تساهم في إنضاجها وتجاوز تناقضاتها الظاهرة والخافية.

كانت تذوي أمامي دون أن أعرف سبباً لذلك، لم أعرف وقتها أنّ ما حلّ بها يمكن أن يحلّ بي ولم أكن محصّنةً ضدّه ولم أكن أملك مثلها إرادة التخلّص منه. مع ذلك فلو أنّي أكرهتُها على البوح، فلربّما وجدنا معاً حلاً يجنّبها النهاية المفجعة التي أودت بها وكان من الممكن بكلّ بساطةٍ أن تودي بي.»

لم تعرف الفتاة، التي اقتُنِص جمالُها وصباها، أيّة أطماعٍ أو أحقادٍ أو سفالاتٍ نَصبتْ شباكَها حولها! مضت أنهار لبيت صديقة، ربما لتتعرّف عليها لا غير، أو لتغيّر أجواءها الخانقة أو لأيّ سببٍ آخر. عميتْ عن قهوتها التي دُسّ فيها مخدّرٌ أفقدها الوعي، لكنّ ما أفقدها رشدها فيما بعدُ الصورُ الفاضحة التي أُطلعت عليها في زيارةٍ لاحقةٍ فاستثارت اشمئزازها وغثيانها أكثر مما أثارت سخطها وغضبها! عاريةً كانت بأوضاع بشعةٍ ومبتذلة، منفردةً أو شريكةً لشخصٍ أو أكثر، لا يقول الرائي إلاّ أنّها محترفة دعارةٍ تُعنى بنفسها وسيطول بها الدرب قبل أن تحال على التقاعد!

كان لانهيارها السريع دورٌ هامٌّ في خضوعها للابتزاز وتحوّلها رغم أنفها وعلى مرأى من كبريائها وأنَفَتها إلى مومسٍ من نوعٍ خاص؛ كانت الفيلا التي تحوّلت إلى مبغىً فاخرٍ لفئاتٍ متميّزة تدارُ من قِبل قوّادةٍ تعرف مهنتها جيداً، وتعرف أكثر كيف تقيم علاقاتٍ يؤمّن نفوذُ أصحابها تغطيةً تمنح أعمالها الشرعيّةَ وتقدّم لها الحماية والعون! لم تكتف بالتقاط

فرائسها عبر شبكةٍ معقّدة تزوّدها بتلميذات المدارس والجامعات ـ كما اقتنصت أنهاراً ـ بل لجأت لمقايضة واستجلاب طفلاتٍ غضّات، في بواكير تفتّح أجسادهن ودون ذلك، من قرى نائيةٍ غارقةٍ في مجاهل الفقر والبؤس، لإرضاء أذواقٍ مريضةٍ ومشكوكٍ في بشريّتها، بعد إخضاعهنّ لتجاربها في تأهيل الكائن البشريّ وتحويله بين يديها إلى آلةٍ تدرّ ربحاً غير محدود، فبكارات أولاء الطفلات سلعٌ طبيعيّةٌ تثمّن بأفحش الأسعار!

تنبّه والد أنهار للتحولات التي طرأت على ابنته فأمر سائقها بمراقبتها وملاحقتها أينما ذهبت. أخبره يوماً أنّها غادرته بسيّارة أجرة واتّجهت نحو فيلاّ في محلّةٍ مرموقة، فاتّجه الأب نحوها متنكّراً بزيّ سائحٍ نفطيّ ودخلها بحجّة بحثه عن مسكنٍ للإيجار. سألته سيّدة المنزل إن كان يرغب في خدماتٍ إضافيّةٍ بعد ما أحسنت استقباله وقدّمت له قهوة ضيافتها، فغمز بعينيه ضاحكاً أن بلى. تابعت، والمرح يملأ جوانحها بعدما أزاغت حقيبة يده بصرَها وقد حسبتها مليئةً بعملةٍ صعبة، سائلةٍ إن كان يرغب طفلاتٍ أم بالغات، فخيّب ظنها حين عرفت أنّه يرغب البالغات وقد أوجز وصفاً لما يشتهيه!! اعتذرت لثوانٍ وعادت بمجموعة صورٍ ليختار بغيته، حدّق بهنّ على مهلٍ وتحجّرت عيناه على واحدة، أعاد لها الصور محتفظاً بصورةٍ تشبه أنهاراً، «لكنها ليست هي، ولا يمكن أن تكون!» أصرّ في سريرته.

ـ أريد هذه!

قدّم لها الصورة بينما وقفت ضاحكةً:

ـ أسعارنا مرتفعة!

ـ ليس مهماً.

تبعها ففتحت له باباً جانبياً ورجته أن ينتظر خمس دقائق لتعود بصحبتها. «تمّت الصفقة القذرة!» في سريرته صلّى وابتهل ألاّ تكون هي، لكنّ رجاءه خاب أيضاً.

دخلت. وكانت أنهارُ التي لم تتعرّف أباها إلا حين خلع نظّارته السوداء فلم تجد متّسعاً لتقول أبي، لأنّ طلقةً وسط قلبها أراحتها من كلّ ذلك! سمّرت المفاجأة السيّدةَ المحترمة في مكانها، وكأنّها سمعت قوله، ليس بناتنا أيتها القوّادة، وهي تتلقى سبع طلقات جندلتها وكانت الأخيرةُ لصدغه الغاضب.

ربّما كانت تلك الرواية هي الأقرب لما حدث، فما كان لأحدٍ أن يرويها كما حدثت فعلاً إلا أنهارُ التي مضت وتركت لرباب أن تحكي حكايتها لراوية كما حدثت أو كما تخيّلتها بعد بحثها الدؤوب وتقصّيها الدقيق. لكنّها وهي تستعيدها رأت كأنّها هي التي خضعت ومورست ضدّها تلك القذارة كلّها وهي تنتظر طلقةً تخترق قلبها أو تنثر دماغها أو سكّيناً تقطع أوداجها وتحزّ رقبتها حتى العظم!

«كيف استطعتُ احتمال ذلك كلّه، كيف؟»

عاودت كفّاها البحث عن غطاء السلة، حملته بكفٍّ وجمعت بالأخرى الضباب الأسود الخانق وغطّت به المدينةَ وخيطَ الدم الذي يلتمع كقرمزٍ منثورٍ على أحد شوارعها. أطبقت على السلّة غطاءها، أمالتها ودحرجتها حتى أوصلتها إلى وادٍ عميقٍ لا تبين قيعانه ورمتها وهي تلهث مغمِضةً جفنيها لتمنع العتمةُ عن مقلتيها إبصارَ ما أرادت نفيه من ذاكرتها.

عادت تمشي الهوينى وهي تنفض يديها ورأسها وتواري اختلاج أوصالها، «هل يدخل ذلك في قاموس القتل الخاصّ بكِ يا هند؟ هل يشكّل أحدَ معانيه أم أنّه صورةٌ ومثالٌ عنه؟ أجيبي يا هند بدل ضحكك الغبيّ وأنت تردّدين جملتك البلهاء الحاقدة ـ لا! ألا تعرفين؟ ـ أجيبي وقولي، أتدخل مقتلة أنهار في فصل قتلك العتيد؟»

لكنّ الجواب أتى وجبةً جديدة توقّت مرور جزءٍ من النهار أو اللّيل سيّان، فلا يحتاج تغيير دورة الأرض بالنسبة لهم سوى استبدال نوعيّة الوجبات وتغيير مواعيدها. لم تجرؤ رباب على تناولها، كانت غيمةُ الحزن القديمة المقيمة قد غطّتها وعزلتها عن حاجاتها الأساسيّة واستحالت هواءً تتنفسه وماءً تشربه وطعاماً تلوكه ورداءً تكتسيه ومأوىً تستوطنه!! غسلت إناءها ولم تحتمل صوت الماء فأغلقت الصنبور وراحت تغذّ السير بين الجدار والجدار علّ الغيمة الكتيمة تتبدّد أو تهطل فتتلاشى!

خشيت المكوث لئلاّ تفجأها سلّةٌ أخرى وتغريها مجدّداً بهدايا الطفولة وأفراحها، وحالما تخضع للتغرير وتذعن لنداء فتحها تمنحها نقمات اليفاعة والصبا والحلم المستبدَل دون معنى. ساءها أن يستبدل هذا بذاك.

«ما الذي دهاك يا رباب؟ أكلّما حاولتِ التشبّث بأرضٍ نديّةٍ والتمسّك بفضاءٍ رحبٍ متاح زلقت قدمك وانحرف بصرك فوقفتِ على أرضٍ شائكة وأطلّ العتم مشوباً بالغبار ومسدوداً بالجدران؟ ألا تستطيعين لثوانٍ إمساك لحظةٍ تفيئين إليها إن غافلتك الهاجرة وتلوذين بها إن لفظتك الملاجئ؟ ما بالُك، ألا تسعين لإمساك خيوطك ومتابعة التفافاتها حتى

تبين لك بداياتها ونهاياتها منفصلةً واضحة الاختلاف؟ هل ستستسلمين للتيه الذي دُفعتِ إليه فتفقدي كلّ شيءٍ مرّةً واحدة وإلى الأبد؟ ركّزي قليلاً! وتحمّلي كثيراً ولا تخشي مواجهة أيّ كشفٍ مهما بدا مدمّراً ولا تستنكفي عن ملاحقة أبشع تفاصيله لتعاودي معرفة من أنتِ ولمَ رُميتِ هنا.»

لكنّها لم تصغِ للنداء ورفضت المغامرة مرّةً أخرى بفتح سلّةٍ جديدة. استمرّت هند تلاحقها من الزاوية التي اختفت وراءها في الجانب الآخر فتراجعت حتى التصق ظهرها بالجدار وما عاد ثمّة مهرب! وفي الآن ذاته لم تستطع فكاكاً من الركون إلى المنظار الذي تطلّعت عبره وخيّل إليها أنها ترى العالم من خلاله كما هو، دون أن تدرك أنّها تراه بحسب المواصفات التي افترضتها عنه وأرادت الدفاع عن نفسها من خلاله. وجدت أنّ كلّ ما شكّل قاع تصوّرها عن ذاتها وعن العالم بالطريقة التي تجعلها تقبل تلاؤمها معه وتعايشها خلاله مهدّدٌ بالانتهاك حالما تنظر بعيني هند التي تكرهها على تغيير مواقعها.

«لقد خلتِ يا رباب أنّك تلاحقين طيف حرّيتك وتنشئين هياكلها المرتجاة على أنقاض صراعاتك غالبةً أم مغلوبة، تؤكّدين ذلك بنزوعك الحازم نحو استقلاليّتك وبناء حياتك على هواك. ولكن هل أنتِ كذلك فعلاً؟ لمَ تتوقين إذن ودوماً إلى عالَمٍ مفارقٍ تجدين نفسك فيه خليقةً بالاحترام والتقدير اللذين تسعين نحوهما دون توقّفٍ أو استراحة؟ أما كان وهماً ظنّك أنك تحبّين وفق مفاهيم ومعايير احترامك لذاتك؟ أليس كلّ ما فعلتِه وصنعتِه ورأيتِه.. فخرك وإنجازك، مجرّد تصوّرٍ لما فُرض عليك وأُكرهتِ على صنعه تحت ضغوط ردود فعلك المحسوبة بشكلٍ

مسبق والتي دفعت إليها عبر مواقف حُسبت بشكلٍ لا يترك لكِ مجالاً لاختبار ردود فعلٍ أخرى مغايرةٍ أو مخالفة فظننتِ أنّها مبادهتك . . أنّه خيارك . . أنّه قرارك وأنّه أنتِ كما أردتِ لها أن تكون صرغم أنوفهم ' ؟ أما آن لك الآن أن تنهي أسطورة ، بل قولي أكذوبة ، استجابتك المتميّزة لكلّ تحدٍّ شرعتِ بمواجهته بعزيمةٍ لا تُقهر وإرادةٍ لا تلين كي تحقّقي ما عجز غيرك عن تحقيقه؟ ! »

باتت رباب تنوس ، وهي تتقمّص ما تستطيع الوصول إليه عبر الجدار الذي يُغشي عينيها ويثير الاضطراب في حواسّها كلّما حاولت الاقتراب منه ، بين وقائع عمرها المشتّتة والمتناثرة كما حدثت وبين مخلّفاتها على تضاريس روحها !

«أيّة تجربة تلك ؟ أيمكن لي الآن ورغماً عنّي أن أروي حدثاً ما ، واقعةً ما بطريقةٍ معيّنة سرعان ما تتغيّر إن حكيتها مجدّداً جاعلةً من الحدث حدثاً آخر بيّن الاختلاف عمّا يُفترَض أن يتطابق معه ، إن لم يكن في التفاصيل ففي الحيثيّات الأساسية؟ لمَ يحدث ذلك يا ربي؟ لمْ يحدث لي أن دخلتُ غيبوبةً أضعتُ طريق الخروج منها أو تنحيتها أو القفز فوقها رغم الصدمات المريعة التي كاد بعضها يودي بعقلي نهائياً ! لم أبتعد أبداً عن محيط الصحو ، وحتّى في اللحظات التي كدت فيها أتجاوز حدوده كان مركز الجذب وسطه يعيد استقطابي وشدّي نحوه ، وكأنّ هنداً الآن احتلّت مكانه وراحت ضحكاتها الهازئة تدخلني في مداراتها لنبذ مداراتي التي لذتُ بها مواريةً ارتجاجاتي في سكينتها وآفة صمتها ! »

مع صخب ماءٍ سال من جديدٍ وعلى لمع رذاذه المتطاير عاودت سميّة الخروج من السيل الحجريّ الذي امتصّها إلى حينٍ وكاد يجعلها بعضاً منه ، إلا أنّ شهوة الحياة أطلقتها من أسره ومنحتها الفأس الضرورية لتحطيم القشرة الكلسيّة التي كادت تتسمّر بين جنباتها !

«لمَ تعاودين الحضور يا سمية كلّما أجليتكِ؟ هل تدفعكِ هند إليّ؟ حاولتُ جاهدةً إبقاءك في أحلام طفولتي ويفاعتي المتعثّرة بفتنتها وفِتنها أكثر من تعثّرك بساقك الحطام التي تجرّينها خلفك باستمرارٍ كظلك. بقيتِ كما أنتِ بالنسبة لي قبل انسحاق قدمك وبعدها لأنّي أردت بقاءك عند حيّز الماء قبيل أن يتّخذ لون النار والجمر البرتقاليّ وقبل أن يستعر لهيبه فيذيبك على وهج حرارتك المتألّق! ابقي كما كنتِ وكما كنّا معاً؛ نحلم كثيراً ونريد لبعض أحلامنا أن يتحقّق طالما نمتلك مشروعيّة تحقّقه، علّميني كما فعلتِ دوماً أنّ المواجهة تستمدّ ضرورتها من دعوى أنّ التوقّف عنها يعني الاستخذاء وتسوّل الفتات! لا ترتضي العرض الذي تريد هند تقديمك عبره وإعطاءك دور البطولة فيه، ضحيةً كنتِ أم جلاداً، لتقتسم معك مجد ضمّك لسِفْرها الخاصّ المتعلّق باشتقاقات القتل، غيبي قبل أن توقعك بفخاخها وترغمك على أن تفعلي وتكوني ما تمليه عليك بسطوة نزوعها لضمّ أمثلةٍ متنوّعةٍ لقاموسها المقدّس!

لو تقرع أو تنادي لأفهمتُها أن لا دخل لها بك ولو اضطرّني ذلك لاختراق الجدار الفاصل بيننا وخنق اسمك الذي يتردّد على شفتيها ودفنه في حلقها إلى الأبد. كيف لي أن أطالها؟ هل بمقدوري إكراهها على مناداتي؟ فلها طقوسها الخاصّة وتوقيتات مجالسها التي تتفنّن في تدقيقها وحسابها دون مجازفة الوقوع في الخطأ! إذن اذهبي.. كرمى لك وكيلا تطيلي البقاء، سألجأ لما منعته عن نفسي منذ حين، سأعاود فتح السلال أيّاً كان الذي ستفرغه أمام وجهي أو تصفعني به، فقط لتنأي ولا تطالك مخالب هند التي سيكون لي معها حديثٌ آخر حين نلتقي!»

تلج رباب مخزن الغلال دون أن تستهويها فكرة كشف خوافي سلاله المتبقّية بعدما تيقّنت مضيّ عهد الثمرات الهدايا.. والروائح العطايا.. والألوان البقايا، وكي تحسم تردّدها تقترب من أوّل سلّةٍ تصادفها وتسارع

إلى فتحها متذرّعةً بتغييب سمية حرصاً عليها وخشية تلويثها أو انقضاض هند عليها!

ولكن أين المفر؟

تلوح أمٌّ تحنو على رضيعها وهي تلقمه حلمة ثديها الأسمر، وعيناها على ابنتها التي تحبو على جلود خرفانٍ بيضاء متلاصقة. تتعثّر الطفلة على حوافّها فتتغيّر مواضعها، تستغرب الفراغات السوداء التي تخلّفت عن انزياح دفء الثلج الصوفيّ فتسارع نحوه وتستلقي على ظهرها مستمدّةً دفئاً جديداً، سرعان ما تكتشف في وضعيّتها الجديدة لعبةً أخرى.. تحاول بأصابع كفّيها الوضيئة التقاط قدميها فيبين من بين رجليها المنثنيتين كأقواسٍ لدنة ليقطيناتٍ خضراء نمت على هواها وجهُ الأمّ الهانئ والراضي... «هي ذي سميّة من جديد تتطلّع نحوك بعينيها النديّتين وابتسامتُها العذبة ترتعش على شفتيها الكرزيّتين وقد انسدل شعرها الأسود الفاحم على كتفيها وانهمر على ثدييها المكتنزين فيضاً من حنانٍ وحليبٍ مرتديةً ثوبها المنزليّ الأبيض الفضفاض الذي غيّب شوهة ساقها كأنّما ما كانت أبداً!»

ـ رباب، عاش من رآك، أين كنتِ طوال هذه المدة؟

حاولت النهوض للترحيب بصديقتها، لكنّ رباب لم تمهلها، سارعت نحوها، متخطّيةً الطفلةَ ومالت عليها بجذعها مانعةً وقوفها وقد عانقتها بكلا ساعديها وقبّلت وجنتها ورأس الصغير الذي لم يُفلِت الحلمة رغم حركة أمّه المفاجئة، وقالت جذلى:

ـ هاأنذا، تأخرتُ لكنّي أتيت في الوقت المناسب لأرى مُحالَك وقد صار لحماً ودماً أمامك ومنك!

ضحكت سميّة والتمع ليلُ عينيها:

ـ أين هداياي إذن، أم نسيتِ أيضاً؟

صفعت رباب جبهتها واصطنعت ملامح دهشةٍ ساخرة.

ـ نسيت؟ أيُعقَل ذلك؟ لن أكذب عليكِ، لم أنسَ، ولكن لم يخطر على بالي، مررتِ بخاطري فجأةً ووددتُ لو أطمئنّ عليك. هكذا إذن.. بدل الطفل طفلان، صبيٌّ وبنتٌ أليس كذلك؟

غمرت سميّة طفلها بشعاعات مقلتيها خشيةً وفخراً ووقاية.

ـ بلى يا حبيبتي، هما اثنان. هلاّ قرّبتِ ذلك الكرسيّ وجلستِ قربي ريثما أنهي إرضاعه، أم أحضره أنا؟

ضغطت رباب بكفّيها على كتفي سميّة ثم أحضرت الكرسيّ وجلست تواجه تلك التي علّمتها الكثير وهي تتملاّها مخاطبةً نفسها، «لو يدوم ذلك للأبد!» ثم قامت وأحضرت الصغيرة وأجلستها في حضنها تداعبها وتناغيها.

ـ هذه سميّة الصغيرة، تكاد تكون نسخةً عنك، ما اسمها؟

ـ خلود.

تابعت رباب ثرثرتها مشيرةً برأسها إلى الرضيع:

ـ والصغير، أيشبه أباه؟

تنهّدت سميّة مزدردةً سخطاً عبرَها ولامس صوتها الخافت.

ـ أتمنّى ألاّ يكون!

صمتت رباب راغبةً عن استثارة أشجان صديقتها وقد أنِست لغبطتها بطفليها وعالمها الصغير فما أرادت تعكير صفو خلوتها. تذكّرت أنها سمعت الكثير عن زواج سميّة وعن زوجها وعن حياتها التي صارت معه علقماً لا يُطاق، وعن رفضها اللجوء لأبيها أو أشقائها ليضعوا حداً

للعذابات التي تُسامها ليل نهار، وعن إصرارها على انتزاع أشواكها بيديها. لكنّها أُخذت بمشهد الأمّ التي استراحت لبيتها وطفليها وقد امتلأت جوانحُها بالسكينة والاطمئنان، فخالت أنّ تلك الأقاويل لا تعدو وشاية حاسدٍ أو ثرثرة نسوةٍ خاليات البال، وما كان تخيّلها صحيحاً أو مطابقاً لواقع الحال.

انطفأ على حين غرّةٍ نجما ليل عينيّ سمية، اعتصرت داخلهما غمامة الأسى فتهاتنت هاطلةً على وجنتيها دون نحيب، دون إجهاشٍ ودون كلام!!

ألقت رباب الطفلة فوق عشبها الصوفي الأبيض معيدةً ترتيب ما انفصل منه، مالت على سميّة محتضنةً جسدها المعجون من وجعٍ وحنينٍ وحليبٍ وغبطة، محاولةً امتصاص بعض الأسى بساعديها المطوِّقين. لكنّ الصبي استاء من الحركة التي أعاقت إرضاعه، فأفلت حلمة ثدي أمّه وراح يصرخ ملوّحاً بيديه، فاضطرت رباب لإبعاد ذراعها التي اتكأت عليه دون أن تُفلت كتف الأم التي شرعت تهدهده متلهّفةً عاجزةً عن وقف نزف روحها. هدأ الصبيّ أخيراً واستسلم للنوم فحملته الأم مزيحةً ذراع رباب برقّةٍ وأضجعته قرب أخته التي لم يوقظها صراخه ولا نحيبه.

عادت إلى جلستها مقرّبةً كرسيّها من كرسيّ رباب، لاصقت كتفها كأنّما تهرب من مواجهة عينيها المشارِكتين.

ـ ما الذي سأقوله يا رباب؟ لستِ غريبةً، أستطيع إخبارك بما لا أبيح لنفسي قولَه أمام أحد، كأنما أخاطب مرآة نفسي، ومع ذلك أُرتج عليّ!

تدحرج صوت رباب مضطرباً بعد ما فقدت سيطرتها على نفسها:

ـ لا بأس يا سميّة، لا بأس، ما من شيءٍ يتحقّق دون ثمن، ليتك تخفّفين أعباءك كرمى للطفلين وحرصاً على صحّتهما المرتبطة بصحّتك.

لكنّ سميّة بلغت حدّ الانفجار فما تمالكت نفسها :

ـ لقد كان خطأً، خطأً يا رباب!! صرتُ أمّاً لكنّني أتحطّم مئات المرآت كلّ يوم، بتُّ شظايا يلفّها ثوبي ويغطّي مزقها ونزفها الدائم. لم يكن الثمن عادلاً يا رباب، ليتني بقيتُ أمّاً لتلاميذي!

انعطفت رباب محتضنةً رأس سميّة بيديها وألقته على كتفها، ليتها تجهش بالبكاء، ليتها تجهش!

ـ اهدئي يا أختي الصغيرة.. اهدئي فما حدث قد حدث ولا عودة عنه. دعينا نفكّر بطريقةٍ لا تجعلنا نخلق مزيداً من التشويه والكراهية والبشاعة!!!

لاحظت رباب أنّها حكت عن أشياء لا معنى لها، جرت على لسانها وحسب، تيقّنت من ذلك حين أحسّت أنّ سميّة ما كانت تصغي لها بقدر ما كانت تصغي لروحها المعذّبة...

ـ ليتني أصغيت لنصح أبي وما تنكّرت له. (سميّة، غازي لا يصلح لك، لا يتّسم بالرجولة، ابن آوى يبحث في مخلّفات الرمم، ورغم تزكية أخيك فقد كان عليّ طرده مباشرةً، لا أدري حتّى اللحظة كيف جرؤ على طلب يدك ولا كيف استطعتُ احتماله. آثرتُ التريّث من أجلك، فقد حسبتُ أنّك تؤثرين طفلاً يؤنس وحشة أيّامك، تعرفين أنّني من يختار لبناته أزواجهنّ من غير الاهتمام برأيهنّ، لكنّك.. في وضعك.. سأسألك، كيلا تقولي يوماً أنّ أباكِ كان سبب حرمانك من أمومتك. فكّري جيداً ثم أخبري أمّك.) لكنّني كنت محكومةً بلعنة حرماني من قولة ماما، من هو غازي؟ لا يهمّني من يكون. المهمّ أنّني سأنجب طفلاً وليذهب بعدها غازي أو غيره إلى جهنّم. ورغم أنّي اتخذتُ قراري سريعاً وكدت أصارح به أبي متخطّيةً حدود الأدب، فلم تفتني تزكية عليٍّ أخي

له، وهو كما تعرفينه صورةٌ عن ناصيف بل قولي كلاهما من الطينة ذاتها. لحظتها ترددتُ قليلاً، هل يريد التخلص مني أم أنّ له مآرب أخرى بتقريب غازي منه وجعله أطوع من بنانه بمصاهرةٍ لا يرتضيها ربّما لولا وضعي الغريب؟! لم أتوقف طويلاً عند ذلك، فقد طمع غازي وأراد عليّ أن يستثمر طمعه بطمعٍ أشدّ وأبشع. كيف؟ قلت لنفسي، ليست شغلتك يا سمية، دعيهما يقتسمان الغنائم وفوزي أنت بغنيمتك! وليتني ما فعلت، ليتني بقيتُ في بيت أبي فرغم كلّ شيءٍ هو بيتي وحتّى لو صرت خادمةً فيه فسأبقى خادمةً في بيتي. وهاأنذا لا أستطيع عودةً ولا أستطيع شكوى! لو عرف أبي بمعاناتي من جوره وما يسومني من عذابٍ لأرداه مثل كلبٍ مسعور، ولكنّني لا أستطيع فقد صار للأبد أباً لأطفالي، لا أستطيع لأنّني آنف الظهور بمظهر المغلوبة على أمرها أمام أبيها.

صمتت رباب. أصغت متألّمةً لنجوى سميّة التي اخترقت لحمها قبل أذنيها، أرادت أن تعرف المزيد، ليس فضولاً، بقدر ما هو رغبةٌ بمشاركةٍ حميميّةٍ واستفاضةٍ تستطيع خلالها مدّ يد العون قدر المستطاع. لكنّها لم تفعل سوى التربيت على كتفي سميّة التي نأت بعيداً.

«ما الذي ستقدّمه سميّة لك الآن يا رباب؟ أيّ كشفٍ تحاولين اكتناه سرّه عبرها ومن خلالها؟ لمَ لا تبعدينها قليلاً؟ أما آن الأوان لتحملي عبئك أنتِ وتواجهي مشكلتكِ أنت؟ وهند! من هي هند حتى تدفعك بعيداً عن الأراضي التي عليك إعادة تعيين حدودها واستخلاص تضاريسها واتجاهاتها وآثار قدميك فوقها وعليها؟ هل تواصلين هروبك من نفسك عبر اللجوء للمرايا التي تخفيك وراء ظلالٍ، ما ينعكس عليها

أوضح وأقرب؟ أربع جدرانٍ وسقفٌ وأرض، ستّ مرايا متعامدةٌ وأنتِ تتوسّطينها دون قدرةٍ على تلمّس خيالٍ واحدٍ لك، كأنّ عينيك ما عادتا قادرتين على الإبصار إلاّ عبر عدسةٍ تتموضع في الزاوية هناك، ترقبك وتجمع في بؤرتها ما عليك رؤيته. أهي نافذتك الوحيدة على العالم وعلى نفسك لمجرد أنّها ذكّرتك بانتفاء وحدتك وأنّك مازلتِ جزءاً من كلٍّ يعبرك وتعبرينه، يشكّلك وأنت تحسبين أنّك تصنعينه؟ أبقي عينيك على مراياك، إذ مهما شوّهتْ صورتَك ومهما شوّهت الأبنية والهياكل التي تستحضرينها على مرأى منها، فهو خيرٌ من الانحناء فوق عينيّة مُجِهرٍ تصرّ هند أن تكون شيئيّته، كأنّما الحقائق والخفايا لا تمرّ إلا عبرَها. أطفئي الضوء الذي تستخدمه لعكس صورة ما تريد إشهاره مكبّراً مئات المرآت! فهل تستطيع إمرار شيءٍ إلى عينيك؟ أغلقي بصرك إن فشلتِ واتركي لبصيرتك أن تنقل إليك، ولو من داخل جدران لحمك، عالَمك الذي حصّنتِه بشتّى الوسائل، بما فيها الخديعة والإيهام والتزييف، ليبقى مثلما هو، ومثلما حلمتِ به طفلةً ويافعةً، قبل أن تمزّقه وتبعثره وقائع الحياة التي تربّصت بذاك الحلم وانقضّت عليه حالما عرّته اليقظة وتوالي الأيام.

عليكِ أن تعرفي الآن وفي هذا الوضع وقبل أيّ شيءٍ آخر صلابة ما بنيتِه ومدى تماسكه أو هشاشته وتخلخله... فرهانك الوحيد أضحى الآن مقامرةً كبرى لن تحدِّد مصيرك وحسب، بل جوهر وجودك وكينونته!

ظنّت رباب أنّ الجدران ليست سوى مرايا تلعب معها لعبة تشتيتها وإعادة لمّ شتاتها، أو أنّها تحمي عوالمها المتخيّلة والمفترضة مهما ساهمت في تشويهها طالما بقيت كتيمةً وبمعزل عن الخارج الذي دخلته

هند من ثقبٍ تسلّلت منه واقتحمت عبره داخلَها، لتشرَع في إعادة دمجه بعالمٍ أوسع، قد تأتي هندٌ أخرى ومن ثقبٍ أوسع لتعاود دمجه بعالمٍ أكثر رحابةً من الأول. . إلى ما لا نهاية!!

لكنّ الجدران لم تكن سوى لحمٍ جديدٍ غاصت عضلاتُها فيه وجعلها تتمدّد داخله حتى اتّسع لها، وما عاد ثقب هندٍ سوى العين التي تبصر بها ما خفي عنها وما تخارج عن لحمها الكتيم، والأذن التي تصغي بها إلى صدى صوتها. غير أنّها لم تتّسع أبداً لتتخلّلها وتنتشر عبرها روائح تتمايز عن فوح روائحها اللّصيقة بجدران لحمها الداخلي ممتزجةً بعبقه الخاصّ، ولم تهبها ملامسةَ خارجٍ ازداد ضغطه حتى كاد يقوّض جدرانها، دون أن تستشعر صلابة وجوده وتحسّ حيّزه الذي ملأ الفراغ.

لكنّ الحيّز الذي يحتلّ فضاءها ويضغط رازحاً على كاهلها، مانعاً عنها أيّة إبصاراتٍ أخرى، تجَسَّم على شكل امرأةٍ هبّت مفزوعةً شعثاء الشعر زائغة النظرات مدمّاة الوجه ممزّقة الثياب موجوعة الروح مرضوضة البدن محطّمة الأضلاع، وقد استطاعت في اللحظة الأخيرة. . في الثانية الأخيرة أن تنجو من محاولة اغتصابٍ وحشيٍّ، حين وجدت بيدها، وهي تكافح حتّى الموت محاولة انتهاكها العنيفة والضارية، سلاحاً ما استخدمته دون تفكيرٍ ليوقف مرّةً واحدةً ونهائيّةً الهيجان الزلزالي الذي يعلوها ويخمد حركته الارتجاجية بومضة برقٍ أحالته لحماً ميتاً فدفعته بعيداً عنها ونهضت. رمته بنظرةٍ ظافرةٍ ومضت.

وتحت ضوءٍ ساطع أتاها من الأمام والأعلى، كاشفاً الضحيّة التي استحالت بمحض الصدفة إلى جلاّدٍ دمويٍّ أسود، تجمّعت قسماتُ وجهٍ أليف. . وكان وجه سميّة!

تزامن اختفاء سماح شقيقتها الصغرى مع غيبة غازي! لم تحفل بتوقّعات أسرتها وحكايا الناس، فقد أتاح لها حسّ الأنثى استنتاج ما

حدث؛ غرّر غازي بشقيقتها المراهقة وسيطر على مقدّراتها بطريقةٍ شيطانيّةٍ دفعتها للهروب معه رغم كلّ شيء. أهملت سميّة العالم أجمع باستثناء طفليها اللّذين أودعتهما لدى أمّها، وظلّت من غير أن يعرف أحدٌ ثلاثةَ أيّامٍ بلياليها تبحث وتنقّب وتلاحق لهاثها وحرائق دمها، حتى عرفت مخبأهما وتيقّنت منه.

حين طلبت طفليها من أمّها، تردّدت الأخيرة في تسليمهما لابنتها التي بدت امرأةً غريبةً كأنّها ما ولدتها! ثمّ رضخت لإلحاحها وأوصتها بهما خيراً!

على درب الليل الترابيّ استطالت ظلال امرأةٍ بثلاثة رؤوس، حملت الصبيّ بيسراها فوق قلبها والبنت تحت إبط يمناها، تجرجر خيبتها وزمجرة الغضب المتدافعة عبر خلاياها. أطعمت طفليها لحم جيفتها وسقتهما سُمَّ حليبها ودمها الملوّثين وانتظرت حتى استغرقا في النوم. أطفأت مصباحها منعاً لأشباحٍ حوّمت حولها من التمكّن من رقبتها والإطباق عليها! ذرعت غرفتها مراتٍ عديدةً وهي ترجو، دون جدوى، الله أو الشيطان أن يرحمها من عذاباتٍ آتيةٍ بعد حين. فتحت بابها وتمنّت أن تذيبها العتمة أو تدفعها للمضيّ بعيداً... لكنّها وفي لحظة انسحابها من الليل حزمت أمرها وأفلتت نهائياً من عقال عقلها، استصرخها دمها المتوحّش فاستحالت ذئبة برارٍ مطارَدةٍ، أطلقت كلّ ضراوتها حين أحسّت أنّها قاتلةٌ أو مقتولة!

بكفّيها اعتصرت عنقي الطفلين، مستمدّةً من اندفاعة بطشها قوةً وأدتْ بها عويلَ قلبها. سكن الطفلان بعد انتفاضاتٍ قليلةٍ أخفتها العتمة وما أطلقا صرخةً واحدة! ومن مطبخها استلّت سكيناً عريضة النصل يرتعد الضوء على حدّ شفرتها ومضتْ راكضةً، كأنّ ساقها المعاقة استعادت عافيتها القديمة.

لم تتبع الدرب الطويل الموصل للقرية الهدف، بل اختصرته وتحاشت الأعين اللئيمة في فضول نظرتها لامرأةٍ تسعى وسط الليل، عبرت التلال مخترقةً سياجات البساتين الشائكة، مضيئةً التراب الحجارة والأشجار بنار عينيها. حالما شارفت البيت المنعزل كمنت خلف كومٍ من الحجارة توقِف لهاثها الفاضح وترصد طريدتها لتسدّ عليها منافذ الهرب. قامت جبروتاً من العدالة المقتصّة تحمل صرخة احتجاجها وعقابها المنتقِم معاً، تطلّعت من النافذة المفتوحة واخترقت عيناها العتمة، أحسّت حرارة جسديهما الملتصقين وعيّنت موضعهما، تسلّقتها وهبطت، ظلاً مبكّراً لموتٍ حُمّ وقُضي، تفرسّت بالجسدين المترعين بالنوم وحمّى الأحلام واختارت القلبَ للأول مطعناً والأوداجَ للثانية مذبحاً!

عبقت رائحة الدم فارتعش منخراها وسكن وجيب قلبها، عفّرت جبهتها بدم أختها ودخلت سرداب الضوء. فيما بعد، وفي لحظات خروجها منه حين يتماهى لون شعرها مع الحداد المخيّم، ستهمس دون جرس:

ـ كانت صفقةً رابحةً لعليّ، بدايةً سعيدةً ونهايةً أسعد! لقد اعتصر مكاسبه وأرباحه وارتاح من كلّ أعباءها. لن يأبه إن كانت السموم التي أشرف غازي على توزيعها هي السبب المباشر الذي أودى بحياة أخته سماح، أو لو عرف أنّ غازي كان ينتقم منه عبرها بعدما فشل في الانتقام بإذلالي.

لكنها لن تستطيع أن تبصر خلف عليٍّ من استخدمه مثلما استخدم هو غازي، وكانا كلاهما فأسين هدما عالمها وعالم شقيقتها!!!

تراجعت سميّة في الخواء المدلهمّ رذاذاً نجيعياً واحتلّت مكانها ذراعٌ عملاقةٌ تحمل فأساً ضخمةً تضيء شفرتَها قطراتٌ متوهّجةٌ من دمٍ طازج، متقدّمةً نحو رباب التي التصقت بالحائط حتى كادت تصبح جزءاً من طلائه

الباهت المتفلّع . لكنّ اليد لم تقنَع وواصلت الإهواء عليها فتداعت وقد خارت قواها منزويةً مطويةً على بعضها أسفل الجدار ، استسلمت وتمنّت نطعاً ترخي رأسها عليه وترتاح ! توسّلت في إغماضتها نوماً يأتيها . . مرّغت رأسها على ركبتيها مستغيثةً فما لبّاها . . ولأنّ النوم لا يأتي دوماً كما تشتهي اليقظة ، فقد دخلت سباتاً أنساها النوم وجعل اليقظة حلماً جميلاً !

ثمّة ليلٌ جاثمٌ يلبد في وديانٍ لا قيعان لها . . كانت تركض صاعدةً ، تتعثّر حيناً فتقع ثمّ تنهض وتتابع وقد خدشت يديها ووجهها وساقيها أغصانُ الأكمات وأشواك الغيضات التي تخترقها . . . سيطر رعب الملاحقة على فؤادها فأدركت أنّ الوقت لن يمهلها للالتفات ومعرفة مطارديها . كان صعودها يزيد من صعوبة حركتها فبدت كأنّها تتسلّق المرتفعات الوعرة بأطرافها الأربعة .

نظرت إلى الأعلى فلاح غبش فجرٍ قادمٍ منحها قوةً إضافيّةً وشحذ عزيمتها على الوصول وأتاح لها أن تلقي نظرةً على ظلامٍ منتشرٍ حولها وفي ما انخفض دونها ، تضيئه مشاعل كثيرةٌ متباعدةٌ كشفت ظلال مطارديها وقد تصاعدت صرخاتهم الوحشيّة وتهويلهم بالعصيّ والفؤوس والمذاري التي تخفق بين أياديهم ؛ رجالٌ ونسوةٌ متباينو الأعمار تلفّهم جميعاً أرديةٌ سوداء تطوّح الريح بشعور نسائهم ولحى رجالهم ، كأنّهم موتى خرجوا من قبورهم واندفعوا نحوها ، ولحِظتْ مفزوعةً عدم وجود أطفالٍ بينهم رغم أنّ بعض الصيحات حملت جرْس الأطفال ! والت ارتقاءها وقد بلغ الفزع بها حدود الانهيار حين أحسّت اقترابهم وحرارةُ أنفاسهم تلفح ظهرها مخترقةً مزق ثيابها . . . كان الفجر يتابع تثاؤبه فقامرت على اختفائهم حال استيقاظه لكنّهم تابعوا وخالت أنّها واقعةٌ لا

محالة فريسةً سهلةً بين أيديهم لحظة أبصرت مجرىً هادراً يعترض طريقها . . . أُسقط في يدها ورأت نهايتها الوشيكة لكنّ تباشير الضوء في الأعلى دعتها وقد بدّدت سواد الماء فالتمعت حبابات قطراته ورذاذه . . . خطر لها أنّها خوّضت يوماً في مجرىً مشابهٍ وتمكّنت من اختراقه ! اختارت مجابهة الماء بدل مواجهة الوجوه الشيطانيّة التي أحاقت بها وقد استحالت صرخات حربها لضحكاتٍ مجنونة ، أغمضت عينيها وولجت الماء ، لم تستشعر بللاً ولا برودةً ، فتحت جفنيها على الماء وهو يغيّر مجراه وينعطف معها متّجهاً للأعلى . . تابعت التسلّق وحالما وصلت كان الفجر قد انبلج وأضاء الكون . بهتت أضواء المشاعل تحت قدميها لكنّها لم تطمئنّ فانعطفت على نفسها ، التفّ الماء حولها وهبط مندفعاً من علٍ غمراً أغرق محاصريها ومطارديها . . . ضاعت استغاثاتهم بين تردّد قرع طبولٍ أتى من بعيد ، دوّى ودوّى حتى كاد يصدع أذنيها .

فتحت عينيها فاصطدمتا بركبتيها ، رفعت رأسها وقد جفّ حلقها وتطلّعت مدهوشةً ، أين أنا؟ بقايا نيرانٍ وماء ، ريحٌ ترابيّةٌ وهشيم نباتاتٍ ملفوحةٍ بندى الصباح ، معاول وعصيٌّ وصرخاتٌ وحشيّة ، ضياءٌ مبهرٌ وقرعٌ شديد ، أين مضى ذلك كلّه؟

لكنّ ما تواصل لم يكن سوى صدى دقٍّ خافتٍ أتى متأنّياً وعلى إيقاعٍ رتيب . . .

«الزاوية . . آه هند ، لقد عادت وهي تدعوني !» قفزت نحو الزاوية المعتادة ، ناسيةً موقفها من هندٍ وكرهَها لاختراق واقتحام وحدتِها والتعدّي على عالمها وانتهاك خصوصيّاتها الحميميّة !

باتت الآن ملاذها الوحيد من سعير كوابيسها الجحيميّة، والوجهَ الغامض الذي سيخلّصها من معركةٍ خاسرةٍ تخوضها ضدّ أخيلتها في المرايا التي أحاطت بها من كلّ الجهات. دقّت متلهّفةً فأتاها الجواب:

ـ رباب، كيف حالك؟

أتاها الهمس المطمئِنُ والموقظ لصحوتها الغائمة فأجابت بعفويّةٍ وإخلاص:

ـ اشتقتُ إليكِ يا هند. وأنتِ كيف أحوالك؟

أجابت هند هادئةً:

ـ ليست سيّئةً، لولا مللٌ صقيعيٌّ ينتابني، فلستُ معتادةً على الوحدة والعزلة!

فكرّت رباب، «إذن ما زالت ملتصقةً بعالمها وحياتها خارج هذا الكهف!» ثمّ سألت وقد دُهِشتْ لدقّة التشبيه:

ـ مضى عليك زمنٌ طويلٌ هنا؟

تمهّلت هند قليلاً، كأنّما تفكر بجوابٍ يهدّئ روع رباب وقد أحسّت قلقها الذي شاب لهفتها!

ـ حوالي أسبوعين، لكنّهم سيحيلونني قريباً إلى القضاء.

سارعت رباب:

ـ إذن لن يبقوني طويلاً أنا أيضاً؟

ـ لا، وسنلتقي معاً في السجن!

أتت اللفظة صفعةً على وجه رباب «هل ثمّة سجنٌ إذن؟ أين أنا؟ ولأيّ سبب؟» كأنّما تذكّرت أو تنبّهت إلى أنّها في مكانٍ حُجزت فيه حريّتُها، وقد حسبت لزمنٍ قصيرٍ مضى أنّها حازتها وأحسّت بها لأول مرّةٍ دون

خشية فقدانها أو الاعتداء عليها! كادت تدخل مجدّداً في دوّامة الأسئلة التي تولّد أسئلةً مضادةً وتبقى بعيدةً جداً عن إعطاء جوابٍ واضح، فسارعت للالتجاء إلى هند.

ـ هند، أخبريني عمّا تفتقدينه في مكانك هذا.

ضحكت هند بأسىً بالغٍ رغم الإسمنت الذي يحيّد الصوت ويجعله مجرّد ألفاظٍ تخلّت عن انفعالات ومشاعر قائلها:

ـ عليكِ أن تسألي عن الأشياء التي لا أفتقدها، ستكون إجابتي أسهل إذن!

تردّدت رباب، فهي تريد أن تسألها عن حياتها من غير أن يكون سؤالها فجّاً فينفرّ هنداً مثل هبوب. تردّد الاسم على لسانها، «من هي هبوب تلك؟» راحت تعتصر ذهنها الذي تبخّرت كلّ سوائله، لكنّها اشتمّت على مهلٍ رائحة عرقٍ واخز، داعب يديها ملمسٌ خشنٌ لشعرٍ أسود اتّصل به عرفٌ طويلٌ تداعبه الريح مهما تكاثف العرق عليه، وخاطبتها عينان حزينتان تنطقان بوجع الأسر وتتطلّعان أبداً لما وراء الجدران الطينيّة التي تربض داخلها ولا يكفي هواؤها القليل لملء رئتيها الطليقتين!

«آهٍ هبوب، تلك المُهرة، مُهرتي أنا، الشَموس التي تأبى انقياداً لغيري!» راحت خيالاتٌ تطوف في تجاويف رأسها عن منزلٍ محترقٍ ومتداعٍ أُعيد بناؤه وترميمه على عجل، اشتمّت روائحه المألوفة وبادرت للتجوّل في أنحائه لولا أنّها تذكّرت أنّ هنداً تنتظر، وعليها أن تلتفت إليها الآن قبل أن يقطع حديثهما حارسٌ فضوليّ. «سأعود فيما بعد لذاكرتي المنفيّة وقد عرفتُ كلمة سرّ الولوج إليها!»

ـ طيّب، احكي يا هند عن الذي لا تفتقدينه.

لكنّ هنداً أدركت مرامها فبادرتها :

ـ رباب، تريدينني أن أتحدّث عن نفسي أليس كذلك؟ بالمقابل تريدين التحدّث عن نفسك! هل أنا مخطئة؟

ارتاحت رباب لصراحة هند، إذ كان جواب السؤال الأوّل حاضراً في ذهنها، أمّا جواب السؤال الثاني فقد بقي معلّقاً. تردّدت، فهي لا تعلم حقّاً إن كانت تريد أن تتحدث عن نفسها! ربّما لا تستطيع! لكنّها جزمت أنّ استماعها لهندٍ سيساعدها في تلمّس نفسها. ساعتها ستحكي لها قبل أن تحكي لنفسها!

ـ بلى يا هند، أريد أن أعرف عنك المزيد، وبلى أيضاً أريد أن أحكي لك عن نفسي، ولكنّي أريد تلمّس دربي إليّ عبرك! فهل تكونين لي عوناً أم أنّك ستسيئين فهمي؟

أدركت هند من نبرة الصدق في همس جارتها أنّها تعاني الكثير وأنّ عزلتها أو صدمتها أو كلتيهما معاً قد خلخلتا استقرارها وأفقدتاها توازنها. أرادت مدّ يد العون ولم تعرف كيف، ودّت لو كانتا معاً، فلربّما ولّد احتكاكهما المباشر الشرارة التي ستشيع الدفء والثقة بينهما، بعد أن أطبق عليهما الجليد وتدمّرت ثقتهما بكلّ شيءٍ خلا نفسيهما، ولربّما وصل الدمار إليهما أيضاً!

ـ لا أدري عمّا أحكي يا رباب، ومن أين أبدأ! هل تسألين فأجيب؟ أم أتحدّث على هواي؟ أنا أعاني الكثير رغم هدوئي الظاهر، وتكاد العزلة تزعزع عقلي لدرجة أنّي أخاطب نفسي والحشراتِ التّي تمرّ بي غير مبالية! لكنّني أمتاز عنك بأنّني أعلم علم اليقين ما جنته يداي ولا أخشاه وقد أخبرتهم به كاملاً ومفصّلاً، فما الذي يريدونه أكثر ولمَ يحتفظون بي

هنا؟ ذلك ما لا أعرفه رغم يقيني بأنّ مقامنا هنا لن يطول، وسرعان ما سنلتقي قريباً ونتعارف أكثر بعيداً عن هذا الحاجز المقيت.

ترقرق كلام هند جدولاً في قحط رباب ومرّ غيماً في صحرائها المقفِرة، فبدّد وحشتها وحرك أمواج حنينٍ غامضٍ اندفعت نحو عينيها. «آهٍ يا هند، لمَ اختبأتِ كلّ هذه المدة؟ لو أنك سارعت بطرق نافذتي! أما كنتِ احتضنتِ عذاباتي وبدّدت غيابي حضوراً لجوئيّاً في أحضانك الرؤوم؟»

عادت الطفلة فيها تركض نحو حنانٍ عذبٍ في عناق أمّها الفتيّة التي أبصرت نفسَها في طفلتها، لكنّها انتُزعت بعنفٍ وقسوةٍ ولؤمٍ من أرجوحتها التي تهادت بها في فضاءاتها المفقودة والمستباحة، فاندفعت مرعوبةً نحو ركنها البعيد. كانت شرّاقة هندٍ قد فُتحت على حين غرّة وأُمسكت بجرمها المشهود؛ تقريعٌ شديدٌ وسُبابٌ وشتائمُ متبادلَةٌ تبعتها قرقعة القفل وصفعةٌ قويّةٌ وصوت ارتطامٍ هائلٍ بالأرض أعقبته بصقةٌ أُطلقت في وجه الدخيل تلتها شتيمةٌ مقذعةٌ. فُتح باب زنزانةٍ بعيدةٍ ورُميت هند في جوفها وعاد الحارس اليقظ ليصبّ بقايا غضبه على رباب المستكينة دون حراك!

في اللحظة التي أُطبقت فيها الشرّاقة بعنفٍ جعلها تنتفض مجفلةً ومرتعدة، عمّ السكون وعاودها الإحساس بأنّها أسيرة كهفٍ سَدَّت زلزلةٌ خفيفةٌ فوهته بركامٍ كثيفٍ واحتبسها داخل عتمته منتظرةً ما لا يُنتظر!

لولا تقوقعها على نفسها وبقايا رجفةٍ وخدرٍ موجعٍ أصاب ركبتيها ومرفقيها لحسبت أنّ ما حدث لا يعدو كابوساً استفاقت منه الآن وآثاره لا تزال تتردّد في مخيّلتها، من غير أن تتيقّن تماماً إن كان واقعاً أم محض خيال! خانتها أعصابها مجدّداً وتراخت مفاصلها، فلم تتجاوب مع رغبتها بالنهوض أو تغيير وضعية جلوسها على الأقلّ، أعادت إغماض جفنيها لجوءاً لنومٍ ما عاد ملاذاً ولا مُستَراحاً بعد أن أبت روحها أن تسكن وترتاح في اليقظة.. وفي المنام!!

«ما العمل الآن يا رباب؟ تخلّى الجميع عنك! حتّى هند أبعدوها، فأيّة سلّةٍ ستنفتح الآن لتطلّ عيناك من خلالها على مشهدٍ آخر؟ ما من مشهدٍ آخر. مشهدك الأخير هنا وعليك الآن أن تريه مثلما هو! ليست هند بأشجعٍ منك فقد أعلنت قبيل إبعادها دون لبسٍ أنّها قاتلة، ولو أنّها لم تجد متّسعاً لتقول إن كانت كذلك فعلاً أم أنّهم أكرهوها على قول ذلك أم أنّها دُفعت لفعله رغماً عنها.

وأنتِ أيضاً لا سبب لوجودك هنا غير أن تكوني قاتلةً أو متّهمةً أو مدفوعة! فأين تجدين نفسك؟ لا تقولي إنّك لست مؤهّلةً لفعل ذلك رغم الفارق الظاهر بينك وبينها؛ هي التي دافعت عن نفسها ولم تسكت وتذعن لانتهاك وحدتها والتعدّي على خيارها بمحادثتك رغم منعهم، وأنتِ التي استكنتِ وخضعتِ وجبنتِ عن التحديق في وجه من أهانك منذ

قليل! لكنّك تعلمين أن هنالك بركاناً كامناً تحت أضلاعك قابلاً للتفجّر في أيّة لحظة. . ولو أنّ أوان اندلاع حممه لم يحن أو أنّك لم تأذني له بعدُ!

لم تغب هند، فهي كامنةٌ في جوفك وقد أحطتِها بكتلٍ كتيمةٍ من الإسمنت عليكِ الآن تحطيمها وليس فتح ثقبٍ فيها يكون منظاراً ومسماعاً يوصلك إليها! قومي! حسبُك كلّ هذا الانصياع والاتّضاع، كم يبدوان غريبين عنك أنتِ التي لم تقبل أن تكون يوماً ظلاًّ أو إمّعةً حتى لنفسها! أم أنّك هكذا فعلاً وغطّيتِ ذلك بقشرةٍ رقيقةٍ من كلسٍ توحي بالصلابة وهي هشّةٌ أكثر من هشاشة القش الذي غلّفته؟ إذن لقد تحطّمت تلك القشرة وظهر المخفيّ والمستور جليّاً للأعين. لا، قد لا يكون ذلك صحيحاً، فلربّما كان العالم الذي ابتنيتِه داخلك ليّناً من شدّة عذوبته ورقّة جماله ورهافة أحاسيسه وقد سيّجتِه بما يمنع عنه طغيان الخارج الذي جعلك بعضاً من بنيانه الصلب الذي يحطّمك مثلما يحطّم غيرك إن سوّل لك أو له أن تواجهاه لتستبدلاه بعالمٍ مشتهىً معارضٍ ونقيض!

لكن المهدّد الآن ليس أهليّتك وحسبُ، بل بقاؤك بكلّ ما تعنيه الكلمة! هدفهم واضح، إبقاؤك وحيدةً حتى تنهاري كلّيةً وتنقادي لإرادتهم دون نقاشٍ ولا اعتراض. قاموا بعملهم على أكمل وجهٍ ولم يكن إبعادهم هنداً غير تأكيدٍ على ذلك واثباتٍ له، فهل ستسمحين لهم بإكمال مخطّطهم حتى نهايته التي يفترض أن تقدّمك لهم لقمةً سائغةً لا حول لها ولا قوة؟ تفكّري جيّداً يا رباب، فما زلتِ تمتلكين الفرصة التي حسبِوا أنّهم حرموك منها ونحّوكِ عنها. هل تستطيعين مجابهتهم عبر مواجهة ذاتِك، حتى لو اضطررتِ لاختراع هندٍ تقف تجاهك، تسمع وترد؟

ترى ما الذي كانت ستقوله حين قوطع حديثكما؟ هل عاد ذلك مهمّاً، أم أنّكِ قادرةٌ على اختراق سياجاتك العازلة من غير اعتمادٍ على اختراقاتها؟ دعي ذلك جانباً الآن فما عاد له أهميّة. عليكِ أن تخاطبي دونما حاجةٍ لأذنٍ تُصغي، وأن تعرضي على شاشة إبصارك عيناً مشارِكةً وشاهِدة، ومن غير حاجةٍ للسانٍ يقول رأيه في ما أبصر وسمع. أنتِ من عليه أن يكون ذلك كلّه، ضحيّةَ نفسك وحكَمَها العادل أو الغاشم سيّان! قُضي الأمر وآن لكِ أن تتعرّي!»

وكأنّها دخلت ما توجّب عليها أن تدخله منذ زمن! كأنّما بات عليها أن تجد حلاًّ للمعضلة التي وجدت نفسها تجاهها أو داخلها من غير أن تذكر عنها أو عن نفسها شيئاً، وتعبر الهوّة التي تفصل بين ما هي عليه وبين ما تتمنّاه أو تصبو إليه. كان عليها أن تعيد تفكيك البنيان الذي خالته شامخاً، وكان لها الحقّ في ذلك لما امتازت به على غيرها، وتفتيته وفحصه مجهريّاً ذرّةً ذرّةً وجزيئاً جزيئاً لتعزل الحقيقيّ عن المتشكّل عبر خداع البصر أو خداع الروح.

ولساعاتٍ أو لأيام، راحت تنقّب مستحضرةً ما توارى وتقطّعه شرائحَ رقيقةً تختبر صلابتها وقابليّتها للتمزّق وتقوم بعمليات تصنيفٍ واسعةٍ سجّلتها على جداول ملأت جدرانها.. مراياها التي استحالت سبّوراتٍ ضخمةً غطّتها المعادلات والخطوط البيانية التي لاحقت مجاهيلها عبر معاليمها وحلّلت تقويم تحوّلاتها ومناخات تغيّر فصولها!!

على مهلٍ استعادت مقوّمات وجودها وقوّمت بطريقةٍ أو بأخرى العلاقة المشوّهة بين ما تراه وبين ما هو كائنٌ بالفعل في دواخلها وفي خوارجها.

ـ هند، هل ترين أنّني استطعت تحطيم بعض قيودي التي كبّلتني وحزّت معصميّ وعنقي وكاحليّ. . وروحي؟

ضحكت هند باستفزاز:

ـ ما الذي تحطّم؟ أوهامُك، أم أوهامُك حول أوهامِك؟

بقيت رباب هادئة.

ـ سأغضّ طرفاً عن محاولاتك لإثارتي. حتى لو حطّمتُ أوهامي أو أوهامي حولها كما تقولين، ألا أكون قد فعلتُ شيئاً ودخلتُ عتبة تحطيم أو اختبار إمكان وقدرة تحطيم الحقيقيّ؟

لم ترعوِ هند فتابعت على ذات الوتيرة:

ـ حسنٌ لنفترض ذلك، ولأكن أنا المثال، لنفترض أنّني حطّمت فعلاً وواقعاً قيداً حقيقيّاً رسفتُ في أغلاله طويلاً، لنفترض أيضاً أنّني فعلت ذلك تحت ضغط ضرورة تحرّري منه، ما الفائدة الآن؟ أما انتقلتُ من قيدٍ إلى قيد؟

سارعت رباب للقول، كأنّما تدفع عن نفسها تهمةً لم توجَّه إليها وكأنّما تستحضر، دون وعي، عادلاً في كلماتها:

ـ لا، أنتِ مخطئةٌ في هذا دون ريبٍ يا هند. لربما انتقلتِ مثلما قلتِ من قيدٍ إلى قيد، وسأفترض أنّهما من نمطٍ واحدٍ رغم أنّهما ليسا كذلك. تبقى المسألة الأساسيّة أنّك في تحطيمك القيد الأول تقدّمين مثالاً وقدوةً لتحطيم أيّ قيدٍ بما فيه قيدك الجديد الذي إن لم تستطيعي تحطيمه أنتِ فلربّما أتى غيرك وقام بذلك نيابةً عنك وأصالةً عن نفسه.

كان المنطق هشّاً لكنّ هنداً انتظرت، ظانّةً أنّ ثمّة المزيد في جعبة رباب.

ـ أنا أتحدّث عن نفسي يا رباب، لقد تركتُ أطفالاً ورائي، هل سيأتي ذلك الآخر ويرعاهم ويعيلهم مقدِّماً لهم ما يحتاجونه من عطفٍ وحنانٍ ولقمة خبز؟

أرادت رباب أن تقول شيئاً مكروراً عن ضرورة التضحية أو عن شيءٍ معاكسٍ لا يخلو من تكرار، عن أن ربّهم لن ينساهم. . لكنّها بدل ذلك صمتت والتفتت إلى نفسها، «رباب، لقد عدتِ تفكرين بشكلٍ أو بآخر، تلك نقطةٌ مهمة. لمَ لا تبدأين بنفسك؟»

على مهلٍ بحثت عن آخر علامات اليقظة، واكتشفت أنّ أولاها ارتبطت بسؤالٍ علِقَ في زاوية صيوان أذنها وبقي يتردّد من غير أن تجرؤ على إدخاله وتحليله والإجابة عليه، لنفسها قبل أن يكون لهم!

«لمَ قتلتِه؟»

مسّتها رعدةٌ خفيفة، فسيطرت عليها بعد لأي. لكنّ السؤال استحال في رأسها سؤالاً آخر دون أن تدري كيف.

«من الذي قتل عبد الجبّار؟»

أوجعها مقتل أبيها، لم يخطر لها أبداً إن كان ثمّة لبسٌ أو أنّه قُتِل فعلاً، كان قتله بالنسبة لها أمراً مفروغاً منه كأنّما عرفته من قبلُ، وعانت فقدانه الذي نهش روحها وأقضّ مضجعها. . وبعد أن وارته الثرى بيديها، يأتي وقت إعمال ذهنها فيمن قتله! ألن يكون في معرفتها للقاتل شيءٌ من الوفاء له بغضّ النظر عن قدرتها على الانتقام والثأر في وضعها الحالي؟ فكّرت من جانبٍ آخر أنّ مجرّد معرفته وإيجاد الدلائل التي تدينه سيكفي لتخليصها من عزلتها القسريّة تلك ومنحها إمكانيّة البحث عنه والاقتصاص منه! قادها ذلك إلى نقطةٍ شديدة الأهميّة، «إذن أنا هنا لأنّني متّهمةٌ بقتله! من يصدّق هذا؟ أيعقل أن تقتل ابنةٌ أباها، خاصّةً إن كانت رباب وعلى الأخصّ إن كان عبد الجبّار؟!»

راحت أسرابٌ ضخمةٌ من الجراد تئزّ في أذنيها وتغطّي مجال رؤيتها، هي متأكّدةٌ أنّها تتحرك، تتقدّم وتتراجع، تعلو وتنخفض، لكن ما بالها لا تنزاح من أمام عينيها ولا يخفت صوت اصطفاق أجنحتها المعدنيّ في أذنيها؟ وهاهي تستحيل دبيبَ نملةٍ عملاقةٍ ترتجّ الأرض تحت وطأة ثقلها، غافلتها وراحت تدبّ في رأسها، ما كان مهمّاً إن كانت تتجول على سطح دماغها أم أنّها اخترقت تلافيفه وراحت تسعى في جوفه متنقّلةً بين منطقته البيضاء ومنطقته الرماديّة، لأنّ تحركها أيّاً كان موضعه صدّع رأسها وجعل جسدها يرتجّ كأنّما كلّ خطوةٍ تعادل انفجاراً يخلخل الهواء دون لهبٍ ويميد بالأبنية التي تعترض أمواج تنقّله، وهي تشكّل في اهتزازاتها المتتالية شيفرةً لسؤالٍ تنقله طبلة أذنها من الداخل قبل أن تتلقّاه من الخارج، «من الذي أوقع بكِ وألبسكِ تلك التهمة؟ كيف استطاع تلفيقها بطريقةٍ صدّقتها الشرطة فأوقفتكِ ساهيةً عن عجزك عن فعلها؟ ستقولين بملء فيك دون تردّدٍ إنّني قادرةٌ على قتل أيٍّ كان حتى نفسي لكنّني لا أجرؤ على قتله! لا أجرؤ حتى على التفكير بذلك! أين اختفى ذكاؤك؟ وكيف أضعتِ حذرك حتى استطاع أحدُهم أن يستغلّ أمراً لا يزال مجهولاً بالنسبة لك ويقمّصك تهمةً باطلةً دون أن يترك مجالاً للشكّ لا بلعبته ولا باحتمال ألاّ تكوني أنتِ الفاعلة؟»

أخذ تفكير رباب يتّخذ وجهةً أخرى، سألت من له مصلحةٌ بقتل عبد الجبّار. لكنّها اصطدمت بسؤالٍ آخر، «أيُعقل أن أكون قد اعترفتُ دون وعيٍ بأنّني الفاعلة؟ محال! فما الذي سيدفعني للإقرار بفعلٍ لم أفكّر فيه؟ لكن ما الذي جعلهم يتّجهون نحوك بكلّيتهم باعتبارك الفاعل الحقيقيّ، أيمكن أن يكون غير اعترافك؟ وعلى فرض أنّ الذي خطّط لذلك كلّه أوهمهم بوجود دلائل ماديّةٍ تدينك، أيمكن لهم أن يستغنوا عن إقرارك الشخصيّ؟ لكنّي لا أذكر الآن أنّني قد اعترفت بشيءٍ منذ

وجدتُ نفسي هائمةً على وجهي وصولاً لحشري في هذا الكهف السرّي المغلق. حتى حين حاولوا اغتصابي وتهديدي وجلدي وإهانتي، فلا أذكر أبداً أنّني فِهتُ بحرفٍ واحد! كيف تتأكّدين من ذلك؟ ما الذي يجعلك متيقّنةً إلى هذا الحد، ما الذي يؤكّد أيّ شيءٍ في حالة الضياع التي كنتِ تهوّمين في متاهاتها ودروبها ومنعطفاتها المتشابهة قبل زمنٍ قصير؟ لا أدري لكنّي أجزم أنّني ما فعلتُ ذلك ولا أملك الدليل! لكنّهم يملكون كثيراً من الأدلّة يا رباب وربّما اعترافَك أيضاً، فما مبرّر إبقائك إن كانوا يرجّحون براءتك؟ لا أدري، لا أدري! كلّ ذلك يفزعني. وما يروّعني أكثر أنّ أحداً لم يأتِ ليطمئن عليّ أو يسأل أو يخبّر بما حدث! ألا يقدّم ذلك دليلاً بيّناً على أنّك اعترفتِ بفعلةٍ لم تقدمي عليها فقاطعك أهلك؟ حسنٌ، في صدمتهم ربّما يتنكرون لي إلى حين انجلاء الأمور، ولكن.. حسّان! لمَ تخلّى عنّي على تلك الصورة وخذلني على هذا النحو؟ أيُعقل أن يصدّق هو الآخر أنّني فعلت شيئاً كهذا؟! لأقل بأنّه لا يريد أن يتورّط بقضيةٍ هو أجبن من مواجهة قضايا أتفه منها، فما الذي أخّر راوية عن القدوم أو الاتصال؟»

كانت رباب تثوب إلى رشدها، رغم اعتقادها أنّها لا زالت تتخبّط في محاولات إيقاظ صحوتها واستعادة نفسها ومعرفة ما حدث وموقعها منه وموقفها تجاهه. ما عادت تحتمل جلوسها وقد ضاقت بها سلسلةٌ لا نهائيّةٌ من أسئلةٍ لا تملك الحدّ الأدنى من قدرة الإجابة عليها، تتمدّد في داخلها وتتوسّع حتى تكاد تمزّقها، كأنّما صارت سياطاً تجلدها من الداخل وتحاول عبر حزّ لحمها إيجاد منافذ لتخرج منها وتستنشق هواءً طلقاً!

نهضت لتتخلّص أو تخفّف من وقعها وراحت تجوب الحيّز الضيّق دون توقّف، وقد أهملت ضيقه وشرعت على إيقاع خطوتها في قراءة ما

خفيَ بين السطور التي استعادت معظمها دون أن تفقه الكثير منها . لكنّ إصرارها وحاجتها للتخفيف من سطوة رعونتها التي أوصلتها حيث هي الآن دفعاها لمعرفة المزيد . قلّبت الأمر على وجوهه متقصّيةً إيّاه بإمعان .

«عليك أن تعرفي يا رباب مَن فعل ذلك بعبد الجبّار وبك و أن تتيقّني منه! لا مفرّ إن كنت تريدين خلاصاً لروحك أو لجسدك ، فأيّ تراخٍ سيعيدك حيث كنتِ ، كتلةً هلاميّةً غير متجانسة ، تكويناً بدائيّاً خارج مرحلة الوعي وفي دائرة الإحساس . حينها لن تكوني المضيّعة إلى الأبد وحسبُ ، وإنّما المتيحة للفاعل بأن ينجو بفعلته ويجني ثمارها إلى الأبد أيضاً . ما أغباهم! سواءً أكنتُ اعترفت أم لم أفعل ، كيف يتوقّعون من فتاةٍ متعلّمةٍ ومتّزنة بَنَتْ حياتها لبنةً لبنة ، وأوجدت لنفسها موضعاً ومكانةً متميّزين ، أن يقودها دافعٌ مجهولٌ لتدمير عالمها وتقويضه عن بكرة أبيه؟ كيف ظنّوا ـ وإن وُجِد الدافعُ ـ أنّها خضعت له وانقادت دون تفكيرٍ أو حسابٍ للعواقب؟ وإن حدث ذلك في حالة اختلال توازنها ، ف كيف يمكن لها أن . . تقتل أباها!

قوليها يا رباب ، لا تخشي منها فلستِ فاعلتَها . ألم تغضّي طرفكِ كيلا تواجهي عينيه؟ عليكِ أن تصرخي بأعلى صوتك دون أن تأبهي بهم ، لستُ قاتلةِ أبي . . لستُ أنا! مهما كنتُ شريرةً ومهما كنتُ متوحّشةً ومفترسةً فلا يمكن أن أتنكّر لمن ساهم بقوةٍ في إنشاء عالمي الجميل الذي أتاح لي تحمّل قسوة العالم الكريه الذي عشت ضمنه . فكيف أخونه وكيف أمحق وجوده؟ ما الدافع وما المبرّر؟ ابحثوا ما شئتم فلن تجدوا ، لأنّني حقّاً لا أملك دافعاً ولا مبرِّراً!

أأكون فعلتُها في لحظة غضب؟ لا ، لا يمكن ، حتّى في لحظةٍ كتلك ، فليس هناك ما أكرهه فيه لدرجة أن يعميني في تلك اللحظة! ربّما أعماني تجاه أمي التي ولدتني من لحمها لأنّني كرهت حقيقة خنوعها ، وملأني اشمئزازاً تحوّلُها لحيوانٍ أليف . ليتها استحالت آلةً ، فما كان لتلك

الكراهية وذاك الحقد أن يعتملا في داخلي . أمّا تجاه من علّمني كيف أكون ، وأنّه لا يمكن لي أن أكون دون أن أواجه ، وكيف سيكون في تلك المواجهة بالذات معنىً لوجودي ، وكيف ستضفي قيمةً على حياتي ، إذن لقتلت نفسي قبل التفكير بقتله!

لا ، لا يحاولنّ أحدٌ إيهامي بأنّني مؤهّلةٌ لفعل ذلك ، لو أردت فعله لفعلتُه تجاه ما أدرك وأشعر بضرورة بتره ، غضضتُ طرفي عن انتشاراته السرطانيّة التي مسّتني ، وربّما أصابتني بعدواها دون أن أفكّر بضرورة القضاء عليها ، أو أنّ تلك مهمتي وذاك واجبي ! ! دعوني من ذلك كلّه كي أعيد تشكيل ما حدث ، علّني أتوقّع من يكون الفاعل أو المستفيد ، سواءٌ من القتل أم من إلقائي حيث يكون مصيري الموت . »

تنبّهت رباب فجأةً إلى مخاطر استمرار بقائها حيث هي ، وإلى أنّ صمتها وتردّدها وإهمالها وتراجعها ستقودها شاءت أم أبت إلى مذبحٍ لن تكون فيه سوى أضحية ، قرباناً لذنب غيرها ! ليس مذبحاً بقدر ما هو مقصلةٌ تريق دمها ليغسل إثم غيرها والعار الملتصق به إلى الأبد . . . «قاتلة أبيها ، قابيل بزيٍّ جديدٍ في عالمٍ مغاير ! ! »

«ليس الموت هو ما يخيف يا رباب ، أنت أدرى بذلك من غيرك ، تعرفينه دون لبس ، وإنّما ما بعد الموت . . ما وراءه من ذكرٍ باقٍ سيلاحقك أيّان كنتِ وأيّاً كانت حياتك ! هل ستتركينهم يلوّثون دمكِ على هذا النحو ، هل سترتضين لنفسك أن تكوني مضغةً تلوكك الأفواه ، ثمّ لا تلبث أن تلفظك وهي تنقل رفاتك التي لا تفنى من جيلٍ إلى جيل؟ رباب عبد الجبّار ، قاتلةُ أبيها ! ! ! ما العمل لأنجو من مصيرٍ كالحٍ كذاك؟ عليكِ أن تبحثي ، لا تكلّي ولا تملّي حتى تجدي الفاعل والبرهان . هيّا ولا تحتجّي بأنّك فقدتِ ما يمكّنك من المباشرة بعدما تخلّى الجميع عنك ، تلك قولة الضعفاء الذين يستسلمون لمصيرهم دون صرخة احتجاجٍ أو

محاولة مقاومةٍ أو حتى هروب. ما كنتِ يوماً منهم فلمَ تحشرين نفسك في صفوفهم؟ استلّي أدواتك وبادري بوضع منجنيقات الحصار، كيلا يفرّ ويتوارى أيٌّ ممّن عليهم المثول أمامك.. والخضوع لاستجواباتك وتحقيقاتك!!!»

«كان لا يقارع إلاّ بالحقّ، فأنّى يكون له أعداء؟» قالت رباب لنفسها واستدركت، «بل ذاك ما يدفع الكثيرين لعدائه!» كانت تدافع عنه بلاوعيٍ وتحيّزٍ، وكلّما قبضت على شططٍ في سلوكه وتصرفاته علّلته وأحالته إلى صيغةٍ تتّخذ معنىً مخالفاً. مهما حاولت الرجوع لحياته السابقة والقديمة، كانت تصطدم بحاجز عجزه الذي أقعده في سنواته الأخيرة، وجعله هادئاً مسالماً ملتجئاً لربّه، يعزّي نفسه ويتدرّب على عذابات دنياه قبل آخرته! حتّى سورات الغضب النادرة التي صدف واجتاحته كانت تتبدّد سريعاً ويحاول جاهداً محو آثارها. عادت إلى ذاكرتها سورة غضبه الأخيرة على ناصيف، فسطع الاسم في رأسها ضوءاً وحيداً مُبهراً أعماها عن كل ما عداه!

«أيمكن أن تكون أنتَ يا ناصيف؟ لطالما كرهتَني ولطالما حاولت الاقتصاص منّي وإرغامي على الانصياع لك والتجرجر في أذيالك. وقد أعنتَك رفضي وأرهقك دفاعي عن نفسي. هل سولّت لك نفسك التخلّص منّي بتلك الطريقة المنحطّة؟ أيمكن لك فعل ذلك يا ناصيف؟ هو أبوك، وأنا شقيقتك! أيمكن مهما بلغت بك العداوة أن تفعل؟ لا، لا، ربما كنتَ وحشاً حقيقياً، لكنّك لا تستطيع الفتك بتلك الطريقة. وبمن؟ بأبيك وأختك!! وإن قبلتَ، أترتضي لنفسك أن تكون مُضغةً في الأفواه؟ محال، فهو ما تأباه أكثر من أيّ شيءٍ آخر. ولكن كم ستكون الغنيمة وافرةً يا ناصيف؟ حققّت لك ضربةُ حظٍّ مجهولةٌ كلَّ ما تقتَ إليه وقدّمتْه لك على صحنٍ من ذهب. أكنتَ تدفع ثمن ذلك نذالةً ما بعدها

نذالة؟ أتكون قد ورّطت نوّافاً أو غانماً أو أي شبيهٍ لهما ووقفتَ منتظراً وراء الستائر؟ لا، لا يمكن! قد تفعل ذلك مع شخصين غريبين، أمّا مع أبيك وأختك فذاك محال! من يكون إذن؟ من سيفيده التخلص منّي ومن عبد الجبّار معاً، من غيرك أنت يا ناصيف؟!»

من جسدها بدأت الرحلةُ التي أوصلتها إلى بوابات الرّوح، ومن بوابات الرّوح ومن خلال نافذة هندٍ عبرت إلى العالم الأوسع والأرحب، اكتشفت ضآلتها؛ حشرةٌ صغيرةٌ تتحرك بحذرٍ وذعرٍ بين آلاف الأقدام اللامبالية والعجولة، خائرةً تخشى في كلّ لحظة أن تطأها! سألت نفسها «ما الذي نفّرك من البلدة ودفعك نحو المدينة؟ هل كانت متابعة دراستك هي السبب أم كانت الذريعة والتغطية لسببٍ آخر أكثر أهميّةً وجوهريّة؟» عادت سنواتٍ طويلةً إلى الخلف.

كم مضى على ذلك، ست سنين، سبع، أكثر، أقلّ؟ ما همّها الآن، المهمّ الوحيد بالنسبة لها أن تعرف المعادلِ الحقيقيّ لنزوعها نحو الفرار! «أكان ذلك كما أوحيت لنفسي، آفاق البلدة لا تتّسع لك يا رباب، تضيّق عليك وتنحو لخنقك في النهاية أو الدوس عليك وإلصاقك بالأرض!

أكان ذلك ردّاً غير مباشرٍ على التدخّل بشؤونك، صغيرها وكبيرها، الذي اتّخذ شكل قمعٍ مباشرٍ حالما بانت ملامح الأنثى فيك وأضحت العيون تلتهمك، رغم وجهك الطفوليّ الأقرب لوجوه الصبيان؟! ألم يهمس أبوك في أذن أمّك يوماً أنّ زغباً ينمو على شفتك العليا، وأنّه لن يفاجأ إن صحا يوماً على صوتك وقد أصبح أجشّاً!؟ لكن أنّى لك إدراك ذلك وهو يمارَس كقانونٍ طبيعيٍّ عليك وعلى بنات جنسك؟ أوكان ذاك جموح إحساسك بذاتك والتضخيم الذي بثّه أبوك فيها لتكون خيراً من غيرها وأكثر تميّزاً، مؤكِّدةً ذلك بتفوّقك المدرسيّ وذكائك المشعّ

وتفرّدك الخاص؟ ألم يتمنّ يوماً لو كنتِ بِكرَه، لكنت إذن خيراً من نسله كلّه ولما عادلوك مجتمعين؟! أما كان ذلك سبب التصاقك به بعدما أضفى حمايته عليك وحدّ من تسلّط وشطط الإخوة والأقارب؟! ألم يساند قتالك من أجل متابعة دراستك، ويؤازر حربك من أجل افتتاح صيدليتك؟ ألم يقل دفاعاً عنك بأنّه على استعدادٍ لإطلاقك بين قطيعٍ من ذكورٍ هائجين واثقاً أنّهم لن ينالوا منك سوى ما يخجلهم؟! أما ساوى ذلك كلُّه نقيضاً لنزوع شقّ آفاق جديدةٍ والبحث عن فضاءاتٍ أرحب، تجدين لنفسك داخلها مكانةً تعادل قيمتك، وهدفاً يضفي تحقيقهُ دلالةً على معنى وجودك؟ بلى. . ولا! بلى لأنّ هذا ما حصل فعلاً. ولا، لأن ثمّة نوازع ودوافع توارت خلف تلك التعليلات والتسويغات! ما هي؟ وكيف استطعتِ مواراتها عميقاً حيث أضعتِ مكانها، وتهتِ عنها زمناً طويلاً حتى أشرعت عليك أسنّة أسئلتها لتستلّ أجوبتها رغماً عنك ورغماً عنها؟ كيف ذلك؟ ولمَ الآن؟ وهل سيفيد ذلك في الوصول لمبتغاك وغايتك؟ كأنّما تتناسين أنّ مهمّتك الآن اكتشاف قاتل أبيك، أعجزتِ عن إيجاد متّهمٍ وتحديد دليل؟ أم أنّك لا تجدين نفسك مهيّئةً للقيام بدور الديّان قبل أن تبرئّي نفسك من عللها وتطهّريها من الآثام حالما تسترجعين ثقتك بجدارتها على إطلاق الأحكام؟»

والت رباب البحث في ذاكرتها، لكنّها انحرفت باستمرارٍ عن الهدف الذي وضعته نصب عينيها. كلّما أطلقت العنان لأفكارها أو تخيّلاتها لتُطبِق في لحظةٍ مباغتةٍ على القاتل الذي اختفى دون أثرٍ، سوى توجيه أصبع الاتّهام نحوها ووضعها موضع الإدانة. وجدت نفسها تنحرف عن خطّها وتصطدم بذاتها وهي تحاول التخفّي وراء البحث، وقد أمسكت

نفسها متلبّسةً في محاولات إثبات التهمة على أيّ وجهٍ يمرّ أمامها أو يخطر على بالها. وقد دهشت أشدّ الدهشة حينما رأت، في لحظةٍ مفلتةٍ من عقال عقلها، عبد الجبّار وقد قتل نفسه، أو تصنّع موتاً ليفضح علانيةً خوافي أبنائه وما يضمرونه في سرّهم، وما وجد خيراً منها ليأتمنه على سرّه، إلى حين افتضاح أمرهم جميعاً. لكنّ ذلك شكّل دافعاً أقوى لعزل الشوائب التي أتخمت رأسها، حتى ما عادت خلايا دماغها تظهر أمام كثافتها وتضخّمها!

«ما عاد لك يا رباب إذن إلاّ أن تندفعي تجاه نزع الإدانة عن نفسك، وتعرضي براءتك بالبرهان الساطع الذي لا يقبل جدلاً ولا تأويلاً، على نفسك أولاً وعليهم ثانياً، ومن ثمّ ستقومين بالبحث عنه وحدك، وحالما تضعين يدك عليه، ستفكّرين ساعتها إن كان عليك تسليمه لهم أو الاقتصاص منه بيديك.»

وعلى الرغم من ظاهر رباب المتّسم بالهزال والضعف والشحوب وعلامات السقوط في براثن الجنون، إلاّ أنّها كانت في باطنها تسيطر على أعنّة الأزمة التي عصفت بها، وتوالي سيرها على الطريق الصحيح في استعادة مكنونات وعيها وصحوة ذهنها، رغم تحرّكها كوحشٍ مفترسٍ هوى عليه فجأةً قفصٌ معدنيٌّ زجاجيٌّ يرى خلاله أمديته دون أن يشتمّ روائحها، فيضيق ذرعاً بإحساس الاختناق، ويندفع ليبعد عن المنطقة الغريبة التي أوقعته خارج الزمن، فلا ينال سوى تحطّم أضلاعه وزئيره المفجوع بحريّته المصادرة. لم يصدّق أنّه فقدها إلا حين أحسّ أنّ زئيره استحال أنيناً مكتوماً، وأنّ نيران عينيه قد خبت وأضحت بقايا رماد، من غير أن يفقد أمل إيجاد طريقةٍ للخروج من مصيدته المطبِقة والجاثمة حواليه وفوقه.

هكذا كانت، فإن تطلّعت من ذات المنظار ستجد طريقها، وبأسرع وقت.

«عبرتِ عالمك الجميل.. مضى ذلك مثلما مضى زمن انكسار القيد. بقيتِ وحيدةً دون رعبٍ ودون خشية، فمن الذي حاول أن يشوّه عالمك أو يلوثه؟ أيعقل أن تكوني أنت؟! لا، إذن فمن قتل عبد الجبّار؟»

تقلّبت رباب على تلك النيران... وكان ابتراد جمرها رهناً بشيءٍ وحيد، التخلّص من شكٍّ بدأ يغزو دمها وينخر أعصابها ويفقدها السيطرة عليها مجدّداً. عليها أن تثبت براءتها من دم عبد الجبّار كأنّما تعود إليه، كما بدأت منه ومثلما ستنتهي إليه.

«أيَّ وجودٍ كانه بالنسبة لك يا رباب؟ ظلَّ الفيء ملاذَ الحمى نوبةَ الحمّى وإشراع الحواسّ. كان الخطوة الأولى وكان اللطمة الأولى فكأنّه دوماً سرير الاحتضار. لكنّه أبتِ؛ من أضع صدري بينه وبين رصاصةٍ تأتي مواجهةً، أما الخؤونة فلم أُعنَ بها. كان عهدَ براءتي رغم شراسته، فالعنف بعض إرثه الدموي، موصولاً بشريان الجدود وصخر الوحشة والماء المخادع. كان بعضاً من التربة الجرداء والغيم المداهِم، صقيعَ البرد، حرَّ الصيف، ثلجاً لا يذوب على القمم. كلّ هذا كان منه وكان فيه، فكيف لا آلفه؟ كانت أنَفَتُه ونخوته وشجاعة الحقّ التي تدفع عنه رعب الموت، والصدقُ الذي لا يماري ولا يداري، توقفهُ عند رأيه، فلا يتزحزح ولا يتخلّى عنه إلا إن تخلّى عن نفسه! كان معادلاً لطبيعة الأشياء دون زيفٍ، دون تمويهٍ أو خداع. أحسستُه هكذا ورأيته هكذا.

كأنّما تقمّصتهُ على ذات الصورة. قلتُ، عليكِ أن تكوني مثله، وعليك أن تستطيعيه! حاولتُ وحاولت.. اكتشفتُ افتقاري للكثير مما يقاربه ويجاريه، ولكنّني لم أوقف المحاولة. وكأنّني صرتُ. أو

اقتربتُ فصرنا بُرهةً مسروقةً من زمن العيون التي ترقُب والآذان التي تُنصِت والأصابع التي تشير، شيئاً واحداً مندمجاً لا يتمايز شطراه! كان صعباً، بل محالاً تشويه الهالة التي أحطتُه بها. تسامحتُ مع كل تحوّلاته، مع أنّي لم أتسامح أبداً مع نفسي وتحوّلاتها. هل فعلتِ ذلك حقاً يا رباب، معه أو مع نفسك؟»

لو أنّها سألتْ نفسها هذا السؤال منذ زمنٍ طويلٍ لما تردّدت في الإجابة عليه، أمّا الآن وهي تركّز طاقاتها للدفاع عن نفسها، فبدتْ متردّدةً تجاه نفسها وتجاهه! لكنّها ستدرك بعد حين، كلّما اتّسعت الخنادق التي فصلت بين ما اعتمل في داخلها وبين ما صوّرته لنفسها، أنّها كلّما حاولت انتزاع ما يشوب ويلوّث العالم المشترك الذي أرادته أن يتماكب مع حياتها، وجدت شيئاً ما يلتصق ويكاد يبدو جزءاً من النسيج الذي ألِفته ناصعاً.. شديد البياض!!!

إلا أنّ المفصل الذي سترتكز عليه، ليكون نقطة الوثوب نحو المجاهل التي عليها تبيّنها، سيضعها بعد حينٍ أمام السؤال الغامض الذي سيلفّها بحيرته قبل أن تجد الإجابة!

«ممّن هربتِ وممّ فالتجأتِ إلى المدينة؟ أما وجدتِ ما هربتِ منه يلاحقك فيها؟ أما تكشّف لك المخفيّ والمبطّن سافراً صريحاً وفجّاً؟ فلماذا بقيتِ ولم ترجعي وواصلتِ الرحيل؟!»

كان في السؤال ما تعجز عن إدراكه فلا تجيب، لكنّها لم تستطع إهماله، كلّما حاولت التفافاً عليه أتاها من منعطفٍ تالٍ، نهايةَ ممرٍّ مسدودٍ لا تستطيع عنه عودةً ولا إلى تخطّيه سبيلاً!

«دعي ذلك يا رباب! تذكّري أين كنت ساعتها وحسب. إن كنتِ بعيدةً، فكيف يمكن أن تكوني الفاعلة؟ لكن أنّى لي معرفة زمن حدوث

الفعل؟ هل أعرف الموضع والمكان؟ لكنّك تعرفين دون ريبٍ أنّ عبد الجبّار ما عاد يغادر بيته إلاّ فيما ندر. حسنٌ، وما أدراني إن كان قد قُتل في واحدةٍ من تلك الغدوات؟ فوق هذا نسيتُ تماماً وامّحى من ذاكرتي أين كنتُ، أفي المدينة؟ لا، محال! وإلا كيف توقّعوا أن أكون أنا؟ كذلك لم يزرني هناك أبداً. هل كنتُ في البلدة ساعتها؟ ما الذي دفعني للذهاب إليها، ولم يكن وقتَ زياراتي المعتادة؟ ثمّة ما يحيّر ولا أستطيع رؤيته أو تفسيره! بدأتُ أضيق ذرعاً، والصداع يكاد يحطّم جمجمتي. لا يا رباب، لا يداخلنّك اليأس سريعاً، لا يزال ثمّة الكثير. ألا تأخذين قسطاً من الراحة، إغفاءةً قصيرة؟ ربما.. ربما استعدت قواك ونشاط ذاكرتك!!»

كان التعب والجهد قد حطّم قواها فما أمهلها النوم...

فتحت جفنيها. ثمّة مشعلٌ مرتفعٌ يزيح بعضاً من عتمةٍ احتلّت عينيها. ميّزت غرفةً واطئة، جدرانها من حجارةٍ خشنة، تسيل مياهٌ سوداء على سطوحها أطبقتْ على رئتيها فافتقدت الهواء! فُتح بابٌ حديديٌّ ضخمٌ على حين غرّة، وعلى صليل مفاصله الصدئة اقتربت خطواتٌ رتيبةٌ لهيكلين ملفّعين بالأسود وقد التمعت جزماتهما الطويلة وعيونهما من تحت قناعين مخروطيّين غطّيا وجهيهما، أمسكاها من عضديها بسرعةٍ فتساءلت مرعوبةً بعينيها، أين؟ لم يمهلاها ولم يجيبا. سحباها، وقد خارت قواها، في ثوبها الأبيض الخلِق حافيةً تُجَرجَر على الأرض الحجريّة الخشنة. تنبّهت لظلّها المتأرجح تحت ضوء مشعلين رفعهما الرجلان عالياً بيديهما الطليقتين. كان شعرها طويلاً، ارتابت أن تكون هي.. وما لبثت أن تيقّنت أنّها هي بالفعل، غامت الدنيا حولها، أين يقودونني؟

عبر ممرٍّ طويلٍ انتثرت على جانبيه مشاعل مرتفعة، وصلوا إلى بوابةٍ ضخمةٍ فُتحت على حين غرةٍ فأدخلاها. . ولجت قاعةً فسيحةً ملئت حلكةً بدت مصطنعةً، كأنّ إنارةً ما تضفي عليها ذلك الطابع، مسحتها بعينيها الذاهلتين فوجدت في نهايتها مشعلاً ضخماً يسقط نوره على كتلةٍ غريبةٍ تموضعت أسفله، تبيّنت قبيل أن تصل إليها أنّها منصّةٌ ضخمةٌ يتدلّى من عمودها العلويّ حبلٌ غليظٌ عقدت بآخره أنشوطةٌ واضحة المعالم فسقط قلبها. اقتربت النهاية!

كادت تتهاوى بين يدي حارسيها اللذين توقّعا ذلك، فشدّدا قبضتيهما على عضديها وواصلا خطوَهما الرتيب. . . حاولت أن تتماسك ففشلت، اصطكّت ركبتاها تحتها، لكنّها بقيت واقفةً وقد أفلتها الحارسان. من الظلمة برز جلاّدٌ مشابهٌ ضمّ رسغيها خلف ظهرها وقيّدهما بحبلٍ حزّهما. تراجع الحارسان ووقفا إلى جانبي المنصّة على مشهدٍ منها. «ألن يسألوني طلبي الأخير؟» منّت نفسها بدقائق إضافيةٍ وتمنّت أن تحتضن أمّها وحسب! غطّت عينيها عصبةٌ سوداء وشُدَّت فآلمتها، ولم تفه. «ألن يُتلى على مسامعي أيّ شيء؟» أدهشها الصمت المطبق. أقنعت نفسها أنّ خير ما تفعله هو التفكير بأيّ شيءٍ خلا وضعها الحاليّ. دفعتها ذراعٌ صلبةٌ من ظهرها. «آن الأوان!»

راح قلبها يدقّ بقوةٍ غطّت صدى قرعٍ متّئدٍ لطبولٍ بعيدةٍ لم تتوقف طوال الوقت. أوقفها الجلاّد، أدارها حول نفسها فأحسّت أنّها تواجهه. أمسكها من مرفقيها، وأحسّت أنّها تلامس كرسياً منخفضاً خلف ساقيها، ضغط مرفقيها بإشارةٍ واضحةٍ فامتثلت صاعدةً الكرسي. ودّت لو تسأله إن كان لا يرى ما تفعله يداه في نومه، فلا يستيقظ مرعوباً على صرخة إحدى ضحاياه! لكنّ الأنشوطة طوّقت لحظتها عنقها وراحت الكفّان

الخبيرتان تشدّانها على مهل . . . جفّ حلقُها وتمنّت جرعة ماءٍ باردةً أحستّها على جبهتها التي تكاثف عليها العرق حباتٍ ثقيلةً تساقطت فوق عصبتها .

استطال الزمن . . عدّت : واحد . . اثنان . . ثلاثة . . متى سيُزاح الكرسيّ وأسمع صوت تحطّم فقرات عنقي؟ لكنّ يداً انتزعت بعنفٍ عصبتها ، فراحت توسّع حدقتيها لتتبيّن المشهد . هل سُحب الكرسيّ ومتُّ دون أن ألحظ؟ تبيّنت الجلاّد العملاق أمامها وظلال المشاعل وأضواءها البرتقالية المتراقصة . . رأت يده ترتفع نحو رأسه وتنزع عنه قناعه . هتفت : أبي ! ! واندفعت رجلاها نحوه لتعانقه رغم يديها المقيّدتين . . . آنها ، سمعت قرقعة تحطّمٍ داخل رقبتها .

فتحت جفنيها وأزاحت كفّيها المطبقتين على عنقها ، ازدردت لعابها الجاف ، نهضت نصف مستيقظةٍ نصف نائمةٍ ، اتّجهت نحو الصنبور ووضعت رأسها تحت صبيب الماء . كمن مسّتها حمّى ، راحت ترتجف رغم إحساسها الخانق بالحرارة واغتسالها بعرقٍ ينضح دون توقّف . تذكّرت فرن أمّها ، لم تذكر صداقته الشتويّة ، بل دخلت جحيم صيفه .

ـ أمّي ، اخرجي لترتاحي قليلاً ، سأكمل عنك .

ـ لن تُحسني ذلك يا رباب ، ولن تحتملي شدّة الحر .

ألحّت الصبيّة المتّهمة بأنوثتها والتي تريد إثباتها بطريقةٍ خرقاء :

ـ دعيني أجرّب على الأقل !

ضحكت الأم وأفسحت لها مكاناً قرب فوهة التنّور المستعر التي لم تخفّف رائحة الخبز الزكيّة الفائحة منها اللظى المنتشر حولها .

ـ انتزعي الأرغفة إذن، وحاذري إحراق أصابعك!

حالما اقتربت، لفح وجهَها الوهجُ الدمويّ، وأبصرت الجمر المتّقد في جوف التنّور وقد انعكس وهجه على جدران مخروطه الكلسيّة الملساء، فاستحالت ورديّةً وقد اختلط لونها بالأرغفة التي نضجت على مهلٍ وكادت تنفصل عن الجدران وتسقط في قاع البئر الناريّ. حاولت مدّ يدها، إلا أنّها تراجعت حين أحسّت أنّ النار تكاد تمسّها وتحيلها جزءاً منها. ضحكت الأم مجدّداً، لكنّها نهرتها:

ـ هيّا مدّي يدك ولا تخافي، ستسقط الأرغفة سريعاً.

تردّدت رباب.. أرادت أن تقول لا أستطيع، لكنّها أبتْ، حدّقت في جوف الفوهة وحدّدت موقع رغيف، ثم أغمضت عينيها ودفعت يدها والتقطت طرفه وسحبته بسرعةٍ بعدما اكتوت رؤوس أصابعها بلسعه. ابتسمت وفتحت جفنيها، استلّت الثاني.. والثالث.. والتفتت نحو أمّها، ضاحكةً رغم ألم أصابعها المشتعلة.

ـ نجحتُ يا أمّي، نجحت!!

ضحكت الأمّ ودفعتها من ظهرها:

ـ هيّا إذن، اسقي العجول!

أزاحت رأسها من تحت صبيب الماء واستعادت مشهد نهايتها. مضت متهالكةً نحو مجثمها، انزوت فيه وهي تتمتم، «لا يمكن، لن يحدث هذا، لن يحدث!!!»

أعادت لها وجبة طعامٍ تاليةٌ بعضاً من السكينة، فتذكّرت هنداً، «ليتهم لم يبعدوك، ليتك بقيتِ قريبةً منّي!» واستمدّت منها إصرارها على المضيّ قُدُماً، وإعلان براءتها مهما كان الثمن.

كان دم أبيها المسفوك يستصرخها مطالباً بالثأر؛ عليك أن تجديه يا رباب، ليس مهمّاً أن تقتصّي منه، المهمّ أن يعلم أنّ دمي لم يُطَلّ، حالما يعلم سيطاله القصاص عاجلاً. فقط اعرفيه.

«تعرف يا أبي أنّني بريئةٌ من دمك، فلماذا قدمتَ وأدنتَ ونفّذت فيّ حكمك الجائر؟ لمَ أصغيتَ إليهم وصدّقتهم؟ لمَ لمْ تسألني أنا؟ ألم تقل يوماً إنّ رباب لا تكذب؟ ألم تدفع غالياً ثمن التزامها بقولك، كيلا تتراجع؟ ألم تكن كما عرفتَها؟ أقول لك لا أفعلُ ذلك، فلمَ تكذّبني؟ هل تحطّمت الوشائج التي ضمّتنا، وانهدمت الثقة التي تمترسنا خلفها وخلخلت الريح أساساتها؟ منذ متى حدث ذلك؟ ولماذا أخفيت عنّي ولم تنبّهني وتحذّرني من مغبّته ونتائجه؟»

راح بحثها يستحيل في قاع روحها إلى نزوعٍ مضادّ للعسف والاضطهاد مطابقٍ لنزوع مقاومة العدوان بالعنف. من وحشيّة الحجارة ووعورة الطقس استمدّت روحَها العاصفةَ كريحٍ هوجاء. متحت من أعمق جذورها إحساساً مريراً بعدم قدرة المرء على الحياة من غير قوّةٍ وصلابة، تمتازان أحياناً بشدّةٍ وبطشٍ يستطيع بهما الذود عن حياته المهدّدة! كانت صورة عبد الجبّار اختصاراً لمئاتٍ من سنين القهر والاضطهاد ومقاومتهما، وفصول مجابهة الطبيعة بكلّ شراستها حين تنقلب ضدّ الإنسان وجهدِه ورؤاه.

كانت تقبل ذلك وينمو فيها، فصار صورة روحها وثراء أحاسيسها. كيف انكسر ومتى؟ وبمَ استُعيض عنه على غفلةٍ منها دون أن تُدرك؟ وكيف أعاد الصياغة في أعمق أعماقها؟ دارت أسئلتها على هذا النحو وهي تسعى جاهدةً للقبض على لحظة اندحارها الأوليّ، وكيف واجهته أو انكفأت عنه أو هربت منه للأمام أو للخلف. «هل ارتبط ذلك حقّاً بتحولات جسدك يا رباب؟» كادت تقول نعم لكنّها تأنّت.

«ربّما كان الجواب السريع، الذي أطلقتهِ دوماً دون تفكيرٍ تقريباً، مزلَقاً أو ستاراً يخفي إجابةً أدقّ وأوضح، تعبّر عن الحقيقيّ المستبدل بمادةٍ زجاجيةٍ مبهرة الألوان والإضاءة، تهبُها سطوعَ الحقيقيّ! عليكِ إذن أن تعيدي قراءة كلّ ما استتبع تلك النَعَم السهلة والنهائيّة! هل كان ذلك يوم انهارت أمّك على وقع الضربات المُحكمة التسديد التي انهالت على جسدها، فأطلقت روحُها صراخاً وسط سكونٍ خامدٍ وسماءٍ لا تستجيب؟ هل كان أنينُها وإخفاء أوجاعها هو الذي أخذ يشتّت هالة عبد الجبّار، وأطلق الهمس المتسائل عن أيّ وحشٍ يكمن فيه؟ لا، ليست المسألة على هذا النحو، فقد كان بعضُ ذلك جزءاً من طبيعته التي لا أناقش فيها، وأسلّم بها تسليمي بشقاء العيش وشظفه اللذين أُورثناهما جيلاً وراء جيلٍ داخل العشيرة وخارج الكهف، وأمام هجماتٍ تدفع للتنقّل من موقعٍ لآخر، وهبوباتٍ من عسفٍ وطغيانٍ تقود للقصيّ والمعزول والممكن الدفاع عنه! أما بعضُه الآخر، فهو ما يناقَش وما يدفع لطرح السؤال! أكانت تلك الجرود آخرَ المعاقل؟ وقد تهاوت أيضاً!»

كانت رباب في شطحاتها وميلها للغوص بحثاً عن بدايات الأشياء تماهي نفسها بها دون أن تدري، كأنّما تنزع عن نفسها سمة وعيها وإدراكها، باعتبارها كائناً منفصلاً عنها بقدر ما هو ملتحمٌ بها، من أجل أن تكون مثلها خاضعةً لشروطٍ تعسّفيةٍ لا تملك قدرة الإلمام بها ومحاولة تغييرها، وبالتالي تتخلّى عن مسؤوليتها تجاه نفسها وتجاهها. كأنّما حسٌّ مبهَمٌ يبعدها عن مواجهة ما يشكّل اكتشافه فاجعةً تدمّر كلّ ما لاذت به والتجأت إليه، وحسبت أنّها دافعت عنه وصانته وعاشت في ظلاله واختارت على هَدْيِه! كانت تداوره حيناً وتلتفّ عليه أحياناً، تستشعر مدى الإعاقة التي يسبّبها، ترتاح لها تارةً، وتنفر منها طوراً. لكنّ حضور

أبيها المكثّف والمتسارع والمستصرخ حزَمَ أمرها، وقرّرت نهائياً أن تتمرّد على ذلك الحسّ وتزيحه جانباً كي تتفرّغ لاكتناه الوقائع الجوهريّة، دون تمويهٍ أو خداع!

«أهنالك خدعٌ في حياتك يا رباب؟ أم أنّ عماءً طويلاً انسدل على بصرك فما رأيتِ إلاّ ما رغبتِ برؤيته، وغضضت عمّا مقتّيه ولم تستطيعي مجابهته أو تغييره؟ لا يمكن ذلك، لم أكن غبيّةً إلى هذا الحد، ليس تفوقي المبكّر هو الدليل، بل كوني أشحتُ عن محسوساتي وحاولتُ سبر جواهرها. لم تتعلّق أسئلتي بظاهر الأشياء بقدر ما ارتبطتْ بما يخفى وراءها. ربّما كان ذلك ما أثار اهتمام أبي أكثر من إحساسه بأنّني ما يفترض أن يكون وريثَه وبِكرَه. كيف تجرأت يومها وسألتُ عن أمّي، مسقطةً الاعتبار عن جسدي الذي ما عدت أهتمّ بأيّ أذىً يمكن أن يلحق به مهما كان. ليس اعتياداً، لكثرة ما تعرض له على أيدي شقيقيّ، فقد كان بمقدوري إيقافه بيسرٍ وسهولةٍ لو شكوتهما مرّةً واحدةً لأبي، لكنّي أبيتُ وأصررتُ على الصمت، دون أن تكسر صمتي نظرةُ التحدّي التي جلدتُهما بها دوماً. ليس اعتياداً، بقدر ما هو تجاوز، فقد كان أذى الروح أمضّ وأوجع!»

ـ لمَ تهينها على تلك الصورة يا أبي؟ هي زوجتك وأمّ أولادك أولاً وأخيراً!

أطرق عبد الجبّار طويلاً، كأنّه يخنق على مهلٍ سورةَ غضبٍ استبدّت به، خشية أن تنصبّ سيلاً على ابنته الأثيرة فيغرقها، أو أن تندلع في وجهها ناراً تشوّهه أو تشوّه بدنها. كظم غيظه، لكنّ السؤال انطرح عليه كأنّما غاب دوماً وانتبه فجأةً إليه. وارى غضبه وراء عنفوان جبروته:

ـ حيناً تكون مذنبة، وأحياناً يكون عليّ ردعها وإجهاض اندفاعات رعونتها بشكلٍ مسبق! و. . .

تمهّل وقد أحسّ أنّه يكذب أو يخادع:

ـ أمّك يا رباب نصف رجل، ولربّما كانت تاماً وكاملاً لو لم أحطّم كبرياءها، وأهشّم عنفوانها، وأمرّغ أنفها في الوحل! لا يصحّ أن يكون في البيت الواحد رجلان. للبيت ربٌّ واحد، هل تفهمين؟ ربٌّ وليس سيّداً أو مالِكاً وحسب، وإن وجد ربّان، فذلك يعني خراب البيت ودماره. في جوف أمّك إبليسٌ خبيث، يدسّ سمّه في أذنها دوماً ويوهمها أنّها ربّ. تصوّري أنّها تريد أن تفرض وصايتها عليّ، وتشير إلى ما يصلُح وما لا يصلُح. هل تصدّقين أنّها أنذرتني أنّ أبنائي سينقلبون عليّ يوماً، وسينبشون عليّ قبري بعد موتي؟! اللعينة! كان عليّ خنق إبليسها باستمرار، لإيقافه عن بثّ جنونه في رأسها، وتذكيرها بأنّه لا يريد لها إلا الأذى ويدفعها دفعاً إليه. ثمّ لا تنسي، هكذا اعتدنا. . أبي وجدّي وأبوه و. . . حتّى بدايات تلك السلالة الملعونة. ضربُ المرأة وإهانتُها شيءٌ طبيعيٌّ وضروريٌّ لإخضاعها وإلزامها بالطّاعة المطلقة! وأمّك يا رباب تحتاج ذلك أكثر من غيرها، لا يغرنّك ظاهرُ اللّين وطيبتُها وطواعيتها، صدّقيني أنا أدرى منك بها. حتّى أنا، عبد الجبّار، أخشى أحياناً أن تندفع نحوي منشبةً أظافرها في عينيّ، أو أسنانها في حنجرتي، وأتنبّه دوماً إن كان ثمّة أداةٌ حادةٌ تطالها يدها فتهاجمني بها!!

قاطعته رباب مذعورةً:

ـ لكنّها ستكون لحظتَها مدافعةً عن نفسها ضدّ. . .

لم تكمل، لكنّ عبد الجبّار فهم وكاد يثور، إلا أنّه استطرد:

ـ ثمّ صار ذلك اعتيادياً لي ولها. هكذا زماننا. ربما، بل يجب أن يكون زمانك مختلفاً!

عاودت رباب تلميحها :

ـ ألا يمكن لكما أن تتعايشا بطريقةٍ أفضل من تلك؟

ابتسم عبد الجبّار ، كأنّما أراد إنهاء الحديث دون أن يترك ندبةً في روح ابنته :

ـ لقد قُضي الأمر يا ابنتي ، وشارفنا نهاية العمر . حاولي أنتِ ، لربّما ، بل عليكِ أن تنجحي !

آنها لم تستطع رباب إيقاف شلاّل أسئلتها ، فقد دخلت دودة الخوف قلبَها ! لم تدخل بواباتِ الجسد ـ فما اهتمّت به رغم الأسى الذي يغرقها كلما أبصرت سميّة وقد أُخرجت من دائرة الأحياء المعافين ، ودخلت نصف موتها ، وهي توقن يوماً وراء يومٍ أنها فقدت ارتباطها بحياةٍ تصلها بغدٍ لا تراه ولا تعرفه ـ ولم تتناسل وتفرّخ إلا في فضاءات روحها !

لم تكن السياط هي ما يخيفها ، أو هكذا أوحت لنفسها ، ولو أنّها لم تستطع أبداً إلاّ أن ترى خلف سوط أبيها ، وهو يجلد أمّها ، سوطاً آخر أكبر يُعفي أباها من عقوبة الجلد لقاء جلده لأمّها ، وربّما لإخوتها ، وربّما ! راحت تبحث عنه على مهلٍ وهي ترى أذاه يتجاوز الجسد ويترك ندوباً أشدّ ، تُعطِب الروح وتحتفل بإخراجها من عالم البشر ، وإعادتها لحظائرها القديمة . لم يأتِ ذلك فجأةً ، بل كانت تتملاّه على مهلٍ رويداً رويداً وتعمل فكرَها فيه أكثرَ وأكثر ، بعدما دخلت العزلة والانطواء اللذين فرضتهما عليها تحولاتُ الأنثى في جسدها ، حيثما سيطرت ، ولم تستشعر آثارها داخل روحها إلا بعد مضيّ زمنٍ طويل .

«لم يكن جواب عبد الجبّار مقنِعاً لكِ يا رباب ، لكنّكِ ما أعرتِ ذلك أهميةً ، فقد أدركتِ أنّه استنفذ ما عنده أو كاد يتجاوز عتبة محرّماته الموروثة . لم تستشعري كذباً في قوله ، لكنّه عبّر بطريقةٍ خرقاء عمّا يراه طبيعيّاً ، دون أن يكون مقتنعاً به بالضرورة . ربما كان يثبِت رجولته

بالطريقة التي تعلّمها وألِفها، ونمت فيه مثلما نما فيها. لكنّ سيل أسئلتك لم يتوقّف، فقد كان في جنون اندفاعاته الوحشيّة التالية تجاه آمنة شيءٌ مغاير، بات يعاملها ليس ككائنٍ بشريّ، وليس كحيوانٍ أليف، ولا حتّى كحيوانٍ وحشيّ، بل كشيءٍ أبشع وأكثر سوءاً. كان الاحتقار الذي يغمرها به يُظهرها بمظهرٍ شديد الدونيّة؛ دويبةً صغيرةً، واحدةً من هوام الأرض أو الجوّ، حشرةً قذرةً تثير الاشمئزاز والقرف أكثر ممّا تثير الخشية أو الخوف من الأذى، دودةً ما، بزّاقةً تنزلق تحت قوقعتها، صرصاراً يترنّح فوق مخلّفات الأقذار!

لمَ يا عبد الجبّار؟ لمَ استحالت امرأتُك، نصفُك الآخر، ضلعُك القاصر وجنون عشقك الماضي، إلى ذلك الوضع وتلك الكينونة؟ أعملتُ فكري طويلاً، كان ثمّة ما يختفي وراء الخداع الظاهر بأنّكَ أنتَ المسؤول عن ذلك! كان هنالك ما يذلّكَ ويهينكَ دون أن تقدر على صدّه أو ردعه أو منعه كعادتك، فتتواصل انفجاراتك فاتحةً فوهات براكينها على امرأتك، بديلاً وتعويضاً عن جلد نفسك! رحتُ أبحث عمّا تغيّر فيك وبدّلكَ حتى أحالكَ إلى عدوّ نفسك! أكان ذلك قبل الحصار أم بعده؟ لا، لا شكّ أنّه كان قبله.. قبله بزمنٍ طويل!! فقد انتهت بعد الحصار أسطورة عبد الجبّار، وانزوى مهشّماً نصف مستسلمٍ في ركنه، يلوك سابق أمجاده وينتظر موته بصبر شهيد!!»

راحت تُعمل ذاكرتها، فقد احتاجت لنقاط استنادٍ ولعلاماتٍ تشير إلى الدرب الذي قطعتْه أو وصلت إليه، ليس لأنّها تسعى لاستعادة ذاكرتها، بقدر حاجتها لإعادة تركيبها عبر رؤيتها من منظارٍ مخالفٍ لانطباعاتها المركّزة عليها وتصوّراتها حولها. أرادت أن تدرك ما خفِيَ عنها وما أعمى بصيرتها، حتى خالت أنّها ضريرةٌ حقاً وفعلاً!!

«الصدفة وحدها هي التي زامنت تحوّلات جسدي مع التحوّلات التي حدثت حولي.» شرعت تتذكّر، وقد أطلّت مدهوشةً إلى ما غفلت عنه، «كيف لم أنتبه لذلك؟ كيف بقيتُ دهراً أرى في ظهوراتي كأنثى وحسبُ دمارَ اطمئنان روحي، وإنتاش بذور الخوف التي تشبّعت برطوبة استبدال الجديد بالقديم؟ عن أيّ شيءٍ تتحدثين يا رباب؟ في تلك المراحل المبكّرة ما كان هنالك سوى القيود التي فُرضت على جسدك. هل ستخترعين قيوداً أخرى لمجرّد رغبتك بإزاحة الأولى وإحلال أخرى محلّها؟ لا، هنالك ما غاب عنّي وسهيت عنه، أو أنّه انطوى ودُفن بعيداً، أحاول تلمّسه، لكنّه يتملّص منزلقاً كلّما اقتربتُ من إمساكه! ما هو يا رباب؟ ما هو؟»

لم تدرِ لمَ خطر حسين على بالها، ليس حسيناً الحزين، والباكي مصيرَ زوجته وأطفاله، بل حسين الضاحك، المشتعل قوةً ونضارةً وقد قبِل طواعيةً العمل في البستان رغم كراهيته له. حسين، الخلاصة المركّزة لقوى أبيه الروحيّة والأخلاقيّة، وقد انتزعت منها سمتا العنف والبطش، المحبّ الذي وقف إلى جانبها جهاراً دون مواربة، ولم يفعل ذلك في الظلّ كعادل!

«ما الذي دمّر فرحتك يا حسين وحطّم اندفاعك لعشق الحياة؟ ما الذي سمّم دمك فتنكّرت له، أو هكذا بدا للحظاتٍ معدودات؟ خالفتَ ما ساد من عُرفٍ بأنّ التهريب مهنةٌ كأيّة مهنةٍ أخرى، يمتاز بارتفاع نسبة عنصر المخاطرة فيه. ما الذي دفعك لتنقلب على نفسك وتضطرّ لممارسته قبيل لجوئك للمدينة التي صارت مثواك؟ رباب، هل كان التجاؤه لها عاملاً مساعِداً، أم دافعاً أساسيّاً وقدوةً لهروبك نحوها؟

وهاهو السؤال يعود مجدّداً، ما الذي دفعك نحوها، غير كلّ تلك التسويغات والتبريرات التي استندتِ إليها سابقاً، ولازلت تؤكّدينها؟

ولكن إلامَ سيدوم تنقّلك من موضعٍ لآخر، من سؤالٍ لسؤال، دون تقديم إجاباتٍ محدّدةٍ صريحةٍ وواضحة؟ هل سيستمرّ تقلّبك وتشتّتك طويلاً؟ أنسيتِ أهميّة الزمن ومرور الوقت؟ فما بالك، ما بالك يا رباب؟! ركّزي قليلاً كي تصلي لأجوبة الأسئلة التي تعترضك، والتي افترضتِ أنّك أجبتِ عليها منذ زمنٍ بعيد، وهاأنت تتلقّينها بدهشة الجاهل، كأنّما تحكين عن غيرك وتستفسرين عمّا هو خارجك، غريبٌ عنك، على مسافة خطوةٍ منك! كأنّ الحالات تأخذ الآن أشكالاً جديدة، لا تدور حول قطبين متعارضين هما أنتِ من جانب، وناصيف من جانبٍ آخر كما خلتِ دوماً، وبنيتِ حساباتك على خلفيّة ذلك التعارض. كأنّك تلمحين الآن صراعاً عنيفاً وخفيّاً لم يظهر على السطح أبداً، وبقي غامضاً غير محسوس، قطباه ناصيف وعبد الجبّار!

لم يحدث هذا أبداً بعد هزيمة أبيكِ وانكسارة عجزه، بل ظهر قبل ذلك واستفحل، وربما كانت نتائجه الأساسيّة مشخّصةً في حالة أبيك الأخيرة. كيف لم تتبيّني وقتها انقلاباً عاصفاً في حياة البيت، وارتفاعاً رهيباً في مستوى معيشة أصحابه ودخلهم؟ من أين أتى كلّ ذلك؟ وأين كنتِ؟ غافلةً أم غافيةً في ادّعاءات تفكيرك وغوصك تحت سطح الظواهر؟ ألم يترافق ذلك رغم تباين التوقيت مع هروب حسين؟ لقد عاد من خدمته الإلزاميّة منقلباً حقّاً رأساً على عقب، كأنّ ناراً مسّت روحه فملأتها بأوجاعٍ لا يتّسع لها جسده، وشحذت ذهنَه بما دفعه لمعارضة ناصيف وأبيه فرفض البقاء وغادر إلى المدينة. أكان ذلك قبيل اختطافه لزوجته الذي ولّد حقداً وكراهيةً وسموم ثأر؟ لا أعتقد، رغم اختلاط

الأزمنة والحالات في ذهني . أتت المصالحة بعد ذلك بحلٍّ وسط ، أتاحه ضعف أسرة زينب؛ نفيهما خارج البلدة لخمسة عشر عاماً! إن كان قرار نفيه هو دافع الهروب ، فكيف عاد مرةً أخرى ـ دون أن يأبه بوعيد القتل ـ دفاعاً عن أبيه ، وتمسكاً بأرضه التي حاول ناصيف بشتّى وسائل المخاتلة والخداع بيعها وتسليمها لطالبها ، رغم ظهوره بمظهر المدافع العنيد عن إرث أسرته وفخر وجودها؟!

ناصيف ، أيّتها الحرباء الرقطاء! كم كنتَ ماهراً في إخفاء جلْدك الحقيقي وتمويهه بشتّى الألوان! ولكن ما دخل ذلك بما أبحث عنه ، وأنقّب فيه عن إجاباتٍ أثارتها انفلاتات عقلي المكدود وروحي الملتاعة؟ بلى يا رباب ، لكلّ ذلك دخلٌ مباشرَ ، وأنت تعرفين ذلك وتدركينه ، ولو أنّك ما زلت جاهلةً كيف! تابعي ، فلربّما وصلتِ شاطئك أخيراً ولمستِ البرّ . »

استمرّت رباب تلملم شتاتها وتعيد تشكيل ذاكرتها من البقايا المقتضبة والمعزولة عن التواريخ المحدّدة ، كأنّها تسبح في فضاءٍ لزجٍ لا تعرف إن كانت تتقدّم داخله أم تتأخّر ، تضيع فيه الاتجاهات وتتشابه التضاريس ، وتتلبّس التفاصيل حوادثَ متناقضة ، كأنّما تنزع عن كلٍّ منها خصوصيّته! كأنّما الأحداث والتواريخ والأشخاص اختلطت جميعاً ، وبدت دائرةً في فلكٍ واحدٍ لا يستطيع المرء ـ باعتباره يتحرك مع حركته ـ نسبَ أيٍّ منها لأمرٍ ثابتٍ ومحدَّد ، ممّا صعّب المهمة على رباب دون أن يفلّ عزيمتها . أخذت تستشعر أكثر وتدرك بشكلٍ أفضل أنّ ثمّة ما يقود ويحرك عن بعد ، من غير أن تلعب إرادات الناس دوراً في تحقيق مُراداتها المتباينة أو المتشابهة!

تهيّأ لها أنّ عاملين أساسيّين فرضا على الناس تغيّرات قاهرة بدّلت مجرى حياتهم، ودفعتهم في خضمّ تيّارها بمن فيهم هي، التي حسبت لفترة طويلة أنّها تسبح ضدّ التيار، وتصل أهدافها واحداً واحداً رغماً عنه!

«ناصيف، لقد كنت الأذكى والأبعد نظراً والأكثر انحناءً لعاتيات الريح، كي تضمن لنفسك الفرصة التي تليق بطموحاتك وتحقّقها. كنت تصرّح دون مواربة، ليتحطّم غيري إن عاند الريح، أمّا أنا، فأعرف كيف أوجّه الصاري وأنشر قلوعي في الوقت المناسب، لالتقاط الهبوب الذي يدفعني إلى الأمام بدل إزاحتي نحو الخلف أو إزاحتي من الوجود.»

أدرك ناصيف أنّ الماضي يتخلخل وتتصدّع أسسُه، فتطلّع للقادم، اشتمّ ريحَه مبكّراً وهيّأ نفسه. أنِف أن يعمل في التهريب، لكنّه استثمر أمواله فيه، استغلّ من يعمل لصالحه دون أن يتورّط شخصيّاً، ممتطياً الموجة واطئاً أيّاً كان دون أن يعبأ بوازعٍ أو رادع! وجّه نشاطه العلنيّ بحكم مهنته نحو تعهّدات البناء والمتاجرة بالأراضي الزراعية وأراضي البناء، ودخل في مضاربات مجنونة وأثار طمعَه اطّلاعُه على مشاريع تنظيم عمران البلدة والبلدات المجاورة، وهبوبُ ريح السائحين والمصطافين وأصحاب النفوذ والسلطان. أيقن أنّ يومهم هو الآتي، فدخل سريعاً لعبتهم وصار بعضاً منها، أو جزءاً مكمّلاً للحاشية المتضخّمة باستمرار، لكنّه لم يستطع أبداً، رغم كلّ محاولاته، إلاّ أن يكون أداتها التي تشرْع سطوتها المباشرة وتمارسها عنها أو معها، دون أن يتخلّى يوماً عن القناع المناسب لكسب رضى أبيه الذي لم يصدّقه تماماً، وإن أدرك أنّ ابنه سيحلّ محلّه، ويستعيض إرثاً واصله بجديدٍ مغايرٍ ومناقض، بدأ يستشعر وطأته فاندفع لمجابهته ودفع ثمناً غالياً، ولو أنّه ضروريّ! لكنّه لم يرضخ حتى آخر لحظة، ولم يفرّط بشبرٍ من

أراضيه الزراعيّة المتوارثة . أرضى ناصيف ، وخفّف من غلواء إلحاحه ولجاجته المقنّعة بألف وجه ، بالسماح له ببيع بعض الأراضي غير الزراعيّة لينشئ عليها أبنيته ومشاريعه التجارية .

جنّ جنون البلدة بين ليلةٍ وضحاها حين صارت قِبلةً لطالبي السلع المتنوّعة ، فازدهرت أسواق تهريبها للّذين افتقدوا حاجاتهم الأساسيّة التي خلت منها أسواق المدينة ، ولمن رغبوا بسلعهم الترفيهيّة الممنوعة أيضاً . وأضحت كعبة من يريدون بناء دور اصطيافهم وقصورهم الباذخة ، ومغنماً لمن أرادوا الاستئثار بغنائم التهريب لأنفسهم ولحسابهم . اختلط الحابل بالنابل ، ودخلت البلدة عصرَ ازدهارها الذهبي قبيل حرائقها التالية !

«عمَّ تتحدثين يا رباب ، ولمن توجّهين خطابك؟ هل تبحثين ضمن هذه التفاصيل عن اتّجاهات صيرورتك وتحوّلاتك التالية؟ هل تريدين التنقيب في هذا الركام عن مصادر رعبك التي دفعتك للهروب؟ ألم يأت الرعب قبل ذلك ، ألم تتلمّسيه حتّى في المدرسة التي صادرت صوتك ، جعلتك تخشين سماع صداه داخلك وتقبلين ما يلقّن لك دون أن تجرؤي على مناقشته ، أو تقومين بذلك داخل صروح أوهامك التي تقوّضت وانهارت عليك دفعةً واحدة ورمتك هنا ، حُطاماً منسيّاً وشظايا مهملة؟ ألم تغلقي على نفسك بوّاباتها وتطلّي من برجك الذي تحصّنت داخله نحو الخارج ، كأنّك ما كنت جزءاً منه وكأنّما كان حياديّاً تجاهك؟ ربّما يحدث ذلك ، لكن لا قدرة لي على فعل شيءٍ آخر . عليّ أن أستمرّ هكذا كيلا أجد نفسي مرّةً أخرى منفردةً معزولة ، دون ماضٍ أو حاضرٍ أو مستقبل ! »

لكنّها وفي عمقها، في النقطة العمياء من وعيها، داهمها الإحساس بأنّ كائناً تخلّق من كتلٍ متضافرةٍ من اللّهب راح يقاوم دون أملٍ صبيب الماء الذي انهمر فوقه دهراً وراء دهر، وفي النهاية انطفأ!

«من كان ذلك الكائن؟ أنتِ، عبد الجبّار، آمنة، حسين، أم ضحيّةٌ ما، تماهت بين آلاف الضحايا الذين توحّدت ملامحهم، ولفّهم البؤس والخنوع بكفنه الواسع والمديد؟!

لم تكن أحدهم يا ناصيف. ولئن ارتضيت عقم هناء ضنّاً بخسران نفوذ أبيها المهيّئ لمشاريعك التالية، فقد ارتضيت لنفسك الخسران. أما علقتَ كفأرٍ غرٍّ في الفخّ الذي نصبتَه لغيرك؟ هل حماك نفوذ والد هناء، عمّك وحميك، من التوقيف رهينةً مع أمّك وعادلٍ ونواف ووسيمٍ المسكين، ضحيّتكم جميعاً وضحيّة الضحايا، في حين توارى حسين والتجأتُ أنا وعبد الجبّار لمغائر الجبال؟! هل تذكر ذلك أم أنّك ركنتَه في زوايا نسيانك، بعدما تخلّصت من ورطتك بالتسبب بمقتل فوّاز ابن عمك، وتسليم أخيك ابن أمك وأبيك لمن سيدفعونه للشنق إرضاءً لجشعك وأطماعك ومؤامراتك الدنيئة؟ كم كان مخطّطك بسيطاً، فقد اتّفقت مع ذلك السائح على توسيع بستان قصره على حساب بستان أبيك، وقبضت أثمان ذلك مقدّماً. شاركتَه مع حميك وأحد شركائه المتنفّذين في مشاريعك الغامضة، خدعتَ أباك بأنّك ستفعل ما بوسعك لمنع العدوان على بستانه، محرّضاً في الخفاء حسيناً الذي هجركم جميعاً، ليتّقي شرور تسلّطكم وانتهابكم الناس وعقولهم وأراضيهم وأعراضهم بأبخس الأثمان.

عرفتم متى وكيف تُنهَش الكتف حالما ارتفعت أسعار الأراضي بشكلٍ جنونيّ، متفاعلةً مع السيولة الهائلة التي أتاحتها عمليّات التهريب وأنشطة السياحة! وعن طريق الخديعة والعنف، منفصلين أو مجتمعين، ضغطتم على الأهالي لبيع أراضيهم عنوةً أو بالرضى، فسلّموها لسادتكم الجدد الذين توازعتم معهم دورة التسلّط الجديدة التي بلغت ذروتها آن الحصار الذي داهم الناس والدور والحيوانات، منهيةً دور عبد الجبّار وأمثاله، فاتحةً لجثثهم أبواب متاحف الشمع والتقاليد الشعبية!

حسين هو الذي دفعته حميّته للدفاع عن إرث أبيه، وعن أبيه المعرّض للإهانة من قِبل أعوان الشركاء وطغمتهم، فثأر له بقتل السائح الذي كنتَ تؤمّن له متطلبات عبثه ومظاهر تفوقه واستعلائه، والسموم التي يتعاطاها بشراهةٍ ونهم، عن طريق فوّاز المسكين! قامت الدنيا وما قعدت، لا في بيت أبيك ولا في البلدة؛ وطأتهم نيران جهنّم دون تمييزٍ ليدفعوا حساباتٍ تراكمت أجيالاً وراء أجيال، وأحرقت في حصارهم كلّ حصادهم وشقاء سنواتٍ من عمرهم. لقد أنقذتَ نفسك فعلاً، أطلقت سراح من أوقفوا رهائن معك، ورجوتهم أن يعفوا عن أبيك المحطّم لقاء دم فوّاز والتضحية بحسين، الذي ادّعيت أنّك استحصلتَ على وعدٍ بتخفيف حكمه، وأنّك ستنقذه مهما كلّف الأمر. وأنت تكذب دون شكّ!

أكملتَ مسرحيتك الشيطانية بدفعي لأحضان غانم، ضمانةً لسكوته، وشراءً لخدماته البديلة عن خدمات فوّاز، ابني عمّك، أخي أبيك وابن جدك!!!

أكانت تلك الدورة هي التي أردتكِ، فعجزتِ كما عجز أبوك عن صدّ هجمتها؟ هربتِ هائمةً على وجهك في مدينةٍ عاملتك كغريبة، لن تقبلك ما لم تخضعي لشروط تعسّفها القديمة الجديدة! أما ترين الآن

بكلّ جلاءٍ أنّك ما فعلت سوى الهروب، رغم ادّعاء تقدّمك وتخطّيك خطوةً خطوة الحواجز والموانع التي وقفت في وجه أحلامك وطموحاتك؟ ومن حصارٍ لحصارٍ أبشع وأقسى، عبَرتِ هزائمك التي كانت تدمّر روحك وأنت تحوّلينها بقوّة الوهم أو الخداع ـ سيّان ـ لانتصاراتٍ أوصلتك أخيراً للاعتقاد بأنّك تقفين على قدميك، ظانّةً أنّك بتّ عصيّةً على الضغط والتهديد والتهويل والإكراه، وأنّك امتلكتِ زمام حياتك وما عاد هنالك من قوّةٍ تنتزعها منك!!! أيُّ ثمنٍ دفع لقاء ذلك الوهم؟؟؟

وهاهو حسين الآن، تمزّقه قبضة ناصيف التي أطبقت عليه، يتردّد حائراً بين تسليم روحه له لإنقاذ عياله، وبين ترفّعه عن ذلك وترك أطفاله وزينب لقمةً سائغةً للشوارع وغيلان الليل المفترسة. كيف قبض ناصيف على عنقك أنتِ، وكيف حاول ابتزازك؟ أهي قبضة ناصيف؟ أم قبضةٌ أخرى أضخم وأشنع، قبضاتٌ أخرى انتحلت هويّة قبضة ناصيف؟

لم تسعفك المدينة ولم تمحضكِ الأمان المرتجى؛ كشّرت عن أنيابها، ولولا كفايتك المادّيّة والملاذ الآمن الذي وجدته في أحضان خالك عبد الرحيم ودفء بيته المطمئن لكانت نهشَتْك سريعاً، وأرغمتك دون مواربةٍ أن تكوني عبدةً ذليلةً لإغوائها وأهوائها وصنوف الإذلال التي ستعيد صوغك شئتِ أم أبيتِ، على عكس ما تشتهين ونقيضاً لقناعاتك! أما فعلتِ ذلك؟ يأتي السؤال الجارح متأخّراً سنواتٍ طوالاً وقد طوته الأيّام. تنكرين ذلك بكلّيتك، لكنّ يديك، صوتك المختبئ خلف لسانك المخدّر أو المجتثّ وعينيك الغائبتين وروحك الأسيرة ستشهد جميعاً ضدك وتقول لكِ الآن: اعترفي!!!

بمَ أعترف، وقد جفتني المدينة ولم تفتح لي ذراعيها؟ دخلتُ، وكانت الخيبة الأولى، الصدمة الأولى، غرفة حسين وزوجته وأسرته! بؤسٌ لا يصدق، الكفاف يبدو غنىً فاحشاً أمام الإدقاع الذي دفعتهم إليه كرامة حسين ورفضه الخنوع، وعرض روحه قبل جسده للإيجار!! آهٍ حسين، كم تألّمتَ عنّا جميعاً! وكم دفعت زينب والأطفال الثمن الذي أرهق كواهلهم!! ماذا تفعل الآن يا ترى؟ هل بقيتَ كعهدي بك، صلباً لا تزعزعك الملمّات ولا تحنيك الحوادث؟ وأنتِ يا زينب، كيف تدبّرت أمورك وقد أهملكِ ناصيف متعمّداً ليُحكم قبضته على عنق حسين ويبتزّه حتّى قطرة دمه الأخيرة!؟ ليس لك أحدٌ، وتمنعك أَنَفَتُكِ من اللجوء لعبد الرحيم. وما الذي يستطيعه المسكين لأجلك، وقد أعْنَتَه أَوَدُ أسرته؟ يعمل مثل حمار، يصل الليل بالنهار وبالكاد يقدّم لهم حدّ الكفاف!

كيف دخلتِ المعمعة يا رباب، وكيف بقيتِ حياديّةً تجاهها؟ تلمّسي بدنك! ألم تترك ندباتها وشماً على تضاريسه؟ وإن لم تستشعريه، أتدركين ما فعلتْه بروحِك وأيَّ جحيمٍ واجهتِه؟ هل حطّمتْ شموخك ومرّغتك في وقتٍ مبكر، حتّى جهلتِ إن كانت قد اعتصرتك أم أنّك استطعتِ نأياً عن آثارها؟! عودي الآن. ارقصي على وتر ارتعاشات قلبك وتصدّعك أمام الروع الذي صافح عينيك وتشبّث بأعمق أعماقك! المدينة، التي حولتّك نمراً أليفاً لا يلوك سوى الحشائش وصادرتك حتى النخاع، أوجدتِ فيها آفاقك وفضاء حريّتك المؤود؟ في الجامعة والبيت والشارع، وحتّى في لحظات انفرادك بنفسك على ندرتها، هل كنتِ بعيدةً عن ظلّك الذي يحصي عليكِ أنفاسك؟ حتى حسّان ـ أين أنت الآن يا حسان؟ـ أكان غير مهربٍ آخر من مخاوفك ورعبك المسيطر؟ أكان عصيّاً على التفسير اختيارُك له قطباً نقيضاً لك، أي لعبد الجبّار؟ أكنتِ تستعْدين نفسك على نقائضك من خلاله، أم أنّك فئْتِ لرقّته

وعذوبته وتحضّره، وأوهام علاقةٍ صحيّةٍ معافاةٍ تشرع أفقاً للأحلام؟ ألا ترين ذلك الآن تفاهةً وخواءً مطبقَيْن؟ هل أردتِ تجاذباً مع قطبك الآخر، أم اخترتهِ على مثالك الخفيّ والغامض لتنتبذا معاً مكاناً قصيّاً، إعلاناً لاستسلامك واندحارك الأبديّ؟

لكنّ ذلك لن ينتزع من عينيك النتائج المخيّبة التي كانت حصاداً لعبد الرحيم، خالك وحامل خلاصات الإرث الذي يفنى ويدخل عالم الفساد! عبد الرحيم الذي هجر البلدة أيضاً، متّخذاً سمت ملجأ العجزة المدعو مدينةً؛ ترك إخوته ينهشون لحمه حيّاً ويسلخون أرضه وحقّه، وفوق ذلك يحرثون عليه كأيّ ثورٍ منصاع! ترك لهم كلّ شيء، كيلا يُقال إنّه اصطرع مع إخوته على إرث أبيه، رغم حقّه الذي لا يمارى! وعلى خلفيّة قناعاته وأخلاقيّاته البائدة، ساطته المدينة موجع الضربات من غير أن يسلّم لها بحقّها في أسره وإعادة تدجينه وفق متطلّباتها. لكنّ صدمته الحقيقية أتت بعد حين، وقت انقلب أبناؤه عليه وعلى تضحياته وتهالكوا على مطالبها وبذلوا لها أنفسهم مطيّةً لتهبهم فُتاتها، انقلبوا عليه وعلى أوضاعهم بعدما جاهد كيلا تتلقّفهم أزقّتها وشوارعها القذرة وتصيّرهم بعض نفاياتها! حتّى مريم، التي بدت الأقرب إليه والمهيّأة فطرياً لتبنّي مواقفه القاسية والمجحِفة وغير المحتملة، جحدته وتنكّرت لنفسها، قبل أن تتنكّر له في لحظة يأسٍ أو ضعفٍ أو إثم، وهربت مع من غرّر بها أو فتح لها بواباتٍ أوسع من شقوقها الضيّقة المحكومة بالانغلاق! فبمَ ستعترف أنت يا عبد الرحيم وقد أنكرك صحبك، ضحايا كانوا أم كافرين؟ هل سترثي خيبتَك، أم أفولَ زمانك وانطفاءَ شموسك؟!

كيف سلِمتُ بجلدي أنا؟ كيف لم أنحرف أو أنتهز أو أغرق في هروبٍ مطلَقٍ ظاهرٍ أو خفيّ؟ قولي يا رباب، لو لم يكن لك موردٌ يقيك مذلّة العوز، ويعفيك من تسوّل احتياجاتك، ففي أيّ مجرىً كنت ستغطسين

وفي أيّ مستنقعٍ آسنٍ ستتمرّغين؟! هل الصدفة وحدها جعلت منكِ الشاهد الذي يغضي فينسى كلّما شاهد؟ هل ستصمد زينب الآن، وإلى أيّ حدٍّ ومدى؟ ألن يدفعها سغب أطفالها سريعاً إلى مقايضة جسدها بالثمن البخس المتاح والعملة الوحيدة الرائجة؟ هل ستقدر على وأدهم وإزهاق روحها فوق جثثهم؟

قوليها الآن وأعلنيها على رؤوس الأشهاد قبل أن تهجعي من جديدٍ في نومك السفلسيّ وأوهام انحيازك للقيم التي اعتليتِ ذُراها دون تراجعٍ أو انحدار!! اعترفي الآن.. كم كنتِ هشّةً في الداخل وكم كنتِ موطوءةً ومغتصبةً ومستباحة، دون أن تدركي أو تعلمي كيف!

أين كنتِ حين اشتريتِ أدويةً مجهولة المصدر أو متجاوزةً تاريخ انتهاء فعّاليتها وبعتِها بأسعار مرتفعة، وأنت تسوّغين ذلك بحاجة الناس لها، عاميةً عن أخطارها المتوقّعة والمحتملة، مثلما فعلتِ ببيع الأدوية المهدّئة دون وصفاتٍ طبّية؟ أين كنتِ حين بعتِ في صيدليّتك المحترمة حبوب منع الحمل لمراهقات، ودللت بعضهنّ على أطباء يساعدوهنّ على إجهاض حملٍ غير مرغوبٍ فيه وأنتِ تسوّغين، خيرٌ من أن يلاحقهنّ عار حملٍ سفاحٍ قد يودي بحياتهنّ أو يرميهنّ إلى الشوارع والطرقات؟!!!

أكان ذلك كلّه معادلاً ومبرّراً لرغبتك بتحقيق كفايتك المادّية التي ستحصنّك وتدعم استقلاليتك؟ هل شكّل تغطيةً كافيةً لذلك كلّه رفضُك تسليم جسدك لقاء نجاحٍ رخيصٍ في بعض فصولك الدراسيّة وترفّعُك عن الغشّ والتزوير للحصول على أعلى المعدلات، أو عدم انسياقك وراء القطيع المستلب الإرادة والتفكير، المخضَع دون قيودٍ لاندفاعات غرائزه البهيمية، مترفّعةً عن مرافقة أصدقائك لحفلات رقصهم وغنائهم وفحشهم السفيهة، وأنتِ تصمينهم بارتدادهم عن انتمائهم للكائن البشري؟ أكان ذلك كافياً فيما بعد ليسوّغ دورانك حول محور طاحونٍ

معصوبة العينين، يحرّكك خوف السياط التي يمكن، ويمكن فقط، أن تنهال في أيّة لحظة؟ هذا ما عليك الاعتراف به الآن!

هل كنتِ وفيّةً للإرث الذي قبلتِهِ وقنِعت به فكنتِ عبد الجبّار بزيّ امرأة؟ هل كنت وفيّة؟ أما كنت تحتقرين نفسك حين تدفعين وتداهنين لقاء تسهيل معاملاتك وأعمالك وشؤونك؟!! هل كنتِ كذلك حين أُكرهتِ، خاضعةً للضغوط الشديدة التي تعرّضت لها، على التعاون مع من أرادوك عيناً لهم للإخبار عن طالبةٍ تستأجر إحدى غرف بيت خالك ويزورها كثيرٌ من الأصدقاء، مسوّغةً ذلك باضطرارك للتخلّص من إلحاحهم ولتأمني شرور معاندتهم التي طالت؟! أما كانت هي نفسها من أخبرتك يوماً أنّ خلاصك كامرأةٍ لا يمكن أن يكون خارج خلاص البشر أجمعين من القيود والأسنّة التي جعلتهم أقرب للبهائم؟ هل كانت عينا غيرك من أبصرتاها خارجةً مكبّلةً مهانةً وهي تنظر بأسىً في عينيك؟ أين اختفت نظرتها إذن يا رباب؟ أين؟ هل من قول؟ أهكذا لم تلوّثك المدينة؟ أهكذا حدْتِ عن نيرها الذي أصرّت أن تشدّك إليه في وقت مبكر؟!!

لا! لستِ خليقةً بعبد الجبّار! لستِ وفيّةً للجرود الوعرة ولا للحجارة الأبيّة ولا لطقوس الرعد وحقول الثلج! كنتِ كذلك حين أطلقتِ النار ذوداً عن نفسك وعن أبيك، عنكما معاً وقد استحلتما روحاً واحدةً تأبى أن تُعتَقَل وتُسجَنَ في قمقمٍ تتعذّب فيه إلى يوم الصدفة العجيبة التي ستفكّ سحر سليمان وتطلق عفاريته لتنقذ الأرض أو لتعيث فيها فساداً! تمزّقت الحجب وانكشفت الأستار وبدوتِ كما أنتِ بعريكِ الفاضح على مرأىً من عينيك الحقيقيّتين وقد استعادتا لونهما الأصلي وزالت العدسات اللاّصقة التي منحتهما لوناً مخالفاً ورؤيةً مشوّهةً حرفا بصيرتك بعيداً!

لقد زال مرّةً واحدة ما ضلّل طويلاً وخدع وزيّف كثيراً. عاريةً سلّط عليكِ سطوعُ مقلتيك الكاشفتين بعد طول إعتام، تختصر سوءاتك كلّها

لفظةُ الخيانة!!! لقد خنتِ نفسك يا رباب، وارتضيتِ ما أحاطكِ من كلّ صوب؛ بؤسٌ وخرابٌ وانحطاط!!!

لماذا، لماذا يا رباب كذبتِ على نفسك وعلى الآخرين؟ لماذا أوحيت لنفسكِ وأوهمتِها أنّك تسعين لتخفيف ذلك البؤس وتعويض الخراب واستبدال الانحطاط؟! هل خنتِ نفسك وحسب، أم خنتِ كل ما أحببتِه واعتنقتِه وقاتلتِ عنه وحصّنت نفسك تجاه ما يتعارض معه ويسعى لتدميره؟ لقد خنتِ قبل أيّ شيءٍ آخر أباك، عبد الجبّار، الصورة التي أردتِ أن تكونيها واخترتِ طواعيةً التحامك بها وانعتاقك فيها وعبرها!! لمَ حدث كلّ ذلك يا رباب؟ لمَ حدث؟

وهاأنتِ الآن تعودين، قامةً عملاقةً، عينين رحبتين وروحاً لا يأسرها جسدٌ أو قناع! تمضين إلى البلدة وبمحض إرادتك تحملين كفنك وتنتظرين أن تكوني شهيدة قولة لا لمن يريدون اعتقال جسدك وامتهانه وحسب، وأنت تحسبين أنّ روحك أعنفُ وأمنعُ من أن تصادَر، دون أن تعلمي أنّها استحالت سخاماً وقزامةً منذ أمدٍ طويل! أبيّةً تريدين إعلان استحالة انتهاك عالمك الجميل وتلوينه تحت أيّ مسوّغٍ وتبرير. بقيتِ أسبوعين تُعملين فكركِ وتهيّئين روحك للشهادة وعنقك للذبح، وفجأةً...»

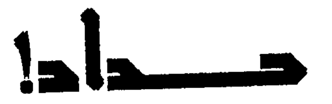
بلغت رباب ذروة انفعالها، كانت تنتفض واقفةً مذهولةً تتردّد أنفاسها لاهثة، تودّ أن تندفع لأقرب جدارٍ كي تحطّم جمجمتها على صلادة إسمنته الأصمّ، لكنّ ساقيها لم تطاوعاها، كانتا تحملانها، لأنّهما استقامتا عصوين منفصلين عن جسدها، تحملانه بحكم العادة.

بحثت عن كفّيها، فوجدتهما متعانقتين مذعورتين، مختبئتين خلف ظهرها، كأنّما تخشيان عقاباً آتياً. أحسّت أنّها استعادت سيطرتها على يدها اليمنى التي امتنعت زمناً عليها.

«وفجأةً... قوليها! أتاكِ جنون القتل دون دعوةٍ ودون انتظار. لمَ فعلتِها يا رباب، لمَ؟ ومن كان المقصود؟ لقد بقيت سلّةٌ واحدةٌ وحيدةٌ يا رباب، تعلمين أنّها محكمة الإغلاق وأنّك أعميتِ عينيك عنها، لأنّك تعرفين محتواها. افتحيها إذن وانظري رأس عبد الجبّار؛ رأس أبيك المثقوب الجبين بطلقةٍ غادرة! أين شاهدا جنونك؟ هل تخشى عيناك رؤيتهما؟ هل تخشين انتشار رائحة الدم وفوح البارود الغائمين اللذين سيخزان أنفك ويديران رأسك كما فعلتا ذات موت؟! أخرجيهما، انتزعيهما فقد بطُل السحر وانكفأ. لن تفلتي مني يا قبضتي اليمنى - حتى لو ادّعيتِ شللاً - أين المفرّ وأنا ألقي القبض عليك بيسراي من معصمكِ؟ اقتربي من عينيّ وقولي، أنا من أطلقتُ النار على رأس عبد الجبّار. تعالي يا يسراي واقبضي على رسغها يا يمناي وقرّبيها من أنفي! استنشق أيّها المنخر الذي مُرّغت أنَفَتُه بأشنع الوحول! استنشق الدمَ المراق الذي غمر تلك الكفّ، دعها تعترف أنّها اندسّت تحت الوسادة دون أن تجرؤ على رفعها، وأنّ الدم لا يزيله الغسل بالماء!!!

لمَ يا رباب.. لمَ؟ لمَ كنتِ قاتلةَ أبيك.. لمَ؟ بدل منْ؟ أولستِ قاتلةَ نفسكِ؟»

ورغم الصحوة المدمّرة التي انتزعتها من أعماق سباتها، فقد فقدت السيطرة مجدّداً على نفسها، قفزت نحو الباب وراحت تخبط بقبضتيها عليه بوحشيةٍ كأنّما تسعى لتحطيمهما وهي تصرخ نادبةً: قتلتُ أبي... قتلتُ أبي!!!



«كأنّما أصيبت بزلزال. مهجورةٌ يتيمة، نصفُ مهدومةٍ نصفُ محروقة. حتى الصبِية المتراكضون في حواريها يبدون في يبابها فزاعاتٍ افتقدت الطيور التي عليها أن تفزعها!» خاطبت راوية نفسها، والحافلة تعبر بها بقايا البلدة القديمة التي استحالت غالبية بيوتها العتيقة لأبنيةٍ حديثةٍ فخمةٍ ومنشآتٍ سياحيّة، محت ذكريات البؤس القديم، قبل أن تتوقّف في ساحتها.

«لمَ لا يستوقفني سوى الخراب وقد نهض على أنقاضه عمارٌ كثيرٌ وبديعٌ تآلف بطريقةٍ فجّةٍ مع المحيط الصخري والأشجار المتواشجة معه؟ لكنّ بقايا الخراب ظلّت تخز العين، تذكّر بفيضٍ من المرارة وبؤسٍ عميم! بتُّ أكره ذلك كلّه رغم عشقي له فيما مضى.»

كان الصباح مبترداً، صفتْ زرقة السماء حتى كادت تشفّ فتعكس على سطحها اللامع ظلال أشجارٍ تتلاعب بها نسائمُ رخيّة، بواكير ريحٍ شرسةٍ ستحلّ قريباً. انتعشت راوية، لكنّ العلقم الملتصق بحلقها أبقى قسمات وجهها منقبضةً وهي تتساءل كيف سيكون وقع الخبر على آمنة!

في دربها إلى البيت المتطرّف في نأيه عن بيوت البلدة، استعادت لقاءها الأخير مع رباب. ومع أنّها أرادت استحضار لقاءاتها وزياراتها السابقة لها، والإيغال أكثر حتى تبلغ لقاءهما الأول، لكنّ المهمّة الشاقّة التي تنتظرها وفّرت عليها محاولات التذكّر دون أن تبعدها.

«كيف سيكون ردّ فعلك يا آمنة؟ هل ستفرحين، تغضبين، يستثار انفعالٌ ما في تضاعيف خافيتك فيظهر على ملامحك أو ينسلّ من عينيك أو يداخِل جرس صوتك، أم أنك ستبقين صمّاء مثل الجدار الذي تسندين إليه ظهرك؟ لم تُخفِ قسماتُك الوجعَ الذي يترقرق خلفها، فهل ستخفي ردّ فعلك أم أنك ستعلنينه بكلمةٍ واحدةٍ لا عودة عنها ولا نقاش؟» طرحت راوية أسئلتها لتختبر الطريقة المثلى لتوجيه خطابها، ضمانةً لموافقة الأمّ على مصاحبتها لزيارة رباب، كأنّما أوجست من رفضها لزيارة قاتلة زوجها. لكنّها من طرفٍ آخر رجّحت أن توافق، فرباب ابنتها، وهي وإن لم تُظهر تعاطفها مع فعلتها، فليس بمستطاعها الامتناع عن زيارتها! «لا بدّ أنّها خلال الأسابيع الماضية سيطرت على اضطرابها وتحكّمت بردود فعلها، بعدما امتصّت آثارَ الصدمة المفجعة.»

آنها وصلت البوابة الخارجية، دفعتها فانفتحت، تابعت سيرها، «ما من أحد! هل هجروا البيت جميعاً؟» تساءلت وهي تصيح بصوتٍ مرتفع:

ـ خالة أم ناصيف، خالة أم ناصيف، وسيم...

لاح وجه الأمّ من باب غرفتها الموارب ومدّت ذراعها مشيرةً لراوية أن تدخل. تابعت راوية خطواتها المتبقّية وولجت الغرفة فوجدت الأمّ واقفةً بانتظارها، فتحت ذراعيها حالما أبصرتها، فاندفعت راوية إليهما. أحسّت باختلاجات آمنة الخفيّة كأنّما انتقلت إليها عبر تماسّ جسديهما المباشر، فتعجّلت انفكاكاً عنها كيلا ينتقل اضطراب الأم إليها، وتبحثا معاً عمّن يهدّئ روعهما!

ـ كيف حالك يا خالة؟ سألت راوية وقد ابتعدت قليلاً عن جسد الأمّ دون أن تفلِت من عناقها، منتظرةً جوابها كي تبتعد كلّيةً.

ـ الحمد لله يا ابنتي، وأنتِ؟ إن شاء الله بخير؟ تفضّلي، تفضّلي.

في سريرتها أحسّت راوية أنّ آمنة تجاوزت محنتها، ولو أنّها لم تطمئنّ كثيراً لإحساسها، فلطالما ظلّت تلك المرأة غامضةً، وقد استشعرت منذ زمنٍ بعيدٍ أنّ وراء وداعتها الظاهرة وسكينتها ما يعصف ويتفجّر داخلها، ويجأر بعيداً عن سطحها الراكد، وفي هدوئها ثمّة ما يشي بعاصفةٍ قادمةٍ عصيّةٍ على التوقيت والتوقّع.

انتظرت قليلاً علّ الأمّ تسألها، ثمّ بادرت وقد أحسَّت تلهّفها:

ـ خالة، لديّ خبرٌ مفرح، لقد أحيلت رباب إلى القضاء، ونستطيع زيارتها ساعة نشاء بعد أخذ تصريحٍ بذلك!

ارتاحت الأم قليلاً كأنّ حملاً قد أزيح عن كاهلها، لكنّ وميض عينيها صار تهدّجاً في صوتها.

ـ وهل يُفترض يا ابنتي أن أزورها؟

اندفعت راوية دون تبصّرٍ وقد أسعدها تجاوب الأمّ السريع:

ـ وكيف لا يا خالة؟ إنّها رباب!

تغضّن وجه الأم وشابته ظلالٌ قاتمة، كأنّ إصبعاً حانقةً تهتزّ أمامه محذّرةً أو مهدّدة.

ـ ألا تزال كذلك؟!

أُخذت راوية على حين غرة، أدركت أنّها تعجّلت وبنت تفاؤلها على أسسٍ واهية، كان عليها أن تتمهّل وتمهّد الدرب، وتهيّئ الأرملة قبل أن تصفعها تلك الصفعة.

ـ يا خالتي لقد حدث ما حدث، علينا الآن أن نقف إلى جانبها ونساعدها على تحمّل نتائج فعلتها، فهي تعاني وتكابد أكثر منّا جميعاً و . . .

تأنّت راوية إلا أنّها وجدتها فرصةً سانحة وما استطاعت التوقّف أو التراجع عنها :

ـ وهي فوق ذلك مهدّدةٌ بخطرٍ جسيم . إنّ فرص نجاتها تكاد تكون معدومة ، ما لم نبادر لمعونتها ومحاولة معرفة تفاصيل ما جرى كي نستطيع الدفاع عنها . إنّ أكبر محامٍ لا يستطيع الموافقة على الدفاع عنها ما لم تشرح له ، وبالتفصيل ، كلّ ما حدث . لا يمكن لنا أن نتخلّى عنها في محنتها !

انطلق القلق المتراكم في حنايا المحامية الشابة دفعةً واحدة وقد نسيت أن تمهِل الأمّ المسكينة ، وتقدّم لها على جرعاتٍ ما يتوجّب عليها معرفته . توقّفت فجأةً تنتظر ردّ فعل آمنة المذهولة ! بقيت الأمّ صامتة ، فأدركت راوية أنّها حمّلتها فوق طاقتها ، وقرّرت المغادرة لتسارع للقاء رباب منفردةً والعودة فيما بعد لاصطحاب أمّها .

ـ تجمّلي بالصبر يا خالتي ، لا عليك ، اهدئي أنت واستريحي ، سأزورها أنا أولاً ، وبعد حينٍ نزورها معاً .

أطرقت آمنة ، خشيت أن تفضحها دموعٌ تترقرق في محجريها ، لملمت صوتها ، وببحّةٍ متهدّجة قالت :

ـ حسنٌ يا ابنتي ، ليكن الله معكِ .

«كانت العودة أصعب وأشقّ ، فقد أتاح لي طول الطريق أن استرجع ما هربتُ أو عجزتُ عن استرجاعه . استحال الزجاج الذي أُطلُّ منه على الوهاد والجبال والوديان العميقة ومجرى الماء الفائر والبساتين التي تتغلغل في مواقع كثيرةٍ من أراضٍ تحيط بأبنيةٍ فخمةٍ إلى شاشة ، تعرض ما تشاء دون اعتبارٍ لرغباتي ولا لاحتياجاتي .

في لجّة البحث عن رباب، وقد تخلّفت عن موعد قدومها ولم تتّصل بي، خشيتُ أنّ مكروهاً قد أصابها، خاصّةً وأنّ حسّاناً، ذلك النغل الكريه، رفض رفضاً قاطعاً الذهاب إليها لمؤازرتها ومدّ يد العون ساعة الضّرورة. مضت بعدما أكّدت أنّها ستنهي تلك المشكلة الطارئة بطريقةٍ مثلى! كان كلامها ملغوماً، أحسستُها تحمل دمها على كفّيها فقلتُ لها محذرةً:

ـ انتبهي يا رباب! لا تجمحي في اندفاعتك، فالأمر يحتاج لكثيرٍ من الرويّة.

قاطعتْ سريعاً:

ـ لا تكترثي يا راوية، أنا أعرف كيف يفكّرون وأعرف أيَّ الوسائل أجدى وأنجع معهم.

ـ تفكّري قبل أن تُقدمي على تنفيذ أيّ قرارٍ تتّخذينه. ما رأيك أن أرافقك؟

ـ لا داعي لذلك، سأفي بالغرض وحدي.

ـ على حسّان أن يكون معكِ إذن، سيكون موقفك أقوى، وأنا التي سترسله.

ـ كما تشائين. ليس غانم يا راوية من يشغل بالي، سأتحدّث إليك حال عودتي.

ما الذي كان يشغل فكرها؟ رباب لا ترمي الكلام على عواهنه، وهي لم تقل ذلك عبثاً، فما الذي سدّ عليها فضاءها حتى رأت مشكلتها المصيريّة ثانويّةً وعرضيّة؟ أكانت فعلتها هي الإجابة العمليّة على سؤالها المفترض؟»

أعملت راوية فكرها. هاقد مضى عليها نيّفٌ وأسبوعان تبحث عن رباب وتحاول تعيين الدوافع التي أفقدتها عقلها وجعلتها ترتكب فعلتها! نجحت أخيراً في إيجادها، لكنّها لم تتلمس أبداً الدوافع التي أوصلتها لنهايتها البائسة!

أملِت أن يبدّد لقاؤها بصديقتها القديمة الغموض والذهول اللذين وقعت تحت سطوتهما وما استفاقت بعد. لكنّها ارتابت في ذلك. «ليست رباب من النوع الذي يبوح بأسراره بسهولة، إن كان ثمّة أسرارٌ خبّأتها في ظلمات نفسها وإن كان ثمّة ما تعرفه هي بالذات. ومع ذلك سيكون في ذلك اللقاء، مهما بدت كتومةً، بصيصُ كشفٍ وتوضيحٍ قد يُزيل بعض الغموض.»

لكنّ شاغل راوية الحقيقي كان مصير رباب، فهنالك نهايةٌ بشعةٌ تنتظرها، قد لا تكون ببشاعة فعلتها لكنّها بشعةٌ فعلاً! وقد ساءها فشلُها في إقناع ناصيف بالوقوف إلى جانب شقيقته أثناء زيارةٍ سابقة.

بدا عدوانياً تجاهها، كأنّما يتّهمها ضمناً بمشاركتها لرباب، مصرّحاً بأنّها ضيفةٌ غير مرغوبٍ فيها في بيتهم. لم تأخذ كلامه على محمل الجدّ، فالصدمة أكبر من أن يحتملها أيّ كائنٍ مهما امتاز بالجبروت والعتوّ. تقبّلت ردود فعله برحابة صدرٍ لا تفسحها لغيره أيّاً كان، لأنّها قدّرت دقّة موقفه، لكنّها ورغم ذلك لمست في تضاعيف أقواله أمراً خفيّاً، كأنّ دافعاً، أقوى بكثيرٍ من الدافع الطبيعيّ الذي أظهره دون تحفّظ، هو ما يحرّك أفعاله وغضبه الدمويّ الشرس على شقيقته وأمه!

«لقد كانت الصورة التي رسمتْها عنك رباب لا تفي بما شاهدته وسمعته منك دون خجلٍ أو حياء».

ـ حسنٌ، إن كنت لا تريد مساندتها أو الوقوف إلى جانبها، فكُنْ حيادياً، لا تكن ضدّها!

ضحك ناصيف بلؤم:

ـ هكذا إذن! ستدفع ثمن فعلتها يا آنسة راوية، وأنتِ باعتبارك صديقتها، ستبكينها عاجلاً، وخيرٌ لك أن تبكيها بصمت!

ـ ألا ترحم أمّك على الأقلّ؟ أتريدها أن تثكل بعد أن ترمّلت؟!

احتدّ قليلاً:

ـ ألا ترين أنّك تتدخّلين في ما لا يعنيكِ؟

ـ لأنّي أواجهك بحقائق تعميك أحقادُك عن رؤيتها.

ضحك ناصيف مجدّداً:

ـ سأكون أكرم منك وأمضي، كيلا أطردك!

ـ ومع ذلك فإني آمل أن تبترد غضبتك وتترك للقضاء أن يقول كلمته فيها.

«ما الذي سيقوله القضاء يا راوية؟ هل من ريبٍ في أنّه سيقضي عليها بالموت جزاءً وقصاصاً؟ أوَيمكن لك يا راوية أن تبدئي حياتك المهنيّة بقضيّةٍ خاسرةٍ مائة بالمائة سترسم ظلالها السود على مسارها ومستقبلك؟ عليّ أن أترك ثوب المحاماة معلّقاً. رباب صديقتي، ولا يمكن لي أن أتخلّى عنها حتى لو كانت مجرمةً حقيقيّةً ـ وهذا ما لا يمكن أن أؤمن به ـ وليذهب مستقبلي ومهنتي إلى الجحيم! فقط لو تساعدني وتحكي!»

عاود الانقباض راوية، وقد استنفذت مرحاً مصطَنعاً أرادت أن تواسي به آمنة، فأضحت تحتاج لمن يواسيها ويقدّم لها العزاء. أخذت ترسم

مخطّط دفاعها على مهل، مفترضةً أنّ رباب لن تقدّم أيّ عونٍ أو مساعدةٍ لأستاذها الذي سترغمه على قبول الدفاع عنها، فلربّما ساهم اسمه ولعبت شهرته دوراً في تحسين موقع رباب المائد!

«هنالك مسألةٌ هامّةٌ جداً، فهي لم تحضِر سلاحها معها بل وجدته مصادفةً. ولكن ألن يحاجج ممثّل النيابة بأنّها تعرف مكانه بشكلٍ مسبق؟ القضية الأخطر أنّه كان نائماً، والأسوأ تلك الوسادة التي غطّت بها وجهه وأخفته عن عينيها. لكن لمَ يا رباب؟ لمَ هو بالذات؟»

تذكّرت كم كانت تحكي لها عنه بفخرٍ واعتزاز، وكم تتمنّى أن تكون نسخةً عنه، حتى أنّها كانت تبرّر وتسوّغ نزوعاته العنيفة والقسوة التي تسيطر على مزاجه المنحرف. «دعي ذلك كلّه الآن يا راوية، انتظري، ستسمعين منها كلّ شيءٍ عمّا قليل، لا تستعجلي الأحداث، لن تجيبي خلال دقائق عمّا أعجزك خلال أيّام.»

كانت قد رأت في فعلة صديقتها شناعةً ما بعدها شناعة، لم تستفق من هولها حتّى اللحظة. لكنّها بقيت على يقينٍ أن رباب ليست شرّيرةً بطبعها، وأنّ طارئاً فاجأها على حين غرةٍ فأفقدها وعيها وعقلها، مطلقاً كلّ قوى التدمير والعدوان التي اعتملت طويلاً في نفسها كامنةً، تنتظر اللحظة التي تثِب فيها. أتت اللحظة، وكان عبد الجبّار هو الدريئة. لم تستطع أن تتخيّل ما حدث إلاّ على تلك الصورة، بغضّ النظر عن محبّتها لرباب والتصاقهما كصديقتين حميمتين.

«رباب، التي حاربت نفسها دوماً، وحاربت إغواءاتٍ وإكراهاتٍ كثيرةً كيلا تمنحها فرصة اصطيادها ودفعها حيث تريد، لا يمكن أن تكون قاتلةً على تلك الصورة. لكنّها كذلك فعلاً يا راوية، فلمَ تبرّرين لها وتسوّغين؟!»

لم تكن الإجراءات بسيطةً، لكنّهم سمحوا لها في النهاية بزيارتها بعدما فتّشوها تفتيشاً دقيقاً. دخلت غرفةً صغيرةً متقشّفة الأثاث، كانت الشمس تعبر قضبان نافذةٍ منخفضةٍ وقد انسكبت شعاعاتها في بؤرةٍ وقفت وسطها امرأةٌ ارتدت قميصاً وبنطالاً ضاقا عليها، كأنّما استعارتهما على عجل، وقد تراخى كتفاها وأحنت رأسها، واضعةً رؤوس أصابعها في جيبي بنطالها محطّمةً، لا تنتظر شيئاً.

وقفت راوية يائسةً، تنتظر التفاتة رباب إليها، بينما انتظرت رباب إطباق الباب واستدارت ببطءٍ وهي ترفع رأسها على مهلٍ لتتبيّن زائرها. اندفعت نحوها حالما رأتها وتعانقتا... همست متهالكةً، وبقايا صلابةٍ تطلّ من عينيها:

ـ انتظرتكِ طويلاً يا راوية! لمَ تأخرتِ؟ ألم تسمعي ندائي، ألم تسمعيه؟

انتبهتا، وقد قطع برهة الصمت صوتٌ آمر:

ـ ربع ساعةٍ فقط!

جلستا على كرسيّين متجاورين امتثالاً لأوامر الشرطيّة التي وقفت قرب الباب. «كم تغيرتِ يا رباب! كم شحُب لونك وهرمتِ. كلّ هذا بأقلّ من ثلاثة أسابيع؟!»

ظلّت راوية تتأمّل رباب، منتظرةً أن تبادر في الحديث، لكنّ الأخيرة استمرّت مطرِقةً دون أن تفوه بأيّ حرفٍ وقد داهمت كفّيها وجفنيها رعشةٌ يسيرة.

ـ لقد حاولتُ كثيراً، لكنّهم لم يسمحوا لي إلاّ اليوم و...

قاطعتها رباب وقد فقد صوتُها حيويّة اندفاعته السابقة، فوصل أذني صديقتها بطيئاً، أقرب للأنين:

ـ كيف حال أمي . . . ووسيم؟

«لم تتحدث مع أحدٍ منذ زمن طويل» جزمت راوية . «أيّ عذابٍ كابدتهِ يا صغيرتي!» ربتت على كتفها وحاولت معانقتها، لولا نهر الشرطيّة التي كانت تراقب بحذرٍ خفيّ.

ـ بخير، رغبتْ أن تأتي معي اليوم، لكنّي سألتها أن تنتظر للمرّة القادمة. ووسيم بخيرٍ أيضاً.

عاود الصمتُ المهجور استحضارَ صداه بعد هنيهة.

ـ هل تحدثتِ معه؟ ما الذي قاله؟

حاولت ألاّ تثير قلقها:

ـ لم أستطع رؤيته على انفراد، وأنت تعرفينه، صامتٌ ساهمٌ ساهٍ باستمرار، لكنّه بخير. اطمئنّي.

صمتت رباب هنيهةً، وعاودت همسها المتقطّع واللاهث:

ـ راوية، أرجوكِ أن تزوري زينب زوجة حسين وتطمئنّي عليها، المسكينة ما عاد لها أحدٌ في هذه الدنيا. هنالك مبلغٌ عند خالي، خذيه إليها، والأهمّ أن تلتقي عادلاً وتخبريه أن يزور حسيناً في السجن، ويعِده بأنّه سيرى زينب والأطفال. قولي له فقط، إنّني أودع زينب وأطفالها أمانةً في عنقه، وكذلك وسيم، عليه أن يبقيه لصقَه!

قاطعتها راوية:

ـ وأمّك يا رباب؟

تملّت رباب عينيها طويلاً، وكأنّما استهلكت كلّ قواها واستنفذتها، فتلفّظت كلماتها بجهدٍ بالغ:

ـ أمّي؟ ما عاد هنالك ما أخشاه عليها، ليكن الله في عونها.

أطرقت رباب مجدّداً، فسارعت راوية، ناظرةً إلى ساعتها، لإكمال حديثٍ كاد أن ينقطع :

ـ رباب، أرجوك اسمعيني. سأحضر غداً بصحبة أستاذي، ستتحدثين إليه كيما يترافع عنك!

دون أن ترفع رأسها، تمتمت رباب بإصرار :

ـ لا أريد محامياً، ولا رغبة لي بمشاهدة أحد!!

حاولت راوية مجدداً :

ـ ووسيم يا رباب، وزينب، وأمّك؟ لا زلنا جميعاً نحتاجك، ونريد أن نكون قربك.

هزّت رباب رأسها بأسىً وكاد صوتها يحتبس :

ـ لا يا راوية، ما من أحدٍ يحتاجني، ولا أحتاج أحداً. لقد انتهيتُ، وأنتِ خير من يعلم ذلك!

ـ مازال الوقت مبكّراً يا رباب. لدينا فرصٌ كثيرة، ودربٌ طويلٌ ينتظرنا.

هبّت رباب واتّجهت نحو النافذة ببطءٍ، وقفت متطلّعةً إلى السماء :

ـ لقد أعتمت الشمس، مضت النهارات... غابت النجمات وانتحر الفجر. أخشى على كفّك من ملامسة كفّي يا راوية! ما عدتُ أصلُح، تلوّثتُ. حتّى الموت بات يتأفّف أنَفَ ملاقاتي!!

أجفلت راوية على الوقع الجنائزيّ للرثاء النبوئيّ الذي أطلقته روح رباب المسحوقة فانتفضت من مجلسها، لحقت بها وعانقتها. خاطبتها، مختنقةً بإجهاشٍ محتبس، وقد اختطفت الفجيعة قلبَها!

ـ من منّا لا يخطئ يا رباب؟ ندامتك خير مطهّرٍ لقلبك. عليك أن تحافظي على حياتك لتكون فضائلك وخيرك وعملك تكفيراً وتوبة. هيّا يا رباب، قولي نعم وامنحينا جميعاً أمل أن تبقي معنا!

استدارت رباب نحوها، وأجهشت منتحبةً تكاد تتهاوى وتنهار:

- أرجوكِ يا راوية افهميني، لئن جرؤت على رؤيتك فلن أجرؤ على ملاقاة عينيْ أمي أو وسيم أو . . . لقد ارتكبتُ خطيئةً لا تُغتَفر، ولا أستطيع مسامحة نفسي حتّى لو سامحني الجميع. لا أريد محامياً ولا دفاعاً! أنتظر قصاصي على أحرّ من الجمر، لا أتمنى شيئاً آخر، فكلّما طال الوقت طالت عذاباتي! ارحميني أرجوكِ، وكُفّي عن إلحاحك.

دفعتها ومضت قُدُماً دون أن تلتفت إلى صراخ راوية الملتاع:

- رباب، رباب، لا تمضي!

انقضت ربع الساعة ومضت رباب وقد قطعت كلّ وشائجها مع العالم ودخلت عتبات الغياب . . .

كذلك مضى ناصيف وأوغل في أحقاد انتقاماته الصغرى والكبرى، ودخل عتبات جنون القتل الذي حفّزه على دفع الجميع دون استثناءٍ لموافقته ومشاركته في ثأره المقدّس!! صرّح جهاراً أنّه لن يهدأ ويستقرّ ويعود لحياته الطبيعية قبل أن يرى دم رباب الأسود يسيل، مغرِقاً العيون التي تغافله متشفّيةً ساخرة، قاطعاً ألسنة السوء التي تنهش مسيرته نميمةً وغِلاً. ولأنّه قاطع الناس مؤقّتاً، دون أن يهمل أعماله ومشاريعه، فقد أطال مكوثه في البيت، وعرّض لسعار جنونه أهلَ بيته الذين لجمتهم الحادثة وصعقتهم حتّى بدوا كمن فقد ذاكرته.

في فجر اكتشافهم، لم يتمالك نفسه إلاّ، وهو الذي افتقد وجودها.

- لن تفرح بفعلتها!

احتدّ عادل:

- لمَ تسارع لاتّهامها؟ إن مسّاً يدفعك لاتّهام شقيقتك بقتل أبيها!

فانفجر ناصيف بوجهه:

ـ دافع عنها ما شئت، ولكن اجرؤ إن كانت هي الفاعلة! وإن لم تكن، فأين هي الآن؟ أخبرني. . . أخبرني. . .

ومع الكلمات الأخيرة كان قد أمسك صدر عادلٍ بقبضتيه وراح يهزّه هزاً عنيفاً. فكّر عادل، «لقد أفقده فقدان أبيه صوابه!» لم يدرك أبداً أنّه أكثرهم تماسكاً. فكّر أن يهدّئه، لكنّ فكرة إثارته أكثر بدت أقرب للصواب، «ربّما تقوم بفعل صدمةٍ معاكسة قد تعيده لرشده!»

ـ وعلى فرض أنّها هي، هل ستنشر ذلك على الملأ؟

توقّف ناصيف عن هزّه، وحدّق فيه يكاد يحرِق وجهَه بشرر عينيه:

ـ ماذا قلت؟ أتظنّ أحداً لم يعرف بعد؟ وعلى فرض، ماذا تريد أن أقول أيّها الأستاذ؟

التقط عادل أنفاسه وهو يزن ألفاظه بعناية، خشية تحوّل انفعال ناصيف إلى عدوانٍ صريح!

ـ قل إنّ مجهولاً قتله. . أو أنّه قتل نفسه!

دفعه ناصيف بكلتا يديه، فوقع قريباً من ساقي أمّه الواجمة التي لا تستطيع حراكاً، قائلاً:

ـ أيّها الحيوان الكبير، أتريد تلويثه ميتاً ولم يجرؤ أحدٌ على تلويثه حيّاً؟

لكنّ عادلاً أجاب بهدوء، مقتعداً الأرض التي تلقّت سقوطه:

ـ خيرٌ من أن نتلوّث جميعاً!

ضحك ناصيف بخبل:

ـ تخشون على أنفسكم إذن؟

ثمّ تابع ملتفتاً نحو أمه:

ـ هذه خُلاصاتك ـ يا خانم ـ نتاجات تربيتك! اطمئنّوا ولا تخشوا. . ستغتسلون جميعاً بدمها!

لكنّ عادلاً حافظ على إصراره وقد ساءه تعريض أمّه للإهانة . . .

ـ إن كانت هي أيّها الابن البارّ!!

لم يتراجع ناصيف :

ـ ستكون! وسترى!

أتت هناء بالخبر المثير للشكوك . .

ـ فتّشتُ غرفتها، لم تلملم أغراضها حتّى أنّها لم تغيّر ثوبها الأسود وهي لا تسافر فيه عادةً، وحذاؤها مرميٌّ وسط غرفتها . . . ولا أثر لها!

لحظتها دفعها ناصيف بيده بقوةٍ أوقعتها أرضاً، واندفع نحو غرفة رباب، كأنّما خشي أنّ اللعينة تنصب له فخّاً للإيقاع به، وجعله رهينة انفعالاته الحمقاء. قلب الغرفة رأساً على عقب، ناثراً محتوياتها، محطّماً أثاثها، باحثاً عن رباب في شقوق الجدران وفي أدراج مكتبها، عبثاً! قفز لاهثاً وهو ينفض رأسه شاتماً، هل كان يريد التشبّث برأي عادل والتثبّت من أنّها ليست هي، خشية فضيحةٍ لن تنتهي أبد الدهر؟ ربّما، وربّما أرادها ألاّ تهرب بعيداً إن كانت هي الفاعل. وكثورٍ هائجٍ اندفع نحوهم آمراً، فما جرؤ أحدٌ على اعتراضه أو مخالفته :

ـ عادل نوّاف وسيم، انطلقوا جميعاً، أريد أن تخلقوها من تحت الأرض سواءٌ أكانت هي أم لم تكن! علينا حسم ذلك كيلا يتوارى الفاعل الحقيقيُّ للأبد.

لكنّ آمنة لم تمتثل له، فقد عانقت وسيماً وألصقته بحجرها .

ـ أنت، ابقَ هنا!

التفت ناصيف نحوها مسعوراً :

ـ أمّي، لا تقفي بوجهي!

لكنّ آمنة استدارت دون أن تفارق يداها عناق وسيم ومضت إلى غرفتها.

فقد الجميع آثار رباب، فالتفّت أنشوطة الموت حول عنقها.. وأُهدر دمها!!

تعاطفت نسوة البلدة مع آمنة للوهلة الأولى ظاهرياً، لكنهنّ سراً تندّرن بعبد الجبّار، وحكين قصصاً متباينةً عن حياته التي انتهت بتلك الطريقة الفذّة. لم تكن غريبةً عن تلك الأجواء، تعرف ما يجري فيها، ولطالما شاركت بها قبل أن تنطوي على نفسها، وتمتنع عن اللقاءات المعتادة إلا في ما ندر، وفي مناسباتٍ لا تستطيع عنها تخلّفاً. لم يفتها، حين أتين يعزّين بمقتل زوجها، بريقُ العيون الخبيثة رغم صدق تعاطفها مع مُصابها.

كانت الحادثة مروّعةً وقد أصابت الجميعَ بالوجوم، فلم يكن ثمّة سابقةٌ لها؛ في تلك المناطق النائية، التي بقيت طويلاً بعيدةً في عزلتها الاختياريّة عن جنون التحضّر الواهِم الذي غزا المدينة فأعمل فيها خراباً وقلب عاليها سافلها حتّى اكتشف البعض روعة طبيعتها وغناها بصيدٍ موسميٍّ وفير، لم يكن التهريب سبباً جوهرياً في اجتياحها وحصارها التالي، فبحكم موقعها الحدوديّ بقيت دوماً ممرّاً للمهرّبين من كلا جانبي الحدود، لكنّ البضائع كانت تمرّ بها مرور الكرام، فلا تترك آثارها وبقاياها، حتّى في الآونة التي تحوّلت فيها بعض دورها وأحيائها لأسواق عامرةٍ بشتّى أنواع السلع المطلوبة والرائجة، مباحةً وممنوعة!

لم يستطع مصطافو المدينة الذين يؤمّونها صيفاً، ولبعضهم ممتلكاتٌ موروثةٌ فيها، أن ينقلوا بذور شكّهم وجراثيم عيشهم وأساليب حياتهم المختلفة، بل كانوا ينسونها في بيوتهم ليجدوا أرواحهم المضطربة، ماتحين من بساطة وطيبة أهلها الكثير.

في تلك الجرود القصيّة، تكثر حوادث القتل وتتعدّد أسبابه، وتتّخذ أحياناً مناحٍ خطيرةً، حين تتحول حوادث الثأر لحروبٍ معلنةٍ أو خفيّةٍ، تهدّد باجتثاث أسرٍ من جذورها. كان ذلك فيما مضى، في أزمنةٍ بعيدةٍ لم تتوقّف، لكنّها اتّخذت سماتٍ جديدةً.

أن يقتل أبٌ ابنه أو ابنته، أن يقتل أخٌ أخاه أو أخته أو زوجته أمرٌ عاديٌّ، يثير الاستغراب دون أن يثير الدهشة! أمّا أن يُقتل أبٌ بيد ابنته، وبجهلٍ كاملٍ لظروف وملابسات وأسباب القتل، فذلك ما لا يحتمل. يثير زوبعةً تزول آثارها، ويبقى وشمها زمناً طويلاً لو كانت البلدة في وضعها الطبيعي.

لم يدرِ أحدٌ كيف انتقل الخبر، وكيف اجتمعت البقيّة الباقية من أبناء العمومة والخؤولة الكهول، واتجهوا لمخفر البلدة مطالبين بتسليمهم القاتلة. لِمَ التفتت أنظار الجميع إليها، ولِمَ تيقّن الجميع أنّها الفاعلة؟ أثار ذلك استغراب رئيس المخفر الذي نفى وجودها، وأعلن جهاراً أنّها قد تكون بريئةً. لم يقنع كلامُه الحشد، لكنّه أرغمهم على التفرّق، ملوّحاً باستخدام الشدّة إن لم يمتثلوا لأمره، بعدما وعدهم بأنّ العدالة ستلاحق الفاعل وتقتصّ منه! لكنّ العدالة تلك لم تلاحق أحداً، ولم تفعل سوى التذكير بقوّة بطشها وإرادتها!

لم يُحزن موت عبد الجبّار ناصيفَ بقدر ما ساءه تحول الحادثة لمضغةٍ في الأفواه. ولم يفرحه كذلك، رغم الفائدة الجمّة التي قدّمها موته، فجعله حرّ التصرّف دون حسيبٍ أو رقيب. ابتسم بمكر، «ما عادت معارضتك لبيع الأرض تجدي، لقد أهلكتني وأنا أحاول إقناعك بضرورة ذلك وفائدته، وظللت ترفض حتى آخر اللحظات!» وإذ تصاعد غضبه، وقد أهانه أن يمرّ في البلدة غاضّاً الطرْف، متجنّباً همس المارّين وتغامزهم، فإنّه لم يضع الوقت سدىً. أنهى سريعاً مراسيم الجنازة،

واحتمل على مضضٍ أولئك الذين استصغروا شأنه وهو يعدّ على مهلٍ عدّة الثأر القادم.

أمّا الشاغل الذي استجدّ فأجّج نيرانه وصبّ زيتاً فوق حرائقه المشتعلة، فكان اكتشافه المفاجئ أنّ أباه قسم الأراضي الزراعيّة بعقود بيعٍ نهائية بينه وبين رباب من جانبٍ، وحسين ووسيم من جانبٍ آخر، نصفٌ لكلّ جانب! بُهِت للوهلة الأولى، وكاد يلعن أباه ونفسه وحظه العاثر، إلا أنّه تماسك، حسَبَ ذلك بدقةٍ متناهية؛ رباب ستبحث عمّن يرثها، وحسين؟ آه، عليه أن يبحث عن ذلك أيضاً بعد أن يطلّق زوجته، فما عاد له أملٌ بالنجاة. لقد حكم عليه عبد الجبّار بموتٍ سريع. ووسيم؟ لا يزال صبيّاً، والطبيعيّ أن أكون وصيّاً عليه.

«قُضيَ الأمر وانتهت المشاكل دفعةً واحدة!» لم يهتمّ لأمر رباب وحسين وزينب، لكنّه سخط على نفسه، «ألا تستحي يا ناصيف؟ أتجد في موت أبيك تحرّراً من قيدٍ فرضه حيّاً عليك، باستثناء أراضيه الزراعيّة من حرّية التصرّف التي منحها لك؟ حسنٌ يا أبي، كنتَ تعرف أنّ ذلك سيحدث عاجلاً أو آجلاً، فلمَ لمْ تُلِن قناتك، وتترك لي حرّية التصرّف خلال حياتك؟ أردت أن تغدر بي، وتحمي رباب وحسيناً. حسنٌ يا أبي! أنتَ محقٌّ بالنسبة لحسين، فهو لن يبيع أرضه حتى لو قُتل دونها. فكيف وثقتَ برباب؟ ويلها! لقد خانتك مرّتين، ولن يشفي غليلك منها سواي. سامحني، وليتغمّدك الله برحمته، ويوسع لك فسيح جنانه!»

لم يعلم أحدٌ كيف ولمَ أفْلت ناصيف من عقاله، فاقداً حرصه على مراعاة هناء، التي أحسّت لأول مرّةٍ بوطأة عيشها مع رجلٍ انكشف ثوبه عن وحشٍ حقيقي، أشرع أنيابه ومدّ مخالبه وبدأ صولة بطشه! لم تصمت، رغم رهبتها منه، ولم تستسلم أو تتحمّل أكثر ممّا احتملت، ولم تُلزمها أعرافه وشرعة قبيلته التي غلّفت بالقانون الذي صار واحداً

من أدواته، فهي ابنة المدينة التي منحته ذلك القانون، وابنة واحدٍ من صنّاعه. ليست وحيدةً ولا معزولة، وثمّة من تلجأ إليه ليخلّصها من الجحيم الذي باتت تكتوي بنيرانه.

أذهلتها الحادثة. ورغم الفجيعة، استفاقت على مسألةٍ هامّة، أنّها زوجة شقيق قاتلة أبيها. «أيّة غابةٍ تلك! هل عُدت آمن على حياتي هنا؟ إن كانت الأنيسةُ والرقيقةُ والليّنة ـ رغم ثورات براكينها ـ امتلكت جرأة قتل أبيها ببرود أعصاب، فأيّةُ حصانةٍ أمتلكها؟» لكنّ الذي أفقدها رشدها، رؤية ناصيف عارياً على حقيقته، خارج كلّ تصوّراتها. رأت انقلاب الحيوان الكاسرِ فيه على أمّه وإخوته، وأحسّت أنّ دورها قد حان. ومع ذلك، فقد رأت أنّ واجبها يحتّم عليها أن تعقّله، فقبل كلّ شيءٍ وبعده، هو زوجها! وعليها أن تحافظ عليه وعلى ارتباطهما، بعيداً عن تباين طموحاتهما واختلاف طباعهما. «هناء، فكّري جيّداً، عليكِ ترويض الوحش الكامن فيه، وإعادته إلى حظيرته أليفاً مطواعاً مثلما كان. ما مِنْ خياراتٍ أخرى أمامك، فرغم مالكِ وجاه أبيك، ما من أحدٍ سيرضى بك عاقراً إلا طمعاً بثروته ونفوذه!» تركت دلالَها جانباً، وواجهته بشكلٍ صريحٍ ومباشرٍ، لا يأتلف مع عاداتها.

ـ ناصيف، أخطأت رباب خطيئةً لا تُغتفَر، لكنّك لستَ ربّها ولست قاضيها ولا جلاّدها! كفاك تحريضاً عليها وتهويلاً ضدّها، هي أختُك مثلما هو أبوك. دعها للقضاء، وكنْ عاقلاً ولا تدمّر نفسك وأسرتك وتدمّرني معكم. لن أسمح لك بتدمير حياتنا المشتركة. هل تصغي إليّ، هل تفهمني؟

كان يسمعها دون ريبٍ ويفهمها، لكنّه ظلّ يتملّى وجهها ويتفرّس عينيها، «هل تظنّ الغبية أنّني أصمّ؟» احتدم غضبه ولم يعمل البتّة على كبحه. «آن أوانها هي الأخرى، نفذ صبري، وما عاد من داعٍ لتكريمها

أكثر ممّا تستحقّ. عليها أن تعرف حجمها الحقيقيّ وترتضيه.»

تقدّم نحوها ببطءٍ شديد، واستشعرت بطشَه يقترب، فانكمشت على نفسها من غير أن تتراجع، أو تسمح لعينيها بالإغضاء أو الانكسار أمام سطوة نظرته.. وعلى بعد نصف خطوة، وقف حائراً:

ـ ألستِ أحطّ وأسفل منها؟ أكنتِ تدافعين عنها لو لم تكوني مثلها؟ هل آمن ألاّ تقومي أنتِ ليلاً وتضعي رصاصةً في رأسي؟ و...

قاطعته مرتعدةً:

ـ ناصيف الزم حدودك! لا أسمح لك، هل تفهم؟

أتتها اللطمة سريعاً، فارتمت مذهولةً، مملوءةً بالرّعب، رغم إحساسها المفجع بإهانة ضربةٍ تلقّتها لأوّل مرّةٍ في حياتها.

ـ كلكنّ هكذا.. نسلٌ من الأفاعي والشياطين، ما إن يغيب السوط عن إحداكنّ حتى تلهث في محاولة الاستيلاء عليه واستخدامه! سأسحق رأس الأفعى فيكِ، وقد طالت أنيابها، ولن أكتفي بنزعها. عودي كما كنتِ دودة طينٍ حقيرة!

على وقع آخر الكلمات، انهالت ضرباته بيديه ورجليه ببطءٍ وقوةٍ وتركيزٍ، وقد أطبق فمه فما عاد يُسمع غير لهاثه، وصراخها الموجع الذي استحال نشيجاً خوارياً على وتر الأنين. لم يوقفه فقدانها لرشدها، ولا دمُها الذي سال من منخريها وفمها وشجٌّ صغير في صدغها، بل اقتحامُ الغرفة المفاجئ. التفت، فوجد أمّه واقفةً وقد أُخذت بالمشهد غير المعتاد. صرخ فيها:

ـ اخرجي يا أمي، لا دخل لك بهذا.

لكنّ الأمّ اندفعت وهي تتمتم:

ـ هل تحسبها أختَك أو أمّك؟

اعترض طريقها، فصرخت :

ـ هيّا، اضربني أنا أيضاً!

اضطرّ للتنحي مفسِحاً لها . وحالما شاهدها تنحني على هناء، محاولةً إعادتها لرشدها ومسح دمها النازف، انطلق مغادِراً وأطبق الباب بقوةٍ ارتجّت الغرفة لها وحبست داخل جدرانها صدى شتيمته :

ـ لعنة الله عليكنّ جميعاً!

لم يعد ناصيف تلك الليلة . طيّبت آمنة خاطر كنّتها، وحاولت الترويح عنها وتخفيف آلامها ما استطاعت، فنشجت المرأة بين يديها :

ـ لقد جنّ يا امرأة عمّي، ما كان يوماً هكذا، لم يوجّه لي كلمة سوء، فكيف انقلب هكذا فجأةً؟ لو تعلمين فقط ما أثاره! سألتُه الكفّ عن تحريضكم ضدّ رباب، وتركها لقَدَرِها ومصيرها المحتوم، فاعتبرني مثلها . كأنّه أراد الاقتصاص منها عن طريقي!

ـ عليكِ أن تعذريه يا ابنتي، فهو موتور، ولن يشفي غليله سوى الثأر لأبيه .

ـ لا اعتراض لي يا امرأة عمي، لكنّها أخته أيضاً!

صمتت آمنة هنيهةً . . .

ـ هناء يا ابنتي، هل تسمعين نصحي؟ اذهبي لبيت أبيك، ما عاد لك مقامٌ هنا .

دُهشت هناء وسألت :

ـ لمَ يا امرأة عمّي؟ هو زوجي، وعليّ احتماله!

أجابت آمنة بحزمٍ ويقينٍ حدسيّ :

ـ لن تستطيعي يا هناء، لن تستطيعي! إلاّ إن ارتضيتِ مصيراً كمصيري وقدَري!

أصرّت هناء:

ـ لكنّه مختلف، ستمضي تلك الغيمة ويعود كلّ شيءٍ كما كان!

تأمّلت آمنة الفراغ وهمست، كأنّما تخاطب نفسها:

ـ لقد عاد كما كان! لن تكوني بعد اليوم في نظره أكثرَ من جاريةٍ وُهبت له لخدمته وإمتاعه. إن بقيتِ مصرةً على رأيك، الجئي لأبيك وأمّك، وإن طلب استعادتك، فليشترطا عليه عدم إساءة معاملتك! لكن صدّقيني، ما عدتِ بالنسبة له غير عبدة. أنصحك بالهرب يا ابنتي، أخاف عليك أن تُدفني بالحياة كما حدث لي!

أخافها حديث آمنة، فمضت خفيةً في الصباح لتستشير أهلها. هناك أرغى أبوها وأزبد، وأقسم أيماناً معظّمة أنّه سيؤدّبه ويذكّره بقيمته الحقيقيّة. بينما ثارت أمّها، وأصرّت على انفصالهما، مؤكّدةً أنّ ألف رجلٍ يتمنى قلامة ظفر هناء. فلماذا تعود لهذا الوغد الجاحد للنِعم؟

بعد يومين أتى ناصيف يسأل عنها، كأنّ شيئاً لم يكن. ثار الأب في وجهه، وأفهمه أنّ هناء ليست حيواناً لتعامَل بتلك الطريقة، لكنّ ناصيف أخذه جانباً، وهمس شيئاً ما في أذنه، فأدخله الأب الغاضب إلى غرفة مكتبه حيث مكثا قرابة نصف ساعة، خرجا بعدها ضاحكين! اعتذر ناصيف لزوجته، وتعهّد لأمّها ألاّ يعود لمثلها. قبيل مغادرتها، رجاها أبوها أن تحتمل زوجها في محنته، لأنّه سيعود أفضل مما كان حال انتهائها!!

حين لمحتها آمنة راجعةً بصحبة ناصيف، ترحّمت عليها في سريرتها، «لقد قُضي عليك يا هناء، لربّما كان قَدَر رباب أكرم من قدرك! انتظري نقمة ناصيف المتوارية!»

لكنّ نقمة ناصيف انهالت رماداً من حقدٍ ولؤمٍ فوق رأس آمنة وهامتها، التي مزّقتها آلاف السكاكين المتثلّمة! لم تصدّق أبداً أنّ رباب فعلتْها. كانت متيقّنةً أنّها تركتْها نائمة، «ربّما أيقظها صوت الطلقة، ولم تحتمل مشهد أبيها القتيل، فهامت على وجهها!» بقيت تمنّي النفس بذلك، وتدافع عن البنيّة اليتيمة بكلّ قواها الخرساء الكامنة، لكنّها انهارت حين أتى الخبر اليقين؛ سلّمت رباب نفسها، وأضحت بعهدة الحكومة، تنتظر جزاءها العادل أو الظالم.

لم تتداعَ آمنة حين اكتشفت الجثّة التي لامتها لإغفائها ونسيانها إيقاظ عبد الجبّار لأداء صلاة الصبح. كأنّ دمه الذي سال على جانبي رأسه استصرخها: لو أيقظتِني لما قُتلتُ غدراً!

ورغم أنّها ناحت وأعولت، وشقّت ولولتها تربة الليل، ناشرةً فروعها وأغصانها في هوائه، إلا أنّها تماسكت حتى اجتمع أولادها قبل أن يلحظوا غيبة رباب. آنها، أقسمت بأغلظ الأيمان أنّها لن تبكيه قبل أن ترى دم قاتله، وحلفت برأس وسيم، وهي تضمّه إلى حجرها، أنّها ستتبرّأ منهم واحداً واحداً إن لم يثأروا لدم أبيهم!

لكنّها ظهيرة دفنه، انتحت جانباً وبكت.. بكت دون أن تدري إن كانت تبكي غيابه أم نفسها أم رباب، التي جعلتها معرفةُ أنّها قاتلةُ أبيها تتداعى، وتفقد كلّ رجاء! لم يمهلها ناصيف أبداً، وأطلق كلّ غضبه وحقده ولؤمه حين لمح آثار بكائها:

ـ أراك تبكين قبل أن تشمّي رائحة دم قاتله؟

لم تفعل سوى حدجه بوجع روحها، وقد أطلّ من عينيها يماماً مذعوراً يخبط بأجنحته قبل أن ينسى دمه المراق. إلاّ أنّه لم يرتدع، فتابع متشفياً شنيعاً مقيتاً بغير حدود، وغامزاً بعينيه كأحطّ داعري الشوارع:

ـ أليست ابنة حرام؟!!

ـ خسئت!

وانطلقت البصقة لتستقرّ فوق وجهه وتسيل على صفحته مع كلماتها المتبقّيات:

ـ تكون أنت إذن. . ابن زنا!!

تململت الذئبة المخدَّرة منذ زمنٍ طويل، لكنّها كانت انتفاضةَ النزع الأخير. أدخلتها الحادثة سباتها بعد ما أصابت منها مقتلاً، متيقّنةً أنّه ما عاد لها سوى إعلان تبرّئها من ابنتها الوحيدة، والمشاركة في سفك دمها. لقد أقسمت، ولا بد أن تبرّ بقسمها!

انتهت مراسيم الدفن، وكان يمكن لآمنة أن تحلّ محلّ زوجها، لو لم يفلّ حزمَها وعزمها وتصميمها مطالبتُها الصريحة والباتّة بدم رباب. اعتزلت غرفتها، وهي تؤدّي واجباتها اليوميّة بصمت، رافضةً مخاطبة أحدٍ إلاّ وسيماً. باتت رباب مدانةً. . مدانةً حتى نخاع العظم بالنسبة لها، لكنّها ابنتها، صورتُها وقد خرجت من رحمها لحماً ودماً وحياة!

«كبرت وعركتها الحياة. خاضت معركتها، فكيف انهزمتْ شرَّهزيمة؟ لِمَ لمْ تجعليني ثاكلاً يا رباب؟ لـمَ لم تقتلي غانماً؟ لِمَ لم تهربي، لِمَ لم تفعلي أيّ شيءٍ غير فعلتك السوداء المنُكَرة التي لا يقبل بها عقلٌ ولا دينٌ ولا قلبٌ ولا ربٌ؟ هل لي أن اغفر لك؟ هل أستطيع؟ لقد قتلتِني قبل أن تقتليه! قتلتِ صبوتي إليك وفرحتي بك وشوقي لرؤيتك غيرَ ما إلتُ إليه.

أنا التي عضّت على شفتيها كيلا تصرخا وجعها المديد، وكيلا تفعل يداها ما فعلته يداك!! كيف أحتمل حبّي وكراهيتي معاً؟ كيف أُجهر حنيني ولامبالاتي معاً؟ وكيف أجمع بين رغبتي بالاقتصاص منك، وواجبي بالحفاظ عليك؟

أخبريني أيتها البارّة العاقّة، أيّتها المُحيِية المُميتة، أيّتها القاسية الحنونة، أيّتها المباركة الآثمة!

ويلَ نفسي، أسألكِ العون وأنتِ من تحتاجه! هل يعرف أحدٌ أو يحسّ أكثر منّي بما تعانينه، وبما يمزّقك ويطحنك بين ألف رحىً ورحى؟ ويلَ قلبي! كيف لا أساعدك وأخفّف عنكِ عذابات ليلك ونهارك، كيف لا أهدهدكِ ليريحك النوم ممّا تكابدينه؟ وويلَ عينيّ! كيف لا أضمّك إلى صدري لتلقي فوقه أثقل الأحمال؟

آهٍ يا ربا.. أنّى لي ذكر اسمكِ؟ أما عليّ دفنه في أعمق القبور، وإخراج ذكراكِ ووشمكِ من خلايا اللحم؟ أما عليّ أن ألعن الساعة التي حملتْكِ فيها أحشائي، وأسبّ الأوجاع التي أطلقتكِ، وفتحت عينيكِ على الضوء والضجيج؟

ولكن أوّاه يا ابنتي! أيمكن أن تكوني لي غير ذلك، من أجل كلّ ما ذكرت؟ مهما فعلتِ، أيمكن أن أتنكّر لك، أتبرأ منك وأعلن حكم الموت عليك؟!!»

لم تنته مراسيم حداد آمنة بعدُ، فحدادُها الختاميّ لم يبتدئ! أدركت مرامي ناصيف، وتيقّنت أنّه يعدّ لأمرٍ كريهٍ حاذر أن يطلعها عليه، من غير أن يوفّر سانحةً لإخبارها أنّ انتظارها لن يطول، وستفرح بدم قاتل زوجها. بات لا يُطاق، وأحسّت في أعمق أعماقها أنّها فقدته للأبد. تعرف صحّة نسبه، لكنّها تيقّنت بأنّه البذرة الفاسدة في حصادها المرّ.

أدركت أنّ روابطهما تمزّقت شرّ ممزق، وما عاد هنالك ما يعيد إليها اللُّحمة.

وجدت آمنة أنّها دخلت سبات موتها منذ أمدٍ بعيد، بعيدٍ لدرجة أنّها فقدت المسافة التي تحدّده، بدءاً من اليوم الذي رأت فيه - بعد معاناةٍ طويلةٍ وإمعانٍ عميق - أنّ عليها الاختيار بين أولادها وبين عتقها الذي لم تحلم بغيره ولم تعش إلاّ له، فاختارت أولادها، دون أن تكفّ عن اقتناص كلّ فرصةٍ لتعويض أملها المنفيّ من غير جنوحٍ لاستحضاره.

لكنّها اكتشفت أنّها لم تمت، وأنّ ميتةً حقيقيّةً تعترض دربها الآن وقد انشطرت، شطرٌ يسعى لحماية ابنتها والحفاظ على حياتها، وشطرٌ يستمطر اللعناتِ عليها وينادي بقتلها. ودّت لو تستطيع افتداءها، ستفعل إذن دون تردّد، ولكن من سيقبل أو يرتضي؟

«لو عرفتُ أنّها هي من أوّل لحظة، لكان سهلاً عليّ أن أحلّ محلّها. في أسوأ الأحوال كنتُ أرديت نفسي فوق جثّته، ولقالوا: قتَلَتْه وقتلتْ نفسها بعده، ولانتهت الحكاية، مهما حاولت رباب تبرئتي، وسلّطت أضواء الإدانة على نفسها.

هل كنت تفعلينها يا آمنة؟ من دون ريب! فأنا أعيش هكذا، من قلّة الموت، أما رباب فتملك فرصاً كثيرة. لا أدري ما الذي يعدّه ذلك الخبيث الآن! من ستورّط أيضاً يا ناصيف، وأين ستكون ضربتك التالية؟ أما آن أوان طرده الآن؟ ألن يكون في ذلك خيرٌ هناء؟ لطالما حاولتُ جاهدةً إنقاذها من براثنه، لكنّها أبتْ إلاّ أن تقود نفسها إلى حتفها برغبتها وإرادتها. لعلّ انتقالهما إلى المدينة يخفّف من غلوائه، ويتيح لها استعادة قدرتها على السيطرة عليه!!

محالٌ يا آمنة، فهو لن يغادر قبل إنهاء قصة رباب، وإكمال هيمنته على أملاك أبيه. ولكن يا ربُّ، لمَ أفكّر بكلّ ذلك؟ المشكلة الحقيقيّة الآن حماية رباب، كيف أستطيع؟ هل أحذّرها؟ كيف سيكون موقفها؟ هل تستطيع مقابلتي، وهل أستطيع أنا؟ حتى لو بلّغتْها راوية، فهل ستقتنع أنّ أمّها تحاول حمايتها، وفي الوقت نفسه تطالب بالاقتصاص منها بعدما أهدرت دمها؟!»

لم يهدأ ناصيف ولم يكلّ، فمنذ البداية اصطدم بعادل. كان الخلاف حول رباب مسألةً ثانويّةً. في كلّ الحالات هي منتهيةٌ لا محالة، هذا ما رآه عادل وتيقّن منه. ليس مهمّاً بعد ذلك كيف ستكون تلك النهاية وعلى يد من! أمّا المشكلة الحقيقيّة، فقد تولّدت حول حسين، وعاد لهيبها ليذكي ناراً اندلعت حول رباب وخمدت إلى حين.

في الأيّام الأولى، اتّخذ عادل موقفاً متحفّظاً، ظاهره الحياد وباطنه الانحياز لصفّ رباب:

ـ حسنٌ، لقد أخطأتْ، والقضاء هو من سيجعلها تدفع الثمن.

تمهّل ناصيف قليلاً، ثم تحدّث بصوتٍ راجفٍ حاول أن يسيطر عليه:

ـ اسمع يا عادل، لن أنتظر من الحكومة أن تشنقها ـ إن فعلت ـ بعد سنتين أو ثلاثٍ فتعيد التذكير بالفضيحة وتعاود نشر رائحتها المنتِنة. هي ثأرنا نحن وضالّتنا نحن، علينا دفن تلك الحكاية في أقرب وقتٍ وإنهاؤها إلى الأبد.

ـ أيّ أبدٍ يا ناصيف؟ حسين في السجن، وعلى الأرجح سيُعدَم رغم تعهّدك بالحفاظ على حياته! الوالد مضى، رباب ستمضي، لمَ نقضي على شخصٍ رابع؟ أتريد أن نخسر أكثر من ذلك؟

التقط ناصيف رأس الخيط وحاول أن يحافظ عليه :

ـ قلتُ لك إنّ حسيناً سيعيش ، فرغم كلّ ما فعل ، يبقى شقيقي . ألا تكفيك كلمتي؟ انزع هذا الموضوع من رأسك! فوق ذلك ، لن يحكموا بالموت على قاتل رباب ، ستبقى قضيةَ ثأر .

احتدّ عادل :

ـ أيّ ثأر؟ أخٌ يثأر لأبيه بقتل أخته! وعلى فرض ، هل تستدعي المسألة سنواتٍ من السجن؟

آنها ، فقد ناصيف السيطرة على أعصابه ، فصرخ الصوت المخنوق في جوفه :

ـ لقد كنتَ دوماً تفتقر إلى النخوة ، وهاأنت الآن تُثبِت ذلك!

ـ إذن ، اذهب أنتَ واقتلها جهاراً . لماذا تريد توريط وتحريض نوآف ، أو دفعي أنا لفعل ذلك؟ هل يُعقَل أن تترمّل زوجته ويتيتّم أطفاله أيضاً ، أو ينتظر سنواتٍ إلى حين خروجه؟ افعلها أنتَ . . . افعلها أنتَ أيّها الشهم!

ردّ ناصيف ساخطاً :

ـ لن يحدث ذلك أيها الغبيّ . سندفع وسيماً لفعل ذلك ، لا تنسَ أنّه صبيٌّ ، ولن يوقفوه أكثر من أسابيع!

ذُهِل عادل ، فما خال يوماً أنّ ناصيف يمكن أن يفكّر على هذا النحو المنحطّ :

ـ هكذا إذن! ستصِمُه بعار قتل أخته التي يحبّها أكثر من أمه ، وتجعله ملاحقاً بدمها طوال عمره!! لقد كان لتعليمك آثارٌ فذّةٌ على طرائق تفكيرك!!

ـ اخرس! ما عادت أختَه الآن!

ـ كانت أختنا . . وستبقى .

ـ إذن عليها ألاّ تكون . عليها أن تموت . هل تفهم؟

هدأت العاصفة إلى حين . أراد عادل كسب وقتٍ إضافيّ :

ـ أقنع وسيماً إن استطعت إذن ، أمّا أنا فلن أشارك في ذلك أبداً .

لم يتراجع ناصيف قيد أنملة :

ـ سيفعلها رغم أنفه ، وستشارك أنتَ أيضاً طوعاً أو كُرهاً ، وإلاّ جعلتُك تجوع مثل الكلاب ! تذكّر ما يحدث لزينب وأولادها ، فقط لأنّ السيّد زوجها أراد اعتراض طريقي . وإن لم تمتثل ، فدَع راتبك إذن يطعم زوجتك وأطفالك ! !

ـ تريدها معركةً يا ناصيف؟

هدأ ناصيف أخيراً وقال ببرودٍ تامّ :

ـ لا أريدها ، ولا أسعى إليها ، طالما بقينا إخوة !

تلفّت عادل حواليه ، فاكتشف إحكام عزلته . أبصر عن قرب ، وقد فتحت الصدمة جفنيه المطبقيْن ، كم كان بعيداً ، وكم ساهم إغراقُه في أوهام همومه العامّة ، وتفريغ وقته لتلاميذه ومشكلات الناس ، في تدمير بيت أبيه . «أيّها الغبيّ» ألم يكن ناصيف منصفاً؟ تفرّغتَ لكل الناس وكرّست نفسك لمشاكلهم ، وقد نسيتَ أو أهملت أنّ عجزك عن حلّ مشكلاتك الخاصّة معيارٌ أساسيٌّ لقدرتك على معالجة مشكلاتك العامّة ! أرحتَ نفسك من التفكير بمتطلّبات عيشك ، وهاهو ناصيف يوقظك اليوم من سباتك ، ويسألك إن كنتَ قادراً على تأمينها بمفردك ، أو تدبُّر الحدود الدنيا من احتياجات أسرتك . هاأنت اليوم رهينةٌ بين يديه ، يمسك بعنقك ويلوّح بمعاش أطفالك ، ضاغطاً ساعة يشاء وكيف يشاء ! أيّها المغفّل

الكبير والمتبجّح الأكبر، كيف سمحت لنفسك بأن تنسى حسيناً وأطفاله وزوجته، وتتركهم جميعاً لقدَرهم الغاشم الذي يحرك ناصيف خيوطه؟»

ورغم تصدّعه، فقد تحامل على انهياره وسعى لرؤية زينب. لكنّ الظروف الملمّة أخّرته حتى أتت وصية رباب على لسان راوية، فذهب لرؤيتها. أدمى فؤادَه البؤسُ الذي تحياه وأطفالها، أخبرته بزيارة ناصيف لها، وكيف هدّدها بأنّها ستفقد زوجها، وستحتفل الشوارع باستقبالها وأطفالها، ما لم تذعن وتقنع حسيناً بالتنازل له عن إرثه. «أيّ وحشٍ بشري!» خاطب عادل نفسه وهو يصغي إليها، وهي تتابع بأنّ ناصيف أمرها أن تطلب من حسين، إن رفض ذلك، أن يطلّقها!

ـ لكنّني أبيتُ ذلك، فهدّد بأنّه سيمنع عنّي لقمة الخبز، ولن يطول الأمر بي حتى أعرض جسدي للبيع!

ـ حسنٌ يا زينب، لقد انتهى كلّ ذلك. عليكِ أن تلملمي أغراضك وتمضي معي إلى البلدة.

ـ لا يا عادل، مكاني قرب زوجي، ولن أرحل قبل خروجه من السجن.

ـ طيّب يا زينب، سأرى حسيناً واسأله أن يأذن لكِ بالعودة. في الوقت الحاضر، خذي هذا المبلغ، تدبّري أمورك به حتّى نرى ما الذي سنفعله.

ـ لا، شكراً لك يا عادل، لقد تحنّن الله عليّ ولم ينسَني من رحمته، وأراد لي التخلّص من وصاية ناصيف وتحكّمه، وحاجتي أنا وأطفالي إليه. أرسلت رباب الطاهرة ـ الله يرضى عليها ويخفّف عليها بلاءها ـ مبلغاً كبيراً مع صديقتها راوية الحنونة، لكنّني لم أجرؤ على التصرّف به قبل استئذان حسين، ولا أظنّه سيرفض، أليس كذلك؟

ـ بالطبع يا زينب، لن يرفض.

لم تُضع راوية الوقت سدىً، فقد كانت أكثرَهم إحساساً بمداهمته. ظلّت تراهن على أنّ آمنة هي الوحيدة التي يمكن لها دفع رباب للقبول بتوكيل محامٍ يدافع عنها.

كانت تخاطب آمنة، وقد عانقت بيسراها وسيماً الصامت الحزين، محاولةً إقناعها بضرورة قيامهما معاً بزيارة رباب حين دخل ناصيف فجأةً:

ـ الآنسة راوية تُكثِر زياراتها لنا. عساه خيراً؟

واصلت آمنة إطراقها، لكنّ راوية هاجمت سريعاً:

ـ نعم هو خير، فحياة رباب تبدو لي كذلك.

ضحك ناصيف بسخرية:

ـ هذا شأنك، وما الجديد؟

تأنّت راوية. وفي سريرتها تساءلت عمّا يدور في رأسهن ثمّ قالت:

ـ الجديد أنّه صار متاحاً لمن يرغب في الوقوف إلى جانب رباب بزيارتها.

شحب وجهه قليلاً، إلاّ أنّه تابع:

ـ لقد أخطأتِ العنوان يا آنستي. لا يقطن من تبحثين عنه هنا!

أجابت راوية بحزم:

ـ لم آتِ لزيارتك.

ضبط ناصيف أعصابه:

ـ ولن تجدي أحداً يستقبلك!

ـ قد يكون لأمّكَ رأيٌ آخر!

نظر ناصيف إلى أمّه وقال بخفوتٍ آمرٍ:

ـ هل ستزورين المجرمة؟

رفعت آمنة رأسها للمرّة الأولى وتملّته بتحدٍّ، ثم أجابت بخفوتٍ مماثل:

ـ هذا ليس شأنك!

احتدّ ناصيف:

ـ هل أسكرتك تلك الحيّة بسمّها؟

حدجته آمنة بنظرةٍ قاتلةٍ وهمست:

ـ اخرج من غرفتي.

لكنّه اهتاج واتّجه نحو راوية:

ـ اسمعي يا شريكتها؛ إن عدتِ ثانيةً، فلن تجدي ساقين ترجعانك إلى منزلك.

والتفت نحو أمه:

ـ ما من أحدٍ سيزورها، وإن حاول أحدٌ، سأقتله قبل أن يتخطّى عتبة الدار.

اندفع خارجاً، وكأنّما احتاجت آمنة ذلك التّحدي فقامت. غيّرت ثيابها وقالت لراوية:

ـ هيّا بنا!

نهضت راوية قائلةً:

ـ ووسيم؟

ـ لا، وسيم سيزورها في وقتٍ آخر!

أمام بوّابة البيت وقف ناصيف قرب نوّاف الذي أشرع مسدّسه. طلبت آمنة من وسيمٍ الرجوع إلى الغرفة وهتفت:

ـ هيّا يا أبنائي، ألحقوني بأبيكم!

مشت بثبات متكئةً على ساعد راوية، فما كان من ناصيف ونوّاف إلاّ أن أفسحا لها الدرب.

حالما غادرتا البوّابة، همست راوية مرتاعةً:

ـ أما كان علينا اصطحاب وسيم؟ لقد سألتْني عنه مطوّلاً.

ـ لا يا راوية، كان المجنون سيقتله دون تردّد!

ازداد فزع راوية:

ـ أيمكن أن يفعلها؟

تأمّلتها آمنة قائلةً:

ـ عليكِ أن تُدهشي لعدم إطلاق النار عليّ!!

تساءلت راوية في سريرتها إن لم يكن ثمّة مسٌّ وراثيٌّ انتقل لأفراد الأسرة جميعاً. لكنّها تداركت، «قد يكونون ممسوسين جميعاً إلاّ رباب، حتّى في فعلتها لم تبدُلي مجنونةً أبداً. لقد عانت كثيراً، وأتعبها تفكيرها وإصرارها أن تكون شيئاً مخالفاً للسائد، فأوصلتها شدّة حساسيّتها، ونزوعها لإخضاع نفسها لعقلها ولما تراه صحيحاً، إلى نهايتها. لربّما أفجعها اكتشاف كونها غير جديرةٍ باسمها، فأفلتت تراكمات الغضب والقهر، وكان لحرائقها أن تندلع في موقعٍ ما!!»

رغبت بالتحدث إلى آمنة، لكنّها أحسّت أنّ المسكينة انتحت جانباً وراحت تتنازعها أفكارٌ متنافرةٌ وذكرياتٌ متضاربة، فأبت أن تقطع عليها نجواها. «علّها تجلو ما علق بنفسها من شوائب تجاه ابنتها. كان الله في عونها، كم سيكون لقاؤهما قاسياً! ولا أدري إن كانتا قادرتين على احتمال وطأته، لكنّه ضروريّ، فلربّما حفزّ آمنة على الوقوف بصلابةٍ في وجه ناصيف. سيكون منعه صعباً، لكنّها تملك على الأرجح قدرة إعاقته.»

أساءت راوية التقدير، فما كان هنالك في الواقع قدرةٌ تعيق ناصيف وتبعده عن هدفه، ولن يسمح، لا لأمّه ولا لغيرها، بإبعاده عنه. جنّ جنونه حين أبصر أمّه ماضيةً، رغم معارضته، لزيارة رباب، فأطلق غضبه على نوّاف الذي احتمله بصبرٍ عجيب:

ـ اصبر يا أخي. ودمِ أبي، لن تمرّ جلسة محاكمتها الأولى دون أن أُفرح قلبك بنبأ قتلها!

التفت إليه ناصيف، وقد خمدت ثورته فجأةً، والتمع كبرقٍ في عينيه مخطّطُ قتل رباب.

ـ باركك الله يا نوّاف، لكنّك لن تكون الفاعل. هي لا تساوي ما يعادل تضحيتك بسنواتٍ من عمرك في السجن. اترك ذلك عليّ، وأنا من سيبرّ بقسمك.

وتابع لنفسه، «كيف لم تلتفت لذلك أيّها المغرور الذي يُعمي غضبُه بصيرتَه وبصرَه معاً؟ دعها تزورها، ما المشكلة في ذلك؟ على العقربة الخبيثة أن تطمئنّ، وتحسب أنّنا عفونا عنها. لتذهب أمّها إليها، وليذهب وسيم كذلك، فمن غيره سيضع رصاصةً في قلبها الخائن؟ لن تشكّ به أبداً، بل ستطمئنّ لملاقاته وينتهي أمرها بأسرع مما توقّعت.

ليذهب عادل ونوّاف وهناء وآمنة إلى الجحيم. سأنتهي من رباب لأتفرغ للبغل الآخر. لئن وصلتْ عنده التضحية حدّ رمي زوجته وأطفاله لكلاب الشوارع لتنهش لحومهم، فهو لا يستحقّ العيش، ويكون قد وقّع بيده حكم إعدامه. كلّ ما سأفعله امتناعي عن التوسّط له. بعد ذلك كلّه ستصير حرّاً يا ناصيف، وتحقّق ما تُقتَ إليه منذ سنوات!!»

وكذلك أخطأت راوية في تقدير قدرة آمنة على زحزحة رباب عن موقفها!

فصل بينهما شبكٌ حديديٌّ ضيّق الفتحات. وقفت آمنة تنتظر متململةً، تمسك الأسلاك بأصابعها، متشبّثةً بها خشية أن تجد نفسها وقد خضعت فجأةً لدفع قدميها المتوثّبتين للتراجع نحو الخلف، والعودة سريعاً دون رؤية الابنة القاتلة!!

في الغرفة الأخرى، وقبيل أن تخرج رباب لرؤية أمّها، هيّأتها راوية ورَجَتْها أن تقدّر موقف أمها، وتحتمل ردود فعلها المتوقّعة:

ـ رباب، لا تنسي أنّها أمّك مثلما هي زوجته، وهي منهارةٌ، عكس مظاهر التماسك والهدوء التي تغلّف قسماتها. تذكّري أنها تخضع لضغوطٍ هائلةٍ من ناصيف، وقد منعها من القدوم، إلاّ أنّها أبتْ، وأتتْ رغم أنفه.

ـ ووسيم؟

ـ لقد منعه كذلك، ولم ترغب أمّك بتعريضه للأذى والخطر!

ـ أعرفها جيداً يا راوية، فهي تحتمل ضغوطاً لا يحتملها البشر، لكنّها لا تخضع لها البتة. صدّقيني، لا أدري إن كنت أستطيع مواجهتها أو النظر في عينيها.

ـ حاولي يا رباب، ستكون الصعوبة في اللحظات الأولى وحسب، وسيكون كلّ شيءٍ على ما يرام. اطمئنّي وتشجّعي.

صمتت رباب قليلاً ثم تمتمت:

ـ ألم تخبري حسّاناً؟

سارعت راوية للقول:

ـ دعيكِ منه الآن، أمّك تنتظر!

ألحّت رباب:

ـ راوية، لم يحضر لزيارتي. ألا يفكّر بأنّني ربما فعلتُ كلّ ذلك من أجله؟ ألا يخطر بباله أنّني ربما فديته بأبي؟ هل كان يظنّ أنّهم سيتركونه بحاله لو هربنا معاً كما أراد؟!

حاولت راوية إخفاء امتعاضها الصارخ:

ـ رباب، انسي حسّاناً، اعتبريه غير موجود، حلماً وقد استيقظتِ منه الآن!

مسحوقةً حتى نهايات روحها، هتفت رباب:

ـ كيف أفعل يا راوية؟ إذن دعيني أستيقظ لأرى أنّ كلّ ما حدث ليس سوى حلم!!

ضاقت راوية ذرعاً:

ـ لا أريد تشويه صورته في عينيك!

ـ ماذا؟

وجدت راوية أنّه حان وقت إنهاء تلك الحكاية:

ـ إذن عليك أن تصحي؛ حسّان مجرّد نذلٍ جبان، مثلما كان دوماً من وجهة نظري. لقد تخلّى عنك مباشرةً، وحمد الله أنّه لم يرتبط بك، وتساءل: إن قتلت أباها، فما الذي يمكن أن تفعله بي؟!

انكفأت رباب، فخيط الوهم الأخير الذي تمسّكت به، وأرادت أن يكون آخر شعاعات حياتها، تبدّد مثل ضباب الصباح، وخيّم بدلاً منه كسوفٌ أطبق على روحها، وتمنّت أن تتبخّر في حلكته وتصير بعضاً من سواده!

في طريقها لملاقاة أمّها، تعثّرت بخطواتها، وكادت تتراجع مع كل خطوةٍ وتعود راكضةً إلى غرفتها المعتمة. لكنّها وعدت راوية، وعليها أن تخضع لتلك التجربة المريرة وتجرع كأسها حتى الثمالة.

تقدّمت مطرِقةً، حتى التصقت بمعدن الشبك، دون أن تجرؤ على رفع عينيها وملاقاة أمها. حتى راوية لم تجد الشجاعة الكافية لتنبيه الأم لوصول ابنتها، فانتظرت معها. مضت برهةٌ طويلة، قطعتها رباب برفع عينيها ببطءٍ شديدٍ فاصطدمتا بأصابع أمها التي ابيضّت من شدّة ضغطها على الحديد البارد. أشفقت على نفسها وعليها، ودون إرادةٍ منها أمسكت الأصابع بكلا كفيّها وانهمرت دموعُها وقبلُها فوقها وهي تنوح:

ـ سامحيني يا أمي... سامحيني يا أمي!

لم يهتزّ جفنٌ في تمثال آمنة الصخريّ، أمّا روحها فقد انفطرت وكاد اللحم يتصدّع عنها!!

فجأةً، ودون سابق إنذار، انسحبت رباب مجهشةً راكضةً دون أن تلتقي عيناها بعيني أمها أبداً. وحالما اختفت، تداعت آمنة وانهار بنيانها، راحت تنتحب بصمت.

وبصمتٍ حكت عينا حسين الكثير دون أن تبوح شفتاه بشيء. كان يصغي ويصغي لعادل، وأخيراً خرجت الكلمات رصاصاتٍ اخترقت قلب أخيه:

ـ لِمَ لم تزرها يا عادل؟

تمتم عادل متهرّباً:

ـ لا أستطيع، لا أستطيع يا حسين، لا أستطيع للحظةٍ أن أنسى قتلها لأبيها!

ـ رغم إدراكك ضمناً أنّها ضحيّة؟

ـ ذلك لا يغفر لها يا حسين ولا يبرّر. رباب تفكّر، ليست جاهلةً أو عمياء أو غبيّة. وعيُها يزيد في إدانتها.

ـ لكنّها لحمنا ودمنا. هو نفسه سامحها، فلمَ لا نفعل نحن؟

ـ لا أدري يا حسين، لا تحمّلني فوق طاقتي، يكفيني أنّني أحاول ألا يكون هنالك ضحيةٌ أخرى. وربما ضحايا!

ـ هل جنّ ناصيف يا عادل؟

ـ بالله عليك، قل متى كان عاقلاً. هل تصدّق أنه بات يشفي غليله بضرب وإهانة هناء؟ الربّة التي ما كان يسمح لأحدٍ أن يصافحها بعينيه، صارت مفرغ شحنات غضبه اليومي. والأكثر مدعاةً للدهشة والشفقة، أنّها لا تحتجّ ولا تعترض. وكما قالت أمّك: تتلقى الضربات التي تنهال عليها بصمتٍ ولا تطلق صرخةً واحدة، ممّا يتسبّب باستعرار جنونه حتى يُدميها!

ـ كان الله في عونها. لمَ لا تذهب لبيت أبيها؟

ـ لقد نصحتْها أمّك، لكنّها أبتْ!

صمت حسين قليلاً ثم قال:

ـ كم تغيّر في السنوات الأخيرة! أم ترانا نحن من تغيّر؟

تطلّع عادل في عيني أخيه، وخلال الشبك الحديديّ المزدوج، حاول أن يمسك عينيه من غير أن تقاطعهما الأسلاك المتداخلة، ورأى أسىً يمتصّ التماعهما فحكى دون توقّف:

ـ الظروف هي التي تغيّرت يا حسين، وقد عرف كيف يغيّر جلده ويتلاءم معها حتّى تخاله جزءاً منها، لكنّه لا يعدو أن يكون عبداً لها، فالذين يشاركونه أموالهم ونفوذهم لا يعدّونه أكثر من تابعٍ ذليلٍ لهم، يبيعونه ويشرونه ساعة يشاءون كأيّة سلعةٍ أو أداةٍ مستهلكة النفع. ونحن كذلك لم نتغيّر، بقدر ما بقينا خاضعين للظروف القديمة، دون أن نعي تغيّرها! أوحت لنا نزعاتنا الفرديّة المتأصّلة أنّ بمستطاعنا تحقيق خلاصنا

كلٌّ بمفرده، وتمرّد كلٌّ منّا على هواه! فخسرنا جميعاً أنفسنا وصرنا ضحايا، خرافاً تقاد إلى المسلخ وهي تثغو كأنّها ذاهبةٌ لمرجٍ أخضر. كان علينا أن ندرك أنّ تلك التغيّرات لن تسمح لنا بالدفاع عن أنفسنا إلاّ إن واجهناها مجتمعين. مضى كلّ شيء.. دفعنا ثمناً غالياً.. وعليك الآن أن تصمد!

ـ عادل، أنت تعلم أنّني أصلب من صخر. لم يحطّمني ويكسر ظهري إلا خوفي على زوجتي وأبنائي!

ـ إذن لا تدعهم يشغلون فكرك، سآخذهم إلى بيتي ويبقون هناك، أختاً لي ولزوجتي وأشقاء لأبنائي. لا تهتمّ بذلك أبداً يا حسين.

كاد حسين يجهش، لكنّه تماسك:

ـ حسنٌ يا عادل، اعتنِ بوسيم ولا تتركه يبتعد عن عينيك!

ـ سأفعل يا حسين، سأفعل.

ـ إلى اللقاء إذن، قبّل يد أمك عنّي واسألها ألاّ تنساني من الدعاء.

ـ سأفعل، إلى اللقاء.

دخلت آمنة غرفتها، وقد نسيت أصابعها متشبّثةً ببرودة الشبك المعدني تدعوها لعودةٍ سريعة. إلاّ أنّ منظر هناء استردّها من غيبوبتها، فاندفعت نحوها وانحنت فوقها، تمسح دمعها ونزف جروحها وأنين روحها. أرادت أن تنادي وسيماً ليمدّ لها يد العون، فوقع بصرها عليه منكمشاً على كرسيٍّ مجانِب، واضعاً ذقنه بين كفّيه، مأخوذاً بالشاة نصف الذبيحة المستلقية بين يدي أمّه المرتجفة والمصعوقة!

ـ وسيم، أحضِر قطناً وشاشاً من الخزانة، وزجاجة المطهّر.

قام وسيم متثاقلاً كأنّما يتحرك في نومه، بينما التفتت هي لهناء:

ـ أما حذّرتك يا هناء؟ أما قلتُ لكِ أنّ مقامك عند أهلك خيرٌ لك؟ لا زلت شابّةً يا ابنتي. صدقّيني، نجاتك الوحيدة هي الرحيل!

ومن أعماق مهانتها وأوجاعها، أنّت هناء:

ـ لا أستطيع يا امرأة عمّي، لا أستطيع. أبي يرفضني، كأنّما اتفقا كلاهما عليّ، كأنّه باعني وقبض ثمني. سُدّت الأبواب والنوافذ في وجهي، ولا أرى غير شبح الموت يلاحقني ويناديني. ما عاد لي خلاصٌ سواه!

ـ اهدئي يا ابنتي، الله كبير، وسينتقم لك ويرأف بحالك!!

ابتسمت هناء رغم أوجاعها:

ـ سيرأف بحالي إن عجّل بنهايتي وخلّصني من تلك الحياة الكريهة، أو وهبني شجاعة التخلص منها!

لكنّ آمنة لم تبتسم أبداً. ماتت الابتسامة على شفتيها مثلما ماتت في قلبها! ليست هي من ماتت فيه وحسب، بل كلّ خلاياه، فما عادت تستشعر وجعاً أو فرحاً. وخزٌ مستمرٌ كعضّةٍ دائمةٍ لا تمضي ولا تتوقّف، يتردّد كأنّما يذكّر بوجوده الدائم. «كم هي ضعيفةٌ وهشّةٌ هناء تلك! لا تحتمل، فتبادر في قهرها للتفكير بالموت واستدعائه بصورٍ شتّى، طبيعيةٍ أو اصطناعيّة، لكنّها تعلم علم اليقين أنّ الموت لا يستجيب لذلك النداء، وتعلم أنّ استجلابه بالقوّة يستدعي إرادةً عنيفةً وحازمة، لا تتردّد ثانيةً واحدة، وإن تردّدت، صار الموت الجميل بشعاً كريهاً، تفوح روائح عطنه في كل مكان!»

وهي كذلك لم تستسلم، لم تفعل مثل هناءٍ، ولم ترَ خلاصها يأتي على صورٍ مشابهةٍ لما يدور بذهنها. ظلّت وفيّةً لكلا شطريها، حين تيقّنت من استحالة مصالحتهما. ولأنّهما لا يقبلان اتّحاداً أو التحاماً أو انصهاراً،

قرّرت أن تمنح كلاً منهما حقّه المفروض عليها، وواجبها الملزِم تجاهه.

لكنّ الذي لم تستطع أن تقرّره أبداً، التضحية بوسيم وتدمير بواكير حياته وتسميم دمه إلى يوم مماته. ومع ذلك، فقد قبِلته مرغَمةً، أحستّه الأمر الوحيد الذي خضعت له في حياتها، وأملاه عليها شيءٌ مخالفٌ لطبيعتها، مخالفٌ لعقلها!

ودّت لبرهةٍ لو عادت فتيّةً، إذن لحزمت أمرها، فإن لم يكن هنالك بدٌّ من قتل رباب، وإن كان في ذلك خيرٌ لها ولأسرتها، لربّما.. لربّما استطاعت قتلَها بيديها وحملت دم البنيّة في عنقها. أمّا الآن، فما عاد لها أن تتقدّم أو تتراجع أكثر أمام منطق ناصيف الضبابيّ والحديديّ في الوقت نفسه، وما عاد صمتها يُجدي في ثنيه عن تحقيق بغيته. وهاهو يُخضع روحها في نهاية المطاف!

«لو اكتفى بليّ ذراعي، لهان الأمر حتى لو تحطّمتْ. لكنّني أراهم جميعاً يمضون.. يتبدّدون كأشباحٍ أمامي، كأنّهم ما كانوا يوماً، ولا كنتُ. الحقيقيّ الوحيد والصلب الباقي هو وسيم، ويريدون منّي أن أبدّده بيديّ، أُصليه ناراً حاميةً ثم أذرو رماده في هواءٍ عاصفٍ!!!»

سماءٌ رماديّةٌ واضحة. غافل الخريف الطقس فداهمه على حين غرّة، شرع يدفع بريحٍ مبكّرة سحاباتٍ رقيقةً غطّت السماء، من غير أن تمنع الشمس عن إعلان حضورها الخفيّ... ورغم ضجيج الشارع، والضوضاء التي تثيرها السيّارات والحافلات العابرة، وأصوات الباعة الذين ينادون على بضائعهم المرصوفة بعنايةٍ فائقةٍ على عرباتهم أو على أغطيةٍ مُدّت فوق الرصيف على عجلٍ، فإن وسيماً لم يكن يسمع ساعتها سوى قرعٍ عنيفٍ ينطلق من أعلى صدره، وينتقل على شكل موجاتٍ

تغزو كيانه وتتفلّت بصدىً عميقٍ وشديدٍ خارج خلاياه، فتملأ أذنيه وتدفعه للهرب بعيداً، لولا قبضتي أمّه المتشبّثتين بكتفيه بقوةٍ تكاد تنتزع لحمهما وعظمهما معاً عن جسده. وبين نزوعه للهرب، واضطراره للثبات، راح جسده يرتعد على شكل انتفاضاتٍ متباعدةٍ كقلب ضفدعٍ انتُزِع من جوف صدره، وتُرك ليوالي نبضه على مهلٍ متخامدٍ. . .

وقف ينتظر وأمُّه، قريباً من بوّابة المحكمة التي تنحدر على درجٍ رخاميٍّ عريض، وقد بدأت استعداداتٌ ملحوظةٌ لتأمين حماية حياة موقوفٍ ما، عبر انتشار أفراد الشرطة وتشكيل ممرٍّ من أجسادهم يصل لسيّارةٍ تقف منتظرةً جانب الرصيف. التفت رغم إرادته، عابراً الشارع العريض ببصره نحو زاويةٍ مقابلةٍ على نحوٍ مائلٍ للمبنى الذي يقف بمحاذاته، فلمح ناصيف ونوّافاً يقفان متصالبيْ الذراعين، يُمعنان النظر وراءه، منتظريْن خروجها وهما متحفزّان!!

بحث عن عادل، فلم يقع بصره عليه. «لا بدّ أنه متوارٍ في مكانٍ ما، يشاهِد دون أن يشاهَد! لمَ تحاشيتني يا عادل طوال الأيّام السابقة؟ بحثتُ عنك في كلّ مكان، واضطررتُ للبقاء طويلاً في بيتك لأراك دون أن يظهر لك أثر! وحين تأتي بيتَنا وأشعِركُ بحاجتي لرؤيتك منفرديْن، تتذرّع بألف حجّة، وتمضي دون أن أتحدّث إليك، وأنتَ تواعدني مسوِّقاً: فيما بعد، مساءً، صباحاً، غداً. . . وهاهي الظهيرة تعلن ميقاتها من غير شمسٍ ولا أراك!» داهمته تجربة الأمس كأنّما تحدث الآن فانكمش مروَّعاً. . .

بقي ناصيف يتحدث إليه ساعاتٍ، يحشو رأسه بما لا يفقه منه شيئاً، سوى دموية عينيه، وتردّدات صوته التي تعلو حتى تصير زئيراً، وتنخفض حتى تحاكي فحيح أفعى حوصرت فحاولت إرهاب محاصرِها والتهويل

عليه، مترافقةً مع هزآتٍ عنيفةٍ تنخع جسده الغضّ، مستثيرةً نخوته ورجولته، وتربيتاتٍ مداهنةٍ، تتضرّع وتتوسّل قبولَه وموافقتَه. . . حكايا كثيرةٌ عن إرث الأجداد، والصخور التي تأبى الهوان، وعن الشرف الذي لا يسلم إن مُسّ إلا بغسلٍ ماؤه الدم. . عن أبيه الذي أُهين، ولم تراعَ، لا أبوّته ولا شيبته ولا عجزه ولا مقامه بين الناس، وأنّ الرجل يضحّي بالغالي والرخيص في سبيل كرامته، وكيما تبقى هامته منتصبةً ورأسه مرفوعةً، وأنّ الغدر والخيانة داءٌ لا علاج له سوى الموت كي يمحى أثرُه ويزول ذكره، وأنّ من يتجرأ على دمه وعلى من وهبه الحياة، لا يستحقّ دمَه الجاري في عروقه.

ـ هل ستسكت يا وسيم إن قتلتُ أمّكَ؟ ألن تثأر لها وتقتصّ منّي إكراماً لها؟ هل تذكر ما قالته أمك، أنّها لن تهدأ ولن تنام ولن تبكي أباك، إلا بعد رؤية دم قاتله؟

أشياءٌ كثيرةٌ جعلت دمَه يجيش فيعلو موجُه وينخفض، وتتلاحق أنفاسه متواثبةً، صاخبةً حيناً وخامدةً هامدةً في أحيانٍ أخر، لكنّ أخاه لم يخبره أبداً بما عليه أن يفعله، ولم يجرؤ هو على سؤاله. سيُدفَع أولاً للتجربة التي أعدّها ناصيف بكلّ عنايةٍ على يدي نوّاف، ليملي عليه صباح هذا اليوم ما يتوجّب عليه فعله، وقد هيأه نواف لتلقّيه دون اعتراضٍ أو نقاش!

أخذه نواف من يده مساءً، عاصراً كفّه الليّنة بقبضته الضخمة القاسية، وقاده دفعاً لإسطبل هبوب!

«دُهشتُ لأول وهلةٍ وفزعتُ! ما الذي يبغيه نوّاف من دفعي نحو هذا المكان الخالي؟ أذكر تماماً أنّ رباب أطلقت سراح هبوب فجر غيابها. هل يريد جلدي؟ أيسعى لترويضي؟» تقصّفت ركبتاه وكاد يتساقط، لكنّه

شجع نفسه، «لا يمكن لناصيف أن يسمح له بمعاملتي على هذا النحو.» ومع ذلك، كاد الرعب يدفعه للاستغاثة بأمّه، قبل أن يدرك ما أُعدّ له فعلاً!

في العتمة لم يميّز شيئاً. لكن منخريه اشتمّا رائحةً واخزةً، وطرقت أذنيه أنّاتٌ خانقةٌ زادت رعبه، وعلى النور البرتقاليّ المنتشر من مصباحٍ أشعله نوّاف، اصطدمت عينا الفتى بمُهرٍ مستلقٍ على جانبه. «هبوب!» قال في نفسه، وقد عرفها من غرّتها التي توسّطت جبينها، وصرخ رغم إرادته:

ـ ماذا فعلتم بها؟

اندفع نحوها، ناتراً يده من قبضة نوّاف، واستلقى جانبها، محتضناً رأسها الذي يسيل الزبد والدّم من شدقيه، وقد مسّ بدنَه نزفُ لحمها. انتزعه نوّاف من موضعه:

ـ لا تبكِ أيها الأحمق، هل ستبقى ولداً؟ بتَّ رجلاً، والرجال لا يبكون!

كفكف وسيمٌ دمعه، وراح يتملّى الجسد المضرّج والمحزّز بآلاف السياط وهو يختلج اختلاجات نزعه الأخير. لم تسبِل جفنيها، بل تطلّعت بليل عينيها المنطفئ إلى وجه وسيمٍ الشاحب يائسةً، تستصرخه صامتةً أن يُنهي عذاباتها. حاولت أن تنهض لاستقباله، لكنّها لم تستطع إلاّ التململ بضعفٍ، مفتقدةً القوّة اللازمة للصهيل. غمغمت، والتمع دمع عينيها! بينما صاح نوّاف بسخريةٍ متوارية:

ـ مريضةٌ كما تراها!

استحال رعب وسيمٍ غضباً، لم يدر كيف حلّ به، وصاح:

ـ ليست مريضةً، لقد جلدتَها حتى كدتَ تقتلها.

بحث بعينيه ووثب نحو السوط، رفعه بيده وتلمّسه، فأحسّ رطوبة دمٍ لم يجفّ بعد، وتساءل متحسّراً، «كيف لم أسمع صهيل عذاباتها واستغاثاتها؟» اتّجه نحو نوّاف ودفع السوط أمام وجهه:

- مريضةٌ، أليس كذلك؟

ضحك نواف:

- الآن هي مريضة. قبل ذلك نالت عقاب جحودها، وتنكّرها لمن أطعمها وسقاها، وأولاها عنايته وعطفه واهتمامه، فدفعت ثمن هروبها فجراً مثل اللصوص والقتلة!!!

ارتعش وسيم، «لأيّ شيءٍ يومي؟ ما الذي يرمي إليه في تلميحه؟!» على حين غرّة، ركلها نواف في بطنها بقسوةٍ وانتفضت بعنف، وغصّت بصهيلٍ خرج دفقةَ دمٍ من حلقها، فهجم وسيمٌ عليه، ودفعه عنها من غير أن يقدر على زحزحته:

- ابتعد عنها! ألا يوجد في قلبك شفقةٌ أو رحمة؟

أظهر نوّاف سخطاً متعمَّداً، وقال ناهراً:

- بلى عندي، إنّما للّذين يستحقون، أما هي فلا!

- أما تراها تنازع؟ أتزيد أوجاعها بدل التخفيف عنها وإراحتها؟

هتف نوّاف:

- وكيف أفعل برأيك؟

أجاب وسيم متسرّعاً:

- اقتلها، أرحمُ لها!

أصرّ نواف:

- هل في قتلها إراحةٌ لها من عذابها وآلامها و...

تمهّل قليلاً وتابع :

ـ ومن وجعِك عليها أيضاً؟

تابع وسيم اندفاعته الرعناء :

ـ نعم، نعم من كلّ ذلك .

ففاجأه نواف بمسدسٍ استلّه من خصره، سارع لتلقيمه، ثم قدّمه له :

ـ خذ، أرِحْها أنت إذن! طلقةٌ في الرأس وترتاح إلى الأبد!

لم يفكّر وسيم، أمسك المسدس واتّجه صوب رأس هبوب. تردّد لحظاتٍ، أقدم ثم أحجم، لكنّ الصوت المقيت لم يمهِله :

ـ هل أنت خائف؟ إنها تتألّم وتسألك إيقاف أوجاعها!

لم يلتفت وسيم، تيقّن أنّه لو فعل لأطلق عليه أولاً. تملّى عينيها . . كانتا تستصرخانه. فكّر أن يغمض عينيه، لكنّه استمرّ يحدّق مكلوماً في مقلتيها . . . أطلق الرصاصة في صدغها، رأى رعشتها و . . . همدتْ إلى الأبد!

استمرت العينان الحزينتان تملآن عينيه . . . أغمض جفنيه فلم تمضيا، جافاه النوم، لولا غفوةٍ قصيرةٍ مع إطلالة الفجر. لكن ناصيف لم يمهله، فقد أيقظه طالباً منه أن يغسل وجهه ويرتدي ثيابه ويلحق به إلى غرفة أمه!

أحسّ اختلاجة هبوب الأخيرة تعبر جسده، لكنّه لم يهمد أبداً، «هل بكيتَ أباك يا وسيم؟ لم أفعل أمام أحد. حتّى أمام أمّي تماسكتُ، وحين يعتصرني الأسى، كنت ألقي رأسي في حجرها وأدفن دمعي الصامت فيه، فتعيد إحياءه بمداعبة شعري. لكنّي وحيداً وأنا أطلّ على مصطبته بكيتُه، بكيتُه حتى كدتُ أختنق بدموعي وشهقاتي التي أغرقت وسادتي . . . وكلّما رأيتُه مكسورَ الخاطر في عجزه كان حزني يتفاقم

ويزداد، متحولاً لغضبٍ بدائيّ؛ لمَ قتلتِه أيتها المجنونة؟ كيف لم أنزل لحظتها وأقبض على عنقك، أشدّ وأشدّ حتى تتوقف أنفاسُك، فما كنت حينها لأصغي لا لصراخك ولا لاسترحامك؟ لكنّي لم أستطع، التصقتُ بالأرض والنافذة، تكبّلتا بي كأنيابٍ أُنشبت في لحمي وما استطاعت انتزاع نفسها ولا انتزاع قطعةٍ منه. . بقيتُ مذهولاً، أنظر فزعك المنطلق من عينيك نحو قلبي! لمَ فعلتِها يا رباب؟ أما استطعتِ الانتظار حتّى الصباح؟ ألم تثقي بي وبقدرتي على إنقاذك؟ أهكذا ارتضيتِ أن ينالني اليُتم مرّتين؟ ألم تفكري بي إن ألغيتِ التفكير بنفسك؟؟ استمرّت الأسئلة تحاصرني، تهاجم حيناً وترتدّ حيناً، تندفع رمحين من حجرٍ يسملان عينيّ، أشتمّ رائحة اللحم المحترِق فلا يغيب المشهد، إسفلتاً يغلي ينصبّ في أذنيّ مالئاً تجاويفهما صمماً. . . ويستمرّ انفجار الطلقة فيهما، قنبلةً تدخل تجويف القلب وتنفجر ممزِّقةً لحمه ناثرةً دمه. . . ويبقى الوجيب الهادر، ليعاود تجميع مِزق اللحم ورذاذ الدم، معيداً ضخّه دون توقف. لم أستطع منها هروباً، ولا لإجاباتها لجوءاً! لمَ كنتِ لي أمّاً يا رباب؟! أوّاه لو بقيتِ أختاً وحسب، لهان الأمر إذن!»

كان الوقت من نبضٍ يقرع صدغيه، يتوقّف طوراً حتى يكاد يدخِله في غيبوبةٍ لزجة، ويتدافع طوراً آخر حتى يكاد في تسارعه ينسف دماغه، ويطلقه بخاراً ملتصقاً بشظايا عظم جمجمته. لكنّ سؤال الأسئلة كان بالنسبة إليه موافقةُ أمّه الصامتة والصريحة على ما أملاه ناصيف عليه، «كيف رضخَتْ له وخضعت؟؟»

قطعت عليه جلبةٌ مفاجئةٌ تساؤلاته فانكمش أكثر، والتصق ظهره ببطن أمه، كأنّما يسعى للتجاوف داخلها مرةً أخرى. خرجت رباب مخفورةً

محنيّة الهامة تائهةً تنتظر غسقها الأخير ووراءها على بعد خطوةٍ أطلّ رأس راوية التي أشارت لهما أن يقتربا. توقّفت الثلّة، فدفعته أمّه أمامها، لكنّ شرطيّاً أوقفهما ملتفتاً إلى رئيسه، فأشار له أن يسمح للأمّ بالمرور.

مضت الأم تجرجر خيباتها من غير أن تلتفت إلى وسيم. على مقربةٍ عضّ ناصيف على نواجذه، وقد توتّرت كلّ خليّةٍ في بدنه، وأمسك في اللحظة الأخيرة يد نوّاف الذي اندفع كثورٍ هائج قائلاً:

ـ انتظر أيها الأحمق!

ـ ألا ترى أنّهم منعوه؟

ـ اخرس!

اخترقت آمنة سياج الشرطة ووقفت على بعد خطوةٍ من رباب وسط دائرة الحصار، فاندفعت رباب نحوها دافنةً رأسها في صدر أمّها، ممرّغةً جبهتها على الصدر الذي ألقمها حلمتي ثدييه وأشبعها يوماً... بقيت الأمّ جداراً من صخرٍ أصمّ. التفتت نحو وسيم، سأل الضابط رباب فأجابت أن نعم!

أمر الضابط شرطيّاً أن يصطحبه بعد تفتيشه بدقّةٍ متناهية. مرّت الأصابع الخبيرة على جسد وسيمٍ وقادته يدٌ مجهولةٌ إلى شقيقته، أمّه وقاتلة أبيه! حالما فُتحت ثغرةٌ وسط السياج البشريّ، انطلق نحوها مُفلِتاً اليد الآسرة. وثب إلى صدرها وعانقها فأحاطته بساعديها. أجهش فوق صدرها، وسال دمعها فوق شعره بعدما أمطرته بآلاف القبَل. وفي شهيق نشيجه همس:

ـ سامحيني يا أمّي.. سامحيني يا رباب!!!

انفلت من بين يديها عائداً لأمّه. حسِب الجميع أنّه سيرتمي في حضنها ليخبئ بكاءه وأمطار أحزانه، لكنّه كان يسترجع تعليمات

ناصيف، «تعانق أمّك وتنسلُ من صدرها المسدّس، تستدير وتصوّب نحو القلب طلقتين فقط، وإن أسعفك الوقت ضع الثالثة في جبهتها. بين عينيها تماماً، مثلما فعلتْ!»

هطل مطرٌ خفيفٌ أيقظ رباب، ورأت في اندفاعة أخيها تصميمَ ناصيف على قتل روح وسيمٍ بدفعه لقتل جسدها. إنّ الكون ليحتمل الكثير... أكثر بكثيرٍ مما يتوقّع المرء ويقدّر ويتخيّل. لكنّ قطرةً متناهية الصغر وأخيرةً ستقوّضه تحت ثقلها! اختلطت دمعة رباب مع الرّهام... كانت صحوتَها. وبيدٍ حازمةٍ حزّت شرايين عنقها ومضت الشفرة المرهفَة بعيداً في حنجرتها!

من إصدارات دار السوسن

عنوان الكتاب	تأليف	ترجمة
جسر بنات يعقوب (رواية)	حسن حميد	
المنطق الصوري في المنظور التجريبي	د . إنصاف حمد	
الأطماع الخارجية في المياه العربية	أيمن البهلول	
أصحاب الجلالة (الأهرامات)	ف . زاماروفسكي	د.هاشم حمادي
أمي مرآتي (بحث الابنة عن هوية)	نانسي فرايدي	راتب شعبو تيسيرحسون
الأدب العبري	حسن حميد	
قلق الكيان الصهيوني	أيمن البهلول	
الوناس عطية (رواية)	حسن حميد	
الاتجاه الآخر (قصص)	د . عفاف بطاينة	
من تاريخ القصيدة	حنا عبود	
الكرة الثقيلة (دراسة عن عملية السلام)	أحمد صوان	
مفاهيم حقوق الإنسان والدولةفي الإسلام	شمس الدين الكيلاني	
المثقف العربي و التحول إلىالديمقراطية	شمس الدين الكيلاني	
لحظة سعادة (قصص)	توماس مان	عدنان حبال
خطيئة الآخرين (رواية)	هنري هاردل	ناديا شومان
قصر الدموع (رواية)	أليف كروتييه	أميمة البهلول
سوريا و إسبانيا	مازن يوسف صباغ	إعداد و توثيق
تصميم المنشآت الهندسيةعلى أحمال الزلزال وفق الطرق التقليدية وبرنامج STAAD - III	م . شاهر نصر	ترجمة و إعداد
بيتي في فسطين	عبدالمعين الملوحي	
النعنع البري (رواية)	أنيسة عبود	
كلمات من ذهب (قصص)	كتّاب روس	د.ابراهيم استنبولي
م.شاهر نصر		
من القصائد الأخيرة	رسول حمزاتوف	م.شاهر نصر
الواقعية في أدب أمريكة اللاتينية	يونس كامل ديب	
الزواج و الأسرة	ميساء نعامة	



إصدارات دار السوسن 2005

اسم الكتاب	تأليف	ترجمة
المرأة والخطيئة الأولى «مأساة لم تنته بعد»	يحيى عيسى	
موت مشتهى (رواية)	عماد شيحة	
الاقتصاد العام	د. منذر خدام	
مشكاة الكلام (شعر)	أنيسة عبود	
ركام الزمن (رواية)	أنيسة عبود	
علماء الفيزياء (مسرحية)	فريدريش دورنمات	د. مازن المغربي
يا صاح أين بلادي؟	مايكل مور	عماد شيحة



في البدء تكون الكلمة، تقول رباب ...
وفي العزلة تهجع روح المكان والزمان. والآن تُلاقي
روحَ الكائن تتخاطاه، فيكون التأمل - مسروقاً، رغماً عنهم،
من شاغل دفع الموت - سيرورةً للبقاء.
يشبه عالم العزلة ذاك، لولا القسوة والوحشية
ومعادات قيم الحياة، عالم الإنسان الداخلي إحين تغيب
الزرقة، ليس سوى الوأد وقتل الأمل وإطفاء الجمرات.
كيلما تطلع أسرَ الروح، وكيلا تُزهق في العتم وشائجك
الأولى. مامن بدٍّ أن تجمح بخيالك حتى تصل تخوم
النجمات ...

عماد



دار السوسن
سورية - دمشق - المزة
www.daralsawsan.com